رایدر هجارد

شهید بدنام

تقریب:

شفیق اسدزاده

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

كليوباترا

المرأة الساحرة والملكة الساهية

بقلم الكاتب الانجليزي الكبير

رايدر هجارد

تعريب الاستاذ

شفيق اسعد فريد

مقدمة

عثر المنقبون حديثا على مقبرة فى منعزل من صحراء ليبيا المقفرة ، الواقعة خلف مدينة ابيدوس ومعبدها . . ذلك المعبد الذى يزعمون أنه المقر الابدى لاوزوريس المقدس . . وكان مما عثروا عليه فى هذه المقبرة حزم من أوراق البردى سجلت فوقها حوادث هذا التاريخ ..

والمقبرة فسيحة الارجاء ، ولا شىء فيها يجتذب الانظار غير مدخلها العميق ، الذى ينحدر رأسيا من المغارة المنحوتة فى الصخر الى قاعة التوابيت فى جوف المغارة .. وأما المدخل فلا يقل عمقه عن تسع وثمانين قدما .

وقد وجدوا ثلاثة توابيت فقط فى الغرفة التى فى نهاية هذا المدخل . من بينها اثنان عبث بهما العرب عند اكتشافهم المقبرة .. ومن المحتمل أن هذين التابوتين كانا يضمان رفاة الكاهن الأعظم (امينمحعت) ، وزوجه . . وهما ابوا (هارماكيس) بطل هذه الرواية ..

امتدت ايدى العرب النابشة اذن إلى رفاة (امينمحعت) المقدسة . .

كما امتدت إلى بقايا زوجه التى جاء ذكرها فى الكتب على انها « المرأة التى تسكنها روح هاتور . » ومثلوا بهما ومزقوا اعضاءهما شر ممزق ، باحثين عن الكنوز الثمينة بين عظامهما . . ومن ثم باعوا تلك العظام لقاء قروش معدودات اصابوها من أول سائح جاهل التفوا به فى طريقهم

ولكن اتفق بعد ذلك بوقت قصير . أن عبر طبيب ، يعرفه كاتب هذه القصة ، النيل الى ابيدوس .. واتصل بالرجال الذين نبشوا المقبرة .. وانتهكوا حرمة الموتى .. فباحوا له بسر المقبرة . . وانبأوه بأنه لا يزال هناك تابوت لم تمتد اليه ايديهم ، ظنا منهم انه تابوت رجل فقير لايستحق اهتمامهم .

وتحركت فى نفس الطبيب غريزة حب الاستطلاع ، وتلهف الى رؤية ذلك القبر الذى لم تطأه اقدام السائحين بعد ، فرشى العرب بالمال ليأخذوه اليه .

وهأنذا أسجل رسالة الطبيب الىّ فى هذا الصدد :

« نمت تلك الليلة على مقربة من معبـد (سيتى) .. وقبل أن ينبثق فجر اليوم التالى بدأت رحلتى .. وكان يرافقنى اعرابى خبيث أحول اسمه « على » ، اطلقت عليه اسم على بابا ـ وهو الرجل الذى حصلت منه على الخاتم الذى ارسله اليك رفق رسالتى ـ ونفر من زملائه الأشداء . . . وما ان انقضت ساعة على شروق الشمس حتى أشرفنا على الوادى الذى يضم المقبرة . وهو مكان موحش تسلط الشمس عليه حرارتها الملتهبة طول النهار ، بحيث لا يستطيـع الانسان أن يلمس الصخور السمراء الضخمة المبعثرة فى جميـع الأرجاء .. وأما الرمال فـكانت تشوى الأقدام شيا .

وكان القيظ قد أشتد بحيث تعذر علينا السير راجلين . . فامتطينا ظهور الحمير ، ورحنـا نضرب فى بطن الوادى بين الرمال المحرقة والسماء التى ترسل من لهيبها شواظا دون أن تقـع أبصارنا على شىء .. اللهم الا عقابا كان يحلق فوق رءوسنا .. حتى بلغنا صخرة هائلة ملساء السطح ، ناعمته ..

ووقف « على » فى تلك البقعة ، وقال ان المقبرة فى أسفل الصخرة . فترجلنا ، وتقدمنـا من الصخرة . . . حتى إذا بلغناها رأينـا فجوه ضيقة لا تـكاد تـكفى لزحف رجل واحد . . ولا ريب أن هذه الفجوة كانت من صنع أبناء آوى . . فقد كان مدخل المغارة وجزء منها مطمورين بالرمال .

وزحف « على » على بطنه ! وحذوت حذوه . وان هى إلا برهة حتى الفيت نفسى فى مكان مرطوب ، تـكتنفه ظلمة موحشة تلقى الذعر فى النفوس . . فأشعلنا مصابيحنا ، وانتظرنا حتى وافانا أصحاب على .

ثم رحت أردد الطرف حولى .

الفيتنى فى كهف لا يزيد حجمه عن غرفة كبيرة ، نحتت فى جوف الصخر وقد زينت جدرانه برسوم ونقوش دينية جميلة ترجع إلى عهد البطالسة . . من بينها صورة لشيخ تبدو عليه سيماء الوقار ، له لحية مرسلة . . جالس فوق مقعد مقوس ، وممسك بعصا فى يده .

فلم تساورنى الريبة فى ان الصورة صورة امينمحعت نفسه .

وأمام هذا الشيخ الوقور سار موكب من الكهنة . وهم يحملون تماثيل مقدسة . .

وفى الركن الأيمن من المقبرة كان مدخل القاعة التى وضعت بها التوابيت وهو عبارة عن فجوة مربعة الشكل منحوتة فى قلب الصخر .

وكنا قد جلبنا معنا غصنا جافا من شجر السنط . . فمددناه فوق فوهة الحفرة .. بعد أن ربطنا اليه حبلا متينا .

وفى لحظة اختفى « على » فى جوف المقبرة .

وهززت الحبل . . وسرعان ما صكت مسامعنا صيحات «على» الخافتة . فادركنا أنه بلغ جوف البئر بسلام .

وما هى إلا لحظات حتى ومض شعاع باهت من الضوء ، صادراً من جوف البئر .

كان على قد أوقد الشموع التى أخذها معه . . ولكنه بتصرفه المفاجىء ازعج مئات الخفافيش التى كانت تشاطر الموتى مثواها الأبدى وأثارها . . اذ لم تلبث أن بدأت تتسرب من الفجوة فى سكون وهدوء

وجذبنا الحبل إلى أعلا . . وربطت أحد طرفيه حول وسطى واحتفظ أعوانى بالطرف الآخر فى أيديهم .. ومن ثم بدأت فى الهبوط من الفجوة الى أعماق تلك البئر السحيقة

ولكنى لاقيت عناء عظيما من مداعبات الخفافيش .. بيد انى لم اكترث للألم الذى نالنى فى غمرة اللهفة التى كانت تستولى على جميع مشاعرى وقتئذ

وأخيرا الفيتنى واقفا بجانب (على) ، فى ممر ضيق ، وقد تعلقت بى الخفافيش ، وتصبب العرق من جسمى غزيرا . . وأصيبت ركبتاى بتسلخ شديد . .

وبعد قليل . لحق بنا رجل آخر . . وأما الباقون فانهم آثروا الانتظار عند فوهة البئر .

وتقدمنا (على) وحمل كل منا شمعة . .

وانطلقنا فى دهليز طويل يرتفع الى خمسة أقدام . وما لبث الدهليز أن

اتسع أمامنا . حتى بلغنا غرفة التوابيت فى النهاية . .

كانت غرفة مربعة الشكل .. خالية من النقوش والرسوم . أشد وحشة وانقباضا مما مر بى من الغرف والقاعات

وقلبت الطرف حولى .. فوقع بصرى على غطاءى التابوتين . . وبقايا رفاة الكاهن العظيم وزوجه اللذين عبثت بهما أيدى العرب من قبل . .

وقد لاحظت أن النقوش المرسومة فوق الغطائين على غاية من الروعة والدقة ، بيد أننى لم أستطع فك طلاسمها لجهلى باللغة الهيروغليفية .

وحولت بصرى الى محتويات الصندوقين ، فاذا بى أرى رأس رجل منفصل عن الجسد.. فتناولته .. وانعمت النظر الى وجهه .

وكان وجها جميلا ينم عن النبل ، وكرم المحتد . . وأدركت من منظر الرأس أن شعره أزيل عقب الموت مباشرة ..

ولم يغب عنى أن الوجه وجه رجل طاعن فى السن . . تلوح عليه سماء المهابة والوقار . فسرت فى نفسى رعدة شديدة . . وزادنى ارتياعا أن رأيت فى ذينك الكهفين الغائرين ظل نظرة مروعة . . ولدت فى نفسى الاعتقاد بالخرافات . . فاسرعت باعادة الرأس الى مكانه . وأشحت عنه بوجهى الى الصندوق الآخر ..

كانت بداخله جثة أخرى .. وقد لف وجه صاحبها فى أربطة وسبائك رقيقة من الذهب .. فلم أجرؤ على حلها .. فتركتها حيث هى ..

واشار (على) ، الى صندوق كبير ، ملقى في زاوية الغرفة ومقلوبا فوق جانبه . . ثم قال :

— هذه هى المومياء الأخرى .

فتقدمت من التابوت ، وفحصته . . فاذا هو مصنوع بدقة من خشب الأرز .. ولكنه عار من النقوش والرسوم التى تمثل الآلهة . .

وقال (على) : لاريب أنهم دفنوه على عجل ، فهو ملقى على جانبه كما ترى ..

اطلت التأمل الى الصندوق ، الى ان أثار اهتمامى فى النهاية . .

كنت قد نفرت من رؤية احداث الموتي ملقاة هكذا دون احترام ، عندما وقع بصرى على ما حل برفاة الزوجين المبجلين . وعولت على ألا أمس التابوت الثالث . ولـكن سرعان ما تملـكنى فضول شديد ، فطرحت عنى ذلك التردد وأقبلت على العمل بحماسة ولهفـة .

وكان (على) قد جلب معه مطرقة خشبية . فاصلح وضـع التابوت ، ثم بدأ عمله بتلك الحماسة والغيرة المألوفتين فى ناشى القبور .

وشد ما دهشت حين تبينت أن هذا التابوت يختلف اختلافا بينا عما عداه من التوابيت . فالمتبع فى توابيت الموتى أنها تقفل بوساطـة أربعة السنة من الخشب . اثنان منها فى كل جانب . ولـكن كان لهـذا التابوت ثمانية السنة . أربعة فى كل جانب .

لا ريب أنهم أرادوا بذلك شدة المحافظة على جثة الميت .

وبعد لأى استطعنا أن نرفع الغطاء الثقيل ، وكان سمكه نحو ثلاث بوصات وهناك ، فى جوف التابوت ، وقع بصرنا على الجثة مكفنة فى طبقة من العقاقير المعطرة .

وحدق (على) فى الجثة مشدوها . كانت تختلف فى الوضع عن غيرها . فقد جرت العادة أن تمدد الجثث على ظهورها ، فاذا ما اكتشفت ، تكون قد جفت وتصلبت ، كأنها قطعة من الخشب .

وأما هذه الجثة فانها كانت ممددة على أحد الجانبين . والركبتان مثنيتان قليلا . برغم الأقمشة التى لفت حولها . والوجه قـد غطى بطبقة من الذهب جريا على عادة البطالسة . ولـكن هذه الطبقة كانت قد تحللت ، واستحالت الى مسحوق تحت الرأس الملفوف بالأربطة .

وللوهلة الأولى أدركت أن هذه الجثة وضعت قسراً فى التابوت

قال على :

— يا لها من مومياء مضحكة ! لا ريب أن صاحب الجثة لم يكن قدمات عندما وضعت جثته فى التابوت .

فأجبت :

— حديث خرافة ! من سمع عن مومياء حية ! !

— ورفعنا الجثة من التابوت ، ونحن نكاد نختنق من الغبار المتطاير . . فعثرنا على لقيتنا الأولى بين عقاقير التحنيط . .

كانت حزمة من أوراق البردى ، لفت بغير عناية فى قطعة من النسيج .. وألقيت عند قفل التابوت . .

ورمق « على » الحزمة بعينين يتجلى فيهما الجشع . . ولـكننى أسرعت والتقطتها قبل أن تمتد اليها يده . . ودسستها فى جيبى . فقد اتفقنا من قبل على أن استولى على كل ماعسانا نعثر عليه . .

وشرعنا فى حل اربطة الجثـة . . وكانت أربطة عريضة متينة ، لفت بكثرة حولها . ولـكنها ربطت باهمال وتراخ . مما يدل على أن العمل كله قدم بسرعة ومشقة عظيمتين . .

وكان فوق الرأس مباشرة شيء بارز متضخم . . فلما فـككنا العصائب الملفوفة حول الرأس ، عثرنا على حزمة أخرى من أوراق البردى موضـوعة فوق الوجه . .

ومددت يدى لألتقط الحزمة . . ولـكننى ألفيتها ملتصقة به . . فقـد كانت الجثة كلها موضوعة فى شبـه كيس من الشمع . . فانحنيت فوقها . وتأملتها مليـاً ، وعندئذ أيقنت أن هذا الـكيس إن هو إلا مواد التحنيط وقد استحالت الى مادة أشبه بالغراء . . وانني لو انتزعت الحزمة قسراً لتمزقت الأوراق الخارجية . .

ومع ذلك فقد جازفت ، وانتزعتها من مكانهـا . . وضممتهـا الى الحزمة الأولى فى جيبى . .

واستأنفنا عملنا البغيض ، بهدوء وسكون . . فنزعنا شبه الـكيس بعناية وحذر . . وحينئذ برزت جثة رجل من جوفه

وبين ركبتى الجثـة عثرت على حزمة ثالثـة من أوراق البردى . . فأخذتها . ووضعتها بدورها فى جيبى . . وأدنيت الشمعة من وجه الميت . . . وأنعمت النظر اليه . وعندئذ تجلى لى كيف مات هذا الرجل .

لم يكن الجسم قد جف تماما ، لأنه لم يوضع فى النطرون مدة السبعين يوما المقررة للتحنيط . . ولذا كانت قسمات الوجه واضحة بجلاء . . وحسبى أن أقول إن النظرة التى كانت مجسمة على وجه هذا التعس جعلتنا جميعاً نتراجع إلى الخلف مذعورين .

ولم يقع بصرى على فتحة فى الجنب الأيسر ، وهى الفتحة التى يحدثها المحنطون ، ليدخلوا عقاقير التحنيط من خلالها الى جوف الجثة . .

ومن النظرة الأولى إلى وجه الرجل عرفت أنه فى منتصف العمر . . رغم الشعيرات البيضاء التى تجلل رأسه .

وكان الرجل متين البنيان ، عريض المنكبين . . ولكننى لم أجد من وقتى متسعا لفحص أعضائه جميعا فحصا دقيقا . . فانه لم تمض دقائق على فتح التابوت حتى أخذت الجثة غير المحنطة تتحلل بتأثير الهواء . .

وبعد ست دقائق كانت قد تحللت تماما . . ولم يبق منها غير خصلة من الشعر . والجمجمة . وكومة من عظام الهيكل الطويلة

وقد لاحظت ان عظمة إحدى الساقين مهشمة . . ولكنها جبرت بغير اتقان . إذ كانت أقصر من أختها ببوصة . .

وانتهى عملنا عند هذا الحد . . والآن وقد زايلنى الاضطراب . فقد أحسست اننى على قيد أنملة من الموت . بسبب ما عانيته من حرارة المكان المرتفعة . . وما بذلته من مجهود جبار . . والهواء الفاسد الذى استنشقته فى هذه الغرفة المقفلة . .

لقد سئمت الكتابة ، فان السفينة لا تستقر على سطح الماء . . ولا تفتأ تهتز وتتمايل . . ولا ريب ان رسالتى هذه ستصلك قبل أن أبلغ لندن بعشرة أيام على الأقل . . وشد ما أتلهف على أن انهى اليك ما لاقيته من متاعب وأهوال أثناء تلك الرحلة الطريفة . . وحسبى أن أقول ان (على بابا) وزملاءه الأشرار حاولوا بالارهاب والتهديد أن أنزل لهم عن أوراق البردى . ولكننى رفضت وانتصرت عليهم فى النهاية . .

سوف نفك الرموز والطلاسم المسجلة فى اللفائف . . وأكبر ظنى انها

لا تحتوى على شيء غير عادى . . بل لا تعدو أن تكون نسخة من « كتاب الموتى » . . ولـكن من المحتمل ان نعثر على شيء آخر خلال سطورها .

والآن . . إلى اللقاء يا صديقى .

« * »

وصل صديقى إلى لندن فى الموعد المحدد . .

وفى اليوم التالى ، زرنا عالما اخصائيا فى اللغة الهيروغليفية ، والديموطيقية وأطلعناه على اللفائف . .

ورحنا نرقبه فى لهفة واهتمام ، وهو يقلب أوراق البردى بين يديه . . ويطيل النظر إلى رسومها من خلال عويناته الذهبية . .

وأخيراً هتف :

— آه ! ! ليست هذه الأوراق نسخة من كتاب « أسرار الموتى » على كل حال . ! يا الهى ! ! ماهذا ؟ ! كا . . كليو . . كليوباترا . . نعم ياسيدى العزيزين . هى قصة رجل عاش في عصر كليوباترا . . ولا ريب . . فانى أرى اسم انطونيوس بجانب اسمها ؟! حسنا . . ان أمامى عمـلا سيشغلنى مدة ستة شهور على الأقل ! ؟

وفى غمرة الفرح راح الرجل يثب فوق أرض الغرفة . . ويصافحنا بين الحين والحين . .

ثم استطرد :

— لابد لى من ترجمتها . . وسننشرها علي الملأ . . وبحق أوزوريس الحى انها ستطيش صواب كل مشتغل بالعلوم المصرية القـديمة فى أوربا من الحسد ؟! يالها من لقية !! ما أعظمها من كنز نفيس !!

***

والآن وقد ترجمت هـذه الأوراق الهـامة . . وطبعت . . فعليكم بها اقرأوها ، هاهي مبسوطة أمامكم ، كأرض عذراء مجهولة ، فامشوا فى مناكبها ، وجوسوا خلالها ، ملء حريتكم ورغبتكم

هوذا هارما كيس يخاطبكم من قبره المنسى . . وقد سقطت الحواجز

الزمنية التى تفصلكم عنه ، انه يرسم أمام أعينكم صورة من الماضى السحيق ، ويميط عنها اللثام ، واضحة لاموارية فيها ولا خفاء .

انه يظهركم على مصر فى عهدين مختلفين ، والاهرامات الصامتة تطل عليها منذ أجيال طويلة خلت ، مصر فى العصر اليونانى ، والرومانى ، والبطليموسى ، ثم مصر المنهوكة القوى فى عهد الكهنة ، وقد انهظت المتاعب كاهلها ، مصر التى تندب مجدا قديما ضاع على مرور الزمن .

سيحدثكم كيف اشتعلت جذوة الولاء الدفين فى أرض مصر قبل اخمادها ، وكيف ناحفت تلك العقيدة القديمة سيل التغيير العرم الذى فاض عليها ، وأغرق آلهتها .

هنا ، فى هذه الصفحات ، ستعرفون مجد (ايزيس) ، ذات الهيئات المتعددة ، ومنفذة الأوامر ، هنا ستقفون على ظل كليوباترا (الشعلة المتقدة) التى قرر جمالها الفتان . وسحرها الذى يسبى العقول وينفذ الى الافئدة ، مصير امبراطوريات ، هنا ستقرأون كيف قتلت (شارميون) بسيف انتقامها .

وهنا يحييكم هارماكيس المصرى وهو على أبواب الأبديه ، يحييكم يا من ستتبعون خطواته فى الطريق الذى إنتهى الى مصرعه ، وسيريكم فى قصة حياته المؤسية ماقد يكون قصة حياتكم أيضا ، وسهتف من أعماق

(مطهر الأرواح) المظلم حيث يقضى أيام توبته الطويلة ، ويحدثكم بتاريخ سقوطه وانحداره ، وخاتمة الرجل الذى ينسى ربه ، وشرفه ، ووطنه مهما كانت قسوة التجارب التى عاناها وتقلب عليها

القسم الاول

الفصل الاول

نبوءة هاتور

اقسم باوزوريس القائم فى ابوثيس انى لا أقول غير الحق . . ولا شىء غير الحق .

أنا هارما كيس كاهن المعبد بالوراثة ، ربيب سيتى المقدس ، أحد فراعنة مصر الأقدمين ، والقائم الآن فى أحضان أوزوريس ، والحاكم فى أمنتى (مطهر الارواح)

أنا ، هارما كيس ! المقدس بالحق ، صاحب التاج المزدوج بحق الدم الموروث وفرعون مصر العليا والسفلى . . أنا هارما كيس ، الذى القيت عنى زهرة أملنا المتفتحة . وتنكبت طريق المجد . وتجاهلت صوت الاله ، وأنصت الى صوت امرأة . . أنا هارما كيس ، الساقط الذى اجتمعت فيه كل النقائص والرذائل ، كما تتجمع المياه فى بئر فى الصحراء . أنا الذى خنت بلادى .. وبتفريطى فى السؤدد الحاضر فقدت السؤدد الأبدى . . فاهلكت نفسى ، وأضعتها . . أسجل الحقيقة بحق ذلك النائم فى أبوثيس .

« * »

واذ أسجل هذه السطور وراء الحقول الخصبة يخيل الى أن النيل يجرى دما احمر . . وأرى أمامى نور الشمس وقد سقط على التلال البعيدة ..

وجدران معبد ابوثيس

ما زال الكهنة يصلون داخل المعبد الذى لفظنى . . وما زالت القرابين

تقدم للآلهة المقدسة . . وجدران المعبد تردد صدى صلوات الشعب . . واما أنا ، رمز الخزى والعار . فاراقب من زنزانتى الموحشة داخل سجنى ، أعلاك الخفاقة ، أى أوزوريس ، وهى ترفرف فوق جدران أبراجك السامقة . . واسمع ترانيم المصلين . . وموكبهم ينتقل من هيكل الى هيكل .

أى أبوثيس ، أبوثيس الضائعة ! ان قلبى يتمزق حسرة من أجلك . . فسيأتى يوم تظمر فيه رمال الصحراء أماكنك السرية . . لقد كتب الدمار على آلهتك ، أى أبوثيس ، وستسخر أديان جديدة من كل ما هو مقدس فيك . . وينتهك قواد الرومان حرمتك . . ويتادى أحدهم الآخر من وراء جدران حصونك .. اننى أبكى . . أبكى دموعا من الدم . . فان خطيئتى هى التى جلبت كل هذه الشرور . . وأنا وحدى الذى تقع علي تبعة كل عار ومذلة .

انظروا . . هأنذا أسجل قصتى .

ولدت أنا هارما كيس ، فى أبوثيس . . وكان أبى الراقد الآن فى أحضان اوزوريس ، الكاهن الأعظم لمعبد سيتى . . ويوم ولدت ، ولدت كليوباترا ملكة مصر .

وقد قضيت ايام حداثتى فى الحقول ، اراقب افراد الطبقة الدنيا وهم يؤدون اعمالهم .. وارتع وألعب بين ابهاء المعابد العظيمة بمل ءحريتى .. وكما يروقنى وأما امى فلا اعلم عنها شيئا . . فقد ماتت وأنا لا ازال أحبو على اربع .. ولكننى سمعت من العجوز (اتوا) ان امى قبيل موتها فى عهد اولتيس الزمار ، احد ملوك البطالسة ، تناولت ثعبانا من الذهب ، وهو رمز الملكية فى مصر ، وكانت قد أخرجته من صندوق من العاج .. ووضعته فوق جبينى وأما الذين رأوها وهى تفعل ذلك فقد اعتقدوا أن الآلهة سكنت قلبها ، وخلبت لبها ، فتنبأت فى جنونها باليوم الذى سيزول فيه حكم المقدونيين ويعود فيه صولجان مصر إلى الاسرة الملكية الحقيقية ..

ولكن عندما جاء ابى امينمحت الكاهن الأعظم . . ورأى ما فعلت بى أمى ، وهى تجود بأنفاسها الأخيرة ، رفع يديه إلى السماء ، وقدم فروض

الطاعة للقوة غير المنظورة .. شاكرا لها العلامة التى أرسلتها ..

وفيما كان يبتهل الى الآلهة ، حلت روح النبوة فى أمى فى اللحظة الأخيرة فنهضت من فراشها وقد زايلها المرض ، وخرت ساجدة ثلاثة أيام أمام المهد الذى كنت نائما فيه . والتاج الذهبى لا يزال يحلى جبينى

ثم هتفت قائلة :

— السلام عليك يا ثمرة الاحشاء !! السلام لك أيها الطفل الملكى !! السلام لك يامن سيكون فرعون مصر !! السلام لك ايها الاله الذى سيطهر البلاد . . ياسليل « نخت — نف » سليلة ازيس . . كن دائما طاهراً ، وستحكم مصر ، وتخلصها من نير العبودية ، وتصبح راسخا كالطود .. لكن اذا استضعفت فى ساعة التجربة فستحل عليك لعنة جميع آلهة مصر .. ونقمة اجدادك الذين اعتلوا عرش مصر من قبل مذ عهد هوروس . . وليكن الشقاء والبؤس نصيبك .. ولينبذك اوزوريس بعد الموت . . وتصدر قضاة (امنتي) حكمها ضدك .. وتنكل بك (ست وسخت) حتي يأتى اليوم الذى تطهر فيه من خطيئتك .. ويعود الناس مرة أخرى الى عبادة الآلهة فى هياكل مصر . وتخضد شوكة الباغى الظالم .. وتطهر البلاد من حكم الاجنبى ويعود اليها الصفاء الذى كدرته فى ساعة من ساعات ضعفك .

واذ فرغت أمى من حديثها . زايلتها روح النبوة .. وسقطت ميتة فوق مهدى .. فاستيقظت صارخا ..

وانتفض ابى امينمحت الكاهن الأعظم . . واستولى عليه خوف عظيم من جراء الكلمات التي نطقت بها روح هاتور على لسان امى . . تلك الكلمات التي تتضمن خيانة بطليموس ..

وكان ابى يعلم انه اذا بلغت هذه النبوءة مسامع الملك ، فانه ولا ريب سيبعث حراسه لقتل الطفل الذى قيلت عنه . فأغلق الأبواب . وأرغم جميع الذين سمعوا النبوءة على أن يقسموا بالرمز المقدس . وبالثالوث المقدس . وبروح المرأة التى سقطت ميتة على الأحجار بجانبهم ، الا يفوهوا بكلمة مما سمعوا ، أو يفضوا بشىء مما رأوا ..

وكانت (اتوّا) العجوز بين الحاضرين . . وهى مربية أمى ، وكانت تحبها حبا جما .. ولكن القسم لم يكن ليربط لسان المرأة فى تلك الأيام . . فسرعان ما افشت سر النبوءة الى ابنتها ، وكانت مرضعتى آنئذ

وعقبت (اتوّا) على ذكر النبوءة بقولها ان مثل هـــذا الطفل جدير بالاهتمام وحثت ابنتها على تبجيلى ، بوصفى فرعون مصر المقبل . الذى سيطرد البطالسة .

واخذت الابنة بهذا النبأ . ولم تستطع أن تكتمه عن زوجها الذى باح به لأحد أصدقائه من جواسيس بطليموس . وهذا أبلغه بدوره الى الملك .

وقد أقام هذا النبأ فرعون وأقعده . وقض مضجعه . . ومع أنه كان يهزأ بآلهة المصريين كلما لعبت الخمر برأســه . ويقسم أنه لا يجثو لأى اله مهما كان شأنه . غير مجلس شيوخ روما ، فانه كان يشعر بذعر عظيم ، كما علمت فيما بعد من أحد أطبائه ، كلما انفرد بنفسه فى الليل .. ويصيح مناديا الاله العظيم (سيرابيس) . وماهو باله صادق .. وغيره من الآلهة خشية أن يقتل وتسلم روحه الى الجلادين . .

أقول ما أن سمع بطليموس بالنبوءة . وعرف مصدرها ، حتى اضطرب ظهرا لبطن . واستدعى نفرا من حراسه الأمناء .. وأرسلهم فى زورق الى أعالى النيل .. بعــد أن أمرهم بالذهاب الى ابوثيس . وقتل ابن امينمحت الــكاهن الأعظم . على أن يأتوه بالرأس فى سلة .

ولــكن حدث أن كان زورق الحراس عميقا .. ومياه النيل قليلة الغور فالتصق بقاع النهر . وغاص فى الطين . فاستنجد الحراس ببعض الفــلاحين ولــكن الفلاحين أعرضوا عنهم ونأوا بجانبهم .. عندما رأوا أنهم من يونانى الأسكندرية .

وصاح الحراس فيهم يستحثونهم : . وزعموا أنهم موفدون من قبل فرعون لاتمام مهمة عاجلة . فلم يصدقهم الفلاحون . وعندئذ كاشفهم احــد الحراس ، وكان جبانا رعديداً ، بطبيعة المهمة .. فذعر الفلاحون . وأجابوهم إلى طلبهم

وكان من بين هؤلاء الفلاحين رجل له صلة قربى بأمى . . فما ان سمع هذه الانباء المزعجة ، حتى أطلق ساقيه للريح . ولم يكف عن الركض حتى بلغ المكان الذى كنت نائما فيه .. وكان واقعا خارج السور الشمالى للهيكل العظيم .

واتفق أن كان أبي غائبا وقتئذ فى المقابر التى الى يسار الحصن . . وكان حراس فرعون يسرعون فى سيرهم .. فكاشف الفلاح (اتوّا) بكل شىء . وانبأها أن الجنود قادمون لقتلى ..

وسقط فى يد الاثنين . . ولم يدريا ما يفعلان . فلو أنهما حاولا إخفائى لما أنقذنى ذلك من أيدى الحراس . . فهم لاريب سيبحثون عنى فى كل مكان حتى يعثروا علىَ ..

ولاحت من الفلاح التفاتة إلى الباب ، فرأى طفلا يلعب . . فصاح :

— طفل من هذا أيتها المرأة ؟

— انه حفيدى . . أخو الأمير هارما كيس فى الرضاعة . . وهو ابن المرأة التى جرت علينا هذا البلاء

فأشار الرجل الى الطفل مرة أخرى . . وهتف :

– أيتها المرأة . . إنك تعرفين واجبك فى هذه اللحظة الرهيبة . . فأناشدك بحق الاسم المقدس أن تقومى به ! ؟

فر لون المرأة . . وجمدت فى مكانها لا تتحرك . .

ولكنها أقدمت على التضحية العظيمة . . فأخذت الطفل ، وغسلته ! وألبسته ثوبا حريريا ، ثم مددته فى مهدى . . أما أنا فانها أخذتنى ولوثت وجهى بالأوحال . . ونزعت جلبابى ، وتركتنى ألعب فى الطين فى فناء الهيكل وانطلق الفلاح لشأنه . .

وبعد هنيهة أقبل جنود فرعون . . فقدمت لهم العجوز (اتوّا) لبناً وعسلا ثم سألتهم عما يريدون . .

وإذ سألها أحد الحراس عما إذا كان الطفل النائم فى المهد هو ابن أمينمحت الكاهن الأعظم . . راحت المرأة تسرد عليهم النبوءة بخذافيرها .

وضحك الحراس ساخرين . . وتقدم أحدهم من الطفل . . وذبحه ذبح الشاة . . ثم أخرج الحارس خاتم فرعون . وأراه للعجوز . وأمرها ساخراً أن تنبىء الكاهن الأعظم بأن ابنه سيكون ملكا بلا رأس . !

وعند رحيلهم رآنى أحدهم وأنا ألعب في الأوحال . . فهتف :

— هوذا طفل آخر غير الأمير هارما كيس

وبدا التردد على الحراس . . وأخذوا يتشاورون فى قتلى . . ولكنهم انصرفوا فى النهاية . . وهم يحملون رأس أخى فى الرضاعة

وبعد وقت قصير ، عادت أم الطفل المقتول من السوق . . فلما رأت وزوجها ماحل بابنهما . . خطر لهما أن يقتلا العجوز (أتوّا) ويسلمانى لجنود فرعون .. ولكن حدث أن جاء أبى فى تلك الاثناء . . واطلع على الحقيقة فأمر باعتقال المرأة وزوجها . وزجهما فى مكان مظلم من الهيكل . . فلم يرهما أحد بعد ذلك . .

وأشيع فيما بعد أن امينمحت الكاهن الأعظم تبنانى بدلا من ابنه هارما كيس الذى قتله جنود فرعون

الفصل الثانى

عصيان هارما كيس .

لم يزعجنا بطليموس (الزمار) بعد ذلك . ولم يعد الكرة فيبعث بجنوده إلى ابوثيس للبحث عن الطفل الذى تنبأت زوجة امينمحت بأنه سيكون فرعون مصر .. وطبيعى الا يحاول ذلك بعد أن اتاه جنوده برأس الطفل — أخى فى الرضاعة — وهو جالس فى قصره ، المصنوع من المرمر فى الاسكندرية .

كان في هذه اللحظة ينفخ في مزماره ، فى جمع من نسائه . . وقد انتفخت أوداجه بفعل خمر قبرص . . فلما وقع بصره على رأس الطفل البرىء ، أمر جنديه أن يرفعه من شعره . ثم ضحك باشمئزاز ، وخلع حذاءه . ولطم الطفل

على وجهه . . وأمر إحدى جواريه أن تتوجه فرعونا بأ كليـل من الورد . . وركع أمامه وأخذ يسخر منه .

وكانت الجـارية سليطة اللسان . . فقالت لفرعون أنه أصاب بالسجود . لأن الطفـل المقتول هو أحـد الفراعنـة ، بل أعظمهم جميعـا ، واسمـه (أوزوريس) .. وعرشه (الموت) ..

فانتفض بطليموس . . وأمر بقتل الجارية ، لتذهب إلى فرعونهـا الذى سمته .. وتعبده

وصرف الجاريات الأخريات . وكفّ عن النفخ فى المزمار . . وأقبل على الخمر يلتمس فيها النسيان .

وكرت أعوام . . وتتابعت سنون . وأخـذ أبى ، والمعلمون ، يلقنوننى العلوم القديمـة .. والدراسات الدينيـة المتعلقه بالاله . . حتى دخلت فى طور الغلمان .

كنت جميـل الطلعة . . ذا شعر أسود . وعينين زرقاوين مثـل زهرة اللوتس . أبيض البشرة كالمرمر .. وقد زالت هذه المحاسن الآن . . ولذا فأنا أذكرها دون خجل .

وقد شببت عريض المنكبين ، مفتول الساعدين . . يهابنى أترابى فى أبو ثيس . ولا يجرؤ أحدهم على منازلتى . بل لا أحسبنى مغالياً إذا قلت اننى كنت أفوقهم جميعا فى قذف المقلاع والرمح . وقد أغرمت باقتناص الأسود ولـكن أبى نهانى عن ذلك خشية أن تستهدف حيـاتى الثمينة للخطر . . فاذا ما استوضحته معنى قوله . . عبس وقال ان الآلهة ستكشف لى عن الحقيقة فى حينها . .

وكان فى أبوثيس شاب قتل مع آخرين أسداً انقض على قطيع أبيه . . وكان هذا الشاب يحسدنى لقوتى وجمال طلعتى ، فراح يذيع عنى اننى جبان . لا أصطاد غير الغزلان . وأبناء آوى

واتفق ان كنت منصرفا من حضرة أبى الـكاهن الأعظم ذات يوم . . فالتقيت بهذا الشاب .

واستوقفنى . وسخر منى . ثم قال إن الناس يتحدثون عن وجود أسد بين الأدغال والأحراش على ضفتى الترعة التى تمر بالهيكل على بعد ثلاثين فرسخا من ابوثيس . وسألنى ساخراً أن أرافقه ان كنت على شىء من الشجاعة والاقدام . وأساعده على قتل الأسد . اللهم ان آثرت أن أجلس بين النسوة لمشطن شعرى ؟ ! !

ثارت ثائرتى . وكدت أنقض على الشاب . ولكننى تمهلت . وقلت متحديا :

— هلم معى بمفردك لنبحث عن الاسد . وعندئذ سنرى أينا أشد جبناً وأضعف قلباً .

فبدا عليه التردد . فقد جرت العادة أن يخرج الشبان جماعات لصيد الأسود . ورحت أسخر منه بدورى .

وكأنما كبر عليه أن أعيره بجبنه وضعفه . إذ سرعان ما انطلق إلى منزله ثم عاد يحمل قوسه وسهامه . وسكيناً حاداً . وأما أنا فقد تقلدت رمحى الثقيل وكانت قصبته من خشب السنط . . وفى طرفه رمانة من الفضة تحول دون افلاته من اليد .

وانطلقنا صامتين إلى عرين الأسد

ووصلنا إلى غايتنا عند غروب الشمس . . ورأينا آثار أقدام الأسد مطبوعة على الطين فوق الضفة . . وكانت الآثار تتجه إلى الغاب . . فقلت لرفيقى :

— هل تجد من نفسك الجرأة على أن تتقدمنى أيها المتكبر . . أم أفعل أنا ؟

فتردد .. وحينئذ هممت بالسير أمامه . فقال معترضاً :

— لا .. لا . . لاتكن مجنونا . والا فتاك بك . . انظر ! . سأطلق سهمى ليستيقظ ان كان نائما .

وأطلق السهم .

لست أدرى كيف أصاب الهدف . ولكن اتفق ان كان الأسد نائما . .

وحين أحس بالسهم ينغرس فى لحمه . وثب من مكمنه ! وانفلت من الغاب كما ينبثق البرق من جوف السحاب . وواجهنا مكشراً عن أنيابه . والسهم يهتز فى خاصرته

وزأر زئيرا مخيفاً . شعرنا على أثره كأن الأرض زلزلت من تحتنا . .

فصحت :

— سدد اليه سهما آخر قبل أن يفتك بنا .

ولكن الذعر كان قد شل حركة رفيقى . . وخانته أعصابه . وسقط القوس من يده . ولم يلبث أن صرخ صرخة داوية .. وتراجع خطوة محاولا أن يتوارى خلفى من الوحش الكاسر وتركنى وحدى أمامه وجها لوجه

أدركت اننى هالك لامحالة . ولكننى لم أفكر فى الهروب لعلمى بان مثل هذه المحاولة مقضى عليها بالفشل .

وفى اللحظة التالية . وثب الأسد من فوق رأسى ، دون أن يمسسنى بسوء ثم انقض على رفيقى . ولطمه بمخلبه لطمة هشمت جمجمته

وسقط الشاب صريعا على الأثر . ووقف الأسد مصعرا خده . وهو يختال فوق فريسته .ثم دوى زئيره يصم الآذان . فأيقنت أن لحظتى قد دنت . وانى ان لم أبادر بعمل سريع . فسألاقى حتما مصير رفيقى .

وقبضت على الرمح بكل قوتى . . وصرخت فى وجه عدوى الشديد المراس ثم حملت عليه . .

وتحفز الأسد . . ونهض على قائمتيه الخلفيتين . واستعد لملاقاتى . .

ولكننى عاجلته بطعنة نافذة قاتلة . . ودفنت الرمح فى حلقه . . فأنّ أنينا موجعاً . . ووثب فى الهواء على ارتفاع قامتين . . وجعل يناضل بمخلبيه الامامين ليتخلص من الرمح ..

وأخيرا وهنت قواه .. لكثرة مانزف من دمائه .. ثم خار خوار الثور . وسقط جثة هامدة .

وتنفست الصعداء . . ولكننى كنت أنتفض فرقا ، وفزعا . بعد أن زالت أسباب الفزع .

وفجأة .. برزت (اتوّا) من بين الأشجار .

كانت قد انطلقت الى شاطىء الترعة لتجمع بعض الاعشاب الطبيـة . فبلغ مسامعها صوت صراعى الرهيب . . فجاءت تستطلع جلية الأمر

ولما تحققت المرأة من أنى هـــارما كيس . جثت أمامى ، وحيتنى . وراحت تحدثنى وهى تطلق على لقب (ملك) !

نعم . نادتني باسم فرعون ! منقذمصر !

ولـكنى اعتقدت أن الرعب هو الذى اطلق لسانها بهذا الـكلام . وقلت :

— وهل قتلى أسداً يعتبر عملا عظيما يستحق كل هذا الاطراء والتضخيم؟ فى العالم كثيرون قتلوا اسوداً لا أسداً واحداً . ألم يقتل (امنحتب) المقدس أكثر من مائة أسد ؟ ألم يفعل غيره مثلما فعل وفعلت ؟ لماذا تنطقين إذن بهذه الاسماء أيتها المرأة الحمقاء ؟

كنت أبغى التظاهر بالاستخفاف بمثل العمل الذى اتممت . ولـكن المرأة لم تـكف عن تقديم فروض الولاء والتـكريم . وجعلت تنادينى بالقاب أرفع من أن تسجل

وهتفت :

— يا سليل الملوك . لقد تنبأت أمك عن حـكمة . ولا ريب أن الروح المقدس (نبث) كان يسكنها . انظر إلى هذا الفأل الحسن يا مبعوث الآلهة ! هذا الاسد المضرج بدمه . أنه يزأر بين جدران الـكابيتول فى روما . وهذا الرجل المقتول . إنه بطليموس ، نسل الملاعين الذين اغتصبوا وادى النيل . ستذهب مع أهل لاجدوس المقدونيين لقتل الاسد الرومانى . وسيولى الجبناء منهم فرارا . ويقتلهم الاسد الروماني . وأما أنت فستصرع الاسد . وستحرر ارض خم (مصر) مرة أخرى . وتعيد اليها حريتها ! نعم حريتها ! فكن لطهارة نفسك . حافظا وعلى نقائها حارساً . فهذا ما تطالبك به الآلهة يا سليل الملوك وأمل مصر . حذار من المرأة . فانها اس البلايا . ومصدر الارزاء إنى إمرأة فقيرة شقية . صرعها الحـزن . والألم . وقـد اقترفت جرما

عظيما بافشائى ما كان يجب أن يبقى طى الكتمان . ولكنى وفيت الثمن .قطعة من ذات نفسى . وفديتك راضية مغتبطة . بيد أننى لا أزال أتمتع بحكمة قومى. ولم تتخل الآلهة بعد ،والجميع عندها سواسية ، عن الفقير . فقد حدثتنى الأم المقدسة (ايزيس) ليلة أمس . وأمرتنى أن أجمع الاعشاب الطبية . واشرح لك العلامات التى أراها . وهأنذا أكرر أن ما ذكرته لك سيحدث، فقط لو استطعت أن تحتمل وطأة التجربة الشديدة . اقترب منى يا سليل الملوك !

وقادتنى الى حافة الترعة . . وكانت المياه عميقة رقراقة .

ثم قالت :

— انظر الى وجهك منعكسا على صفحة الماء .. اليس هذا الجبين جديرا بلبس التاج المزدوج ؟ ألا تتجلى فى هاتين العينين الصافيتين عظمة الملوك ؟ ألم يكوّن الخالق (بتاح) جسمك هذا ليلائم لباس الملوك .

واستحال صوتها حادا رنانا .. واستطردت :

— لا . . لا . . لا تكن أحمق ايها الغلام . . إن الخدش الذى أصابك من صراعك مع الأسد سام يابنى . . انه شىء مخيف . . كلدغ الأفعى . . ينبغى ألا يهمل . والا تقيح . . ولكنى أحطت بدواء التقيح . فما فقدت عقلى عبثا . . ودون مقابل . . فان لكل شىء مقابله . . ففى الجنون حكمة عظيمة . . وفى الحكمة جنون عظيم ! انظر ! ان فرعون نفسه لا يستطيع أن يقول اين يبتدىء أحدهما وينتهى الآخر . . لا تحملق هكذا . . دعنى الصق هذه الأعشاب فوق الجرح . لن تمضى ستة أيام حتى تبرأ منه تماما .

وبحق النائم فى فيلبى أو فى أبوثيس أو فى أبيدوس — كما يعتقد رؤساؤنا المبجلون الآن — أو فى مكان آخر . . أقول بحق أوزوريس ستبرأ من كل سقم وستكون طاهرا مثل قربان مقدم الى (ايزيس) إذا تركتنى أضع الأعشاب فوق الجرح..

وكان بعض الناس قد التفوا حولنا ، والمرأة تبشرنى بنبوءتها . فتحولت

اليهم (اتوّا) . . وقالت :

ـ لا شيء أيها السادة . كنت القى عليه تعويذة لأمهد السبيل لدوائى .. انظروا !لاشيء هناك كالرقية . فان لم تكونوا من المؤمنين بتأثيرها . فأتونى بزوجاتكم المصابات بالعقم ، اجعلهن يلدن كما لو كن فى الحادية والعشرين . . ذلك خير لهن من الالتصاق باعمدة هيكل أوزوريس .

واذ سمعت أنا هارما كيس ، كلمات العجوز . وضعت يدى فوق رأسى . . كأنى أرى رؤيا . . ولكنى لم ألبث أن رأيت رجلا أشيب بين المتمجهرين يراقبنا باهتمام . وقد علمت فيما بعد أنه من جواسيس بطليموس . بل لقد كان هو نفس الرجل الذى افضى الى بطليموس بسر النبوءة . وكاد يتسبب فى قتلى وانا فى المهد .

وهنا أدركت سر تظاهر (اتوّا) بالجنون .

قال الجاسوس :

ـ ان رقيتك هـذه عجيبة أيتها المرأة العجوز . . انك تكلمت عن فرعون والتاج المزدوج ، وعن شخص كونه الخالق (بتاح) . اليس كذلك ؟

فأجابت المرأة :

— نعم .. نعم . هذا جزء من الرقية ايها الأحمق . أى شيء أحق بالقسم فى هـذه الأيام من فرعون السامى (الزمار) . ادعو الالهة أن تحفظه ، وتحفظ مزماره ليملأ هذه البلاد السعيدة بهجة وحبوراً . وأى شيء أعظم من التاج المزدوج الذى لبسه الاسكندر المقدونى ؟ وبهذه المناسبة ، أسألك ياسيدى هل استعادوا عباءته التى أخذها متريادينس الى قوص ؟ الم يكن بومبيوس آخر من ارتداها ؟. تصور ان بومبيوس يرتدى عباءة الاسكندر كجرو فى جلد أسد ! وبمناسبة التحدث عن الأسود . . انظروا مافعله هذا الغلام . انه قتل أسداً برمحه . وانظروا الى هذه الجثة . جثة الصبي الميت . . لقد فتك به الأسد .. واحسرتاه ! انه الآن راقد فى أحضان اوزوريس . . لقد كان منذ ساعة حيا يرزق مثلي ومثلكم ! هلموا واحملوه الى المحنطين .

انظروا لقد أطلت فى الحديث ، والليل يغشى الكون .. هلموا ! ألا تحملون هذه الجثة . وجثة الأسد أيضا ؟ وأما انت يابنى فضع هذه الأعشاب فوق الجرح حتى يندمل . . ولا تشعر بشىء من الألم . . اننى اعلم امرآ او اثنين برغم جنونى . فانت حفيدى ! ياعزيزى . . ياعزيزى . يسرنى ان تبناك الكاهن الأعظم المقدس ، عندما قضى فرعون ـ الذى ادعو اوزوريس ان يبجل اسمه ـ على ابنه .. انك جميل المحيا .. ولا ريب عندى فى انه لو عاش هارما كيس لما استطاع ان يقتل اسداً كهذا .

فقال الجاسوس متذمرا . وقد جازت عليه الحيلة :

ـ انك تعلمين أشياء كثيرة . وتتحدثين بسرعة عظيمة . . هو شاب باسل على كل حال . . اصغوا الى أيها الرجال . . احملوا هذه الجثة الى ابوتيس . . وليبق بعضكم ليعاونني فى سلخ جلد الأسد . .

واستطرد يحدثنى :

ـ سنرسل اليك الجلد أيها الشاب ، لا لأنك تستحقه ، فانه من الحماقة مهاجمة أسد ضار مثل هذا . . والأحمق ينال جزاء حمقه . . فحذار أن تهاجم قويا مالم تكن اقوى منه . .

فعدت إلى المنزل . . وقد أخذ منى العجب كل مأخذ

الفصل الثالث

علامة الآلهة

لقد عانيت بعض الألم من الأعشاب التى وضعتها العجوز (اتو) فوق جرحى . . ولكن لم يلبث الألم أن زايلنى بعد قليل .. ولعمرى كانت هذه الأعشاب سريعة المفعول قوية الأثر . فما انقضى يومان حتى التأم الجرح .. ولم يبق له أثر بعد بضعة أيام .

لقد أنبى تذكرت أننى عصيت أمر الكاهن الأعظم امينمحعت الذى كانوا يسمونه أبى . . فقد كنت أجهل حتى ذاك اليوم انه أبى فى الجسد . إذ علمونى أن ابنه قتل ، وأنه تبناني حسب إرادة الآلهة . . وأنشأنى لكى

أشغل مركزاً فى الهيكل فى الوقت المناسب . . ولهذا خفت الرجل . . وكانت تروعنى نوبات غضبه . . ثم انه كان لا ينطق إلا بالحكمة .

ومهما يكن من أمر . . فقد عولت على الذهاب ، والاعتراف اليه بخطيئتى . . واحتمال أية عقوبة يفرضها على .

واجتزت الفناء الخارجى للمعبد ، وأنا أحمل الرمح فى يدى . والدماء تنزف من جرح صدرى . . إلى أن بلغت باب الغرفة التى يقطنها الكاهن الاعظم . . وهى غرفة كبيرة أقيمت على جوانبها تماثيل الآلهة العظيمة . . ويتسرب اليها نور الشمس من كوة فى سقفها السميك . . فى حين كانت تضاء أثناء الليل بمصباح من البرونز يتدلى من السقف .

ونفذت إلى الغرفة بهدوء تام من بابها المفتوح ، واجتزت الستائر الكثيفة . . ووقفت داخل الغرفة بقلب واجف .

وكان المصباح موقداً . . ورأيت على ضوئه الشيخ جالسا فوق مقعد من العاج والأبنوس ، وأمامه نضد من الصخر ، نثرت فوقه أوراق مكتوبة بكلمات غريبة عن « الحياة والموت » . . ولكنه لم يكن يقرأ . . فقد استسلم النوم . . وكانت لحيته البيضاء الطويلة تتدلى فوق المنضده فأكسبته هيئة رجل فارقته الحياة

وكان المصباح يرسل ضوءه الباهت على الشيخ . . وأوراق البردى التى أمامه . . وانعكس على الخاتم الذهبى الذى يزين أصبعه . . والذى نقش عليه رمز « ذلك غير المرئى » . . وفيما عدا ذلك كان الظلام يسود الغرفة . .

كان الشيخ حليق الرأس . . يرتدى ثيابا بيضاء . . والى جانبه عصا الكهنوت المصنوعة من خشب الأرز . . وقد بدت على جبينه دلائل القوة الجسمانية . . وتجسمت المهابة والوقار فى تقاطيع وجهه النبيل . وحاجبيه الأشيبين . وعينيه الغائرتين . .

نظرت اليه . . وانتفضت . . فقد كان يتمتع بما هو اكثر من المهابة المألوفة فى البعض من الناس . . ولا عجب ، فانه عاش أعواما طوالا مع الآلهة حتى تشبع بافكارها المقدسة . وتضلع فى إسرارها التى لا نكاد نفقه منها شيئا .

وفيما كنت أنعم النظر إلى وجهـه . . فتح الشيخ عينيه السوداوين . وبرغم أنه لم ينظر الى ناحيتى .. فانه رآنى .. وخاطبنى بقوله :

لماذا عصيت أمرى يا بنى ؟ وكيف ذهبت لملاقاة الأسد بعد أن نهيتك عن مثل ذلك ؟ — وكيف علمت بذهابى يا أبى ؟

— وكيف علمت !؟ اليست هنـاك وسيلة للمعرفة غير الحواس ؟! آه .. ايها الطفل الجـاهل ! ألم ترافقك روحى عندما وثب الأسد على رفيقك ؟ ألم أضرع إلى الآلهة أن تحيط بك . وتحميك . وان تسدد طعنتك التى صوبتها إلى حلق الأسد ؟ لـكن أخبرنى كيف ذهبت الى هناك يا بنى ؟

فأجبت :

— لقد سخر منى الشاب المتكبر . فذهبت .

— نعم . . أعلم ذلك . . كما أعلم أن دم الشـباب يجرى فى عروقك ، وحماسته تتدفق فى نواحيـك . ولذا فقد صفحت عنك يا هارماكيس . . لـكن اصغ الى ، وع كلماتى جيداً ، لقد أرسل هذا الشاب لاغرائك ، أرسل لتجربة قوتك . . فانظر لقد اتضح انك أضعف مما توقع أن تـكون عليه قوتك ، ولذلك أجلت ساعتك ، فلو قد أظهرت فى هـذا النزال من القوة ماهو جدير بك ، لـكشفت لك عن الطريق ، وحسرت الى حين النقاب عن كل سر ، ولـكنك فشلت فارجىء موعدك .

فقلت : لست أفقه ماتقول يا أبى

— ماذا قالت لك العجوز (اتوسّا) بجانب الترعة يابنى ؟

فـكاشفته بما قالته العجوز .. فقال :

— وهل صدقتها ياهارماكيس ؟

فأجبت :

— لا . . كيف يمكن ان أصدق هذه القصص ؟ لاريب انها مجنونة .. ان الجميع يعلمون ذلك .

وللمرة الأولى حول الشيخ عينيه الى ، ثم وقف فى الظل ، وهتف :

— يابنى ! يابنى ! انك مخطىء ، فهى ليست مجنونة ، لقد نطقت المرأة

بالصدق ، انهـا لم تتـكلم بلسانها ، ان (اتوّا) مقـدسة ، والآن اصغ الى فسأكاشفك بالمهمة التى القتها الآلهة على عاتقك . والويل لك اذا جعلت من ضعفك حائلا بينك وتحقيق هذه المهمة !! اصغ الى ، انك لست غريبا تبنيتك وأدخلتك الى منزلى ، وانما أنت ابنى الحقيقى انفذتك هذه المرأة من براثن الموت ، ومع ذلك فأنت أعظم من أنت تـكون انسانا عاديا ياهارماكيس ، ان دم ملوك مصر يجرى فى عروقى ، وعروقك ، وأنا وأنت الشخصان الباقيان على قيد الحياة من سلالة (نخت ـ نف) فرعون مصر الذى طرده (اخوص) الفارسى من مصر

لقد جاء الفرس ، ثم ذهبوا ، وجاء من بعدهم المقدونيون ، وها قد انقضى على مجيئهم أكثر من ثلثمائةعام اغتصبوا خلالها التاج المزدوج .. ودنسوا أرض (خم) ، وأفسدوا عبادة آلهتها ، والآن اصغ الى قولى هذا وعه جيدا يابنى ، لقد مات الملك بنوس ديونيسس ، اوليتس الزمار ، ولم يعمل الخصى توثينوس ـ وهو نفس الخصى الذى جاء هنا من قبل ليقطع رأسك ـ بوصية مولاه ، فنصب الصبى بطليموس على العرش ، وقد فرت أخته كليوباترا ، الفتاة الساحرة ، الى سوريا لهذا السبب ، فاذا لم يخطىء زعمى . فانها ستؤلف هناك جيشا تهاجم به أخاها بطليموس ، فان وصية أبيها تقضى بأن تشاطر أخاها العرش

ولـكن لا تنس يابنى ان النسر الرومانى سيحلق عاليا فى الجو . . ينتظر وقد فتـح مخالبه ، الفرصة لينقض على الـكبش المصرى السمين ، ويمزقه أربا .. ثم لا تنس ايضا ان المصريين قد سئموا الحـكم الأجنبى الظالم . . وانهم يبغضون ذكرى الفرس . . وعافت نفوسهم تسميتهم فى أسواق الاسكندرية (برجال مقدونيا) .. وصفوة القول أن البلاد تئن من اقصاها الى اقصاها تحت نير اليونان ، وظل الرومان . .

ألم نضطهد ؟ ألم يذبح أولادنا ؟ وتسلب أموالنا لتملأ جيوب الغاصبين من المقدونيين ؟ ألم يتهـكوا حرمة معابدنا ؟ ألم يستخفوا بجلال الآلهة الأبدية . واستعـاضوا عن اسم المعبود الأعظم باسم (سيرابيس) . . وهزأوا من كنه

(غير المرئى) ؟ الم تجأر مصر فى طلب الحرية ؟ وستظل تجأر عبثا ؟ لا .. لا .. يابنى .. انك طريق الخلاص .. والحرية .. انك يابنى خليفتى بحق الوراثة .. وأنا رجل على حافة القبر .. ولذا فقد أصدرت الأوامر التى تخولها لى حقوقى.. وها هو اسمك يذكر الآن همسا فى كثير من الهيا كل من (آبو) الى (آنو) . . والكهنة والناس يقسمون بمين الولاء والطاعة .. يقسمون بالرمز المقدس أن يشدوا ازرك . . ويقفوا من ورائك يوم يعلن اسمك .. ولكن لم يحن الوقت الملائم بعد . . فانت لا تزال غصنا رطبا لا تتحمل مثل هذه الزوابع العاتية .. لقد اختبرتك اليوم فتبين لى عجزك ..

ان الذى يريد خدمة الآلهة ياهارماكيس يجب الا يؤثر فيه التعيير .. ولا أية شهوة جسدية .. ان مهمتك عظيمة يابنى فضع ذلك نصب عينيك . . والا فشلت ، وحلت عليك لعنتى ، ولعنة مصر ، ولعنة آلهة مصر المحطمة !!

ولا تنس يابنى انه حتى الآلهة — وهى ابدية لا تفنى — تعتمد احيانا على الرجل الذى تختاره لتنفيذ مآربها ، كما يعتمد المقاتل على حسامه . . وويل للحسام الذى يتحطم ساعة القتال . . انه يلقى جانبا ، ليأكله الصدأ ، أو ربما وضع فى النار لينصهر !!

لتجعل قلبك طاهرا ، ساميا ، قويا . فان نصيبك ليس نصيبا عاديا . . وليس جزاؤك جزاء أى رجل حى . انتصر ياهارماكيس ، تفز بالمجد والسؤدد ، هنا ، وفيما بعد ! وأما اذا فشلت فالويل والحزن هما من نصيبك !

فأمسك الشيخ ، . وأحنى رأسه . ثم استطرد بعد هنيهة :

— غدا سأعطيك هذه الرسائل ، وستركب النيل . وتمر بمدينة ممفيس ذات الأسوار البيضاء الى (آنو) . وهناك تقضى بضعة أعوام ، لتزداد معرفة بحكمتنا القديمة تحت ظلال تلك الاهرامات السرية التى ستكون أيضا كاهنها الأعظم بالوراثة . وأما أنا فسأبقى هنا ، وأراقب . فان ساعتى لم تحن بعد . وسأنسج بمساعدة الآلهة شبكة الموت التى ستقتنص أنت بوساطتها ذبابة مقدونية . وتقضى عليها .

اقترب منى يابنى . . وتعال قبلنى فوق جبينى لأنك أملى . ورجاء مصر

الوحيد . .

فتقدمت منه وأنا أتنفض .. وقبلته فوق جبينه . وهتفت :

— لتحل على كل هـذه اللعنـات وأكثر منها ان أنا لم أحقق رجاءك ياأبى ! !

فصاح :

— لا . انه ليس رجائى . . بل رجاء الآلهة التى أنفذ مشيئتها . والآن اذهب يابنى ! وتأهب للنزال الطويل . . لاتخش ضرا يصيبك لأنك بمنجاة من كل شر . ومن كل أذى ينالك من الخارج . لأن عدوك الوحيد هو نفسك . . لقد تكلمت .

فانصرفت من حضرته بقلب مثقل . وكان الليل ساكنا . . وأفنية المعبد خالية . فعبرتها مسرعا حتى وصلت الى مدخل البرج عند الباب الخارجى . . واذ كنت أنشد الوحدة والعزلة . والتقرب الى السماء ، ارتقيت الدرج ، حتى وصلت إلى السطح ، فأسندت صدرى الى الحاجز . وأرسلت بصرى الى الفضاء اللانهائى .

ورحت أفكر . . وغمغمت بصوت خافت :

— هل سأحكم حقا هـذه الأراضي التى يغمرها ضوء القمر . . وأحمى ذمار هذه الهيا كل المقدسة . وأعلى شأن آلهتها ؟ وأطرد البطالسة . وأحرر مصر من الحكم الأجنبي ؟ ! إن دم أولئك الملوك العظام الذين يترقبون يوم الحشر من قبورهم فى طيبة ، يجرى فى عروقى .

وأخذتنى نشوة الفرح وأنا أتمثل المستقبل الباهر الذى ينتظرنى

هتفت :

— أى آمون . رب الأرباب . والموجود منذ الأزل ، إله الحق ، الاله القديم الباقى إلى انتهاء الدهر . انصت إلى .

إذا كانت الآلهة اختارتنى حقا لتنفيـذ مشيئتها ، فلتظهرنى على الدليل . وليكن ذلك فى التو . أبسطى يديك نحوى أيتها الآلهة . انصتى إلىّ ، واصغى إلى توسلاتى .

وإذ جثـوت على ر كبتى ، ورفعت عينى إلى السماء . غشيت وجه القمر سحابة . فاظلمت الدنيا . وزاد السكون من حولى رهبة ووحشـة . وعندئذ أحسست كأن روحى قد بلغت الحلقوم . ووقف شعر رأسى . ثم لم البث أن شعرت بالبرج يهتز تحت قدمى ، وهبت ريح صرصر عاتية .

وسمعت صوتا خافتا يهتف من اعماق قائلا :

— انظر . ها هو الدليل . هدىء من ثائرتك ، وتجـلد ياهارما كيس

وفيما كان الصوت يتـكلم ، شعرت بيـــد باردة تمسس يدى . وتر كت شيئا فيها

وانجابت السحابة فى تلك اللحظة . وبرز القمر . وخفت حـدة الريح. وعاد الـكون إلى سكونه وهدوئه الشامل .

وعلى ضوء القمر ، رأيت فى يدى زراً من زهر اللوتس المقدس ، على وشك أن يتفتح . وقد تصاعد منها اريج عاطر .

وفجأة . افلتت الزهرة من يدى . واختفت فى جوف الليـل . وخلفتنى نهبة القلق والحيرة

الفصل الرابع

رحيل هارما كيس

وفى فجر اليوم التالى ، ايقظنى احـد كهنة المعبد ، وطلب الى ان اتاهب للرحيـل . اذ كانت حالة النيل تسمح بالسفر إلى آ نو ـ رع ، (هليوبوليس الآن) ، برفقـة نفر من كهنة (بتـاح) فى ممفيس ، كانوا قد جاءوا الى ابوثيس ليواروا احـــد عظمائهم فى اثناء القبر الذى اعد له بجوار مدفن اوزوريس المقدس

فاذا كان المساء ودعت ابى ، وتسلمت منه الرسـائل ، ثم انطلقنا الى شاطىء النهر وركبنا الزوارق ..

وما ان امر الربان بحارته برفع المرســاة ، حتى اقبلت العجوز (اتوّا) على عجل ، وكانت تحمل فى يدها سلة مملوءة بالاعشاب الطبية . .

وحيتنى المرأة مودعة . والقت ورائى (صندلا) ، كيما يلازمنى حسن الحظ . . وقد احتفظت بهذا الصندل عدة سنوات .

وقضينا ستة أيام مسافرين . ولكن ما أن غابت تلك المناظر المألوفة عن ناظرى ، حتى الفيتنى وحيداً بين قوم غرباء عنى . لاتكاد تربطنى بهم أية آصرة .. فكدت ابكى لولا الحياء

وفى صباح اليوم السابع وصلنا الى تمفيس ذات الاسوار البيضاء . . وقضيت ثلاثة أيام فى الاستراحة من وعثاء السفر .. ولم يدخر كهنة هيكل (بتاح) وسعاً فى ارضائى وتكريمى ، حتى سرى عنى بعض الشىء .

وفى خلال فترة الراحة قمت مع رفاقى الكهنة بجولة فى المدينة . ورافقنى اثنان منهم فى زيارة سرية للمعبود (ابيس) المقدس . وهو المعبود بتاح الذى تنازل ، وعاش بين الناس على هيئة عجل اسود اللون . . على جبينه مربع ابيض .. وعلى ظهره علامة بيضاء مثل النسر . وتحت لسانه شبه جعران . . وفى ذيله شعرات مزدوجة . فى حين تدلت من بين قرنيه لوحة من الذهب الخالص

نفذت الى مقصورة المعبود ، وقدمت اليه فروض الطاعة . بينما وقف الكاهن الأعظم ، والكاهنان اللذان رافقانى يرقبوننى باهتمام ولهفة .

واذ فرغت من صلاتى ، ونطقت بالكلمات التي لقنتها من قبل ركع المعبود وتمدد أمامى . فتقدم الكاهن الأعظم ورفيقاه منى ، وكانوا من عظماء مصر العليا كما علمت فيما بعد ، وقد ارتسمت على وجوههم سيماء الدهشة والعجب . وقدموا الى فروض الاحترام ، دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة لما رأوا من فأل حسن .

وفى اليوم الرابع أقبل بعض كهنة (آنو) ، ليأخذونى الى خالى (سنيا) ، الكاهن الأعظم لمعبد (آنو) . . فودعت كهنة تمفيس . . ثم عبرنا النهر . . وامتطينا ظهور الحمير ، وقضينا ثلثى النهار ونحن نجتاز قرى صغيرة تبدو عليها مظاهر الفقر .

وللمرة الأولى فى حياتى رأيت الاهرامات العظيمة الواقعة خلف تمثال

المعبود (هورمخو) . . وأبا الهول الذى يطلق عليه اليونانيون اسم (هارما كيس) ، وهيا كل الأم المقدسة (ايزيس) ، وملكة (ممنونيا) .. والاله (أوزوريس) ، سيد (روزاتو) . . تلك المعابد التى يخولنى حق الوراثة أن أكون كاهنها الأعظم مع معبد (منفرع) المقدس

أخذت من روعة هذه المعابد . . واستهوتنى عظمتها ، واحجارها البيضاء والجرانيت الحمراء . . التى تنعكس عليها أشعة الشمس . . ولم اكن الى تلك اللحظة أعرف شيئا عن الكنوز المدفونة فى الهرم الثالث ، ويا ليتنى لم أعرفها أبداً .

وواصلنا السير إلى أن ظهرت مدينة (آنو) ، وهى المدينة الثانية بعد ممفيس من حيث المساحة والفخامة .. وكانت مشيدة فوق مرتفع من الأرض وأملمها بحيرات يأتيها الماء من النهر بواسطه قناة . . ويليها هيكل الاله (رع)

وترجلنا أمام البرج . . والتقينا فى الرواق برجل ضئيل الجسم ، تاوح عليه سيماء النبل ، حليق الرأس ، له عينان سوداوان متألقتان .

وما أن وقع بصره علينا ، حتى صاح بصوت قوى لا يتفق مع ضآلة جرمه :

— قفوا ! قفوا ! أنا سيبا الذى ينطق الآلهة !

فقلت :

— وأنا هارما كيس بن امينمحت الكاهن الأعظم بالوراثة ، وحاكم مدينة آبوثيس المقدسة . . أنى أحمل اليك رسائل ، أى سيبا ...

فقال ، وهو يرمقنى بنظرة فاحصة :

— ادخل . . ادخل يابنى .

وتناول يدي . . وقادنى الى غرفته فى الردهة الداخلية ، وصفق الباب خلفنا . . ثم شرع يقرأ الرسائل التى حملتها اليه .

وأخيرا : رفع رأسه . وعانقنى . وهتف :

— على الرحب والسعة يابنى أهلا بابن اختى ، وأمل مصر . ! ! هاهي

صلواتى إلى الآلهة لم تذهب سدى . فعشت لأرى وجهك ، والقنك خلاصة حكمتى التى قد لا تتوفر لأحد ممن يقيمون فى مصر . هم قليلون ، أولئك الذين يجوز أن القنهم علومى . وأما أنت فصاحب المستقبل الباهر . أنت الذى اختارتك الآلهة لسماع حكمتها.

ثم عانقنى مرة أخرى . وطلب إلى أن أذهب لاغتسل . وأتناول الطعام وقال انه سيحدثنى غداً حديثاً مستفاضاً

وقد بر بوعده . . فحدثنى طويلا . . وكاشفنى بأمور عدة ، لو شئت تسجيلها لما وجدت فى مصر كلها من أوراق البردى ما يحقق بغيتى

ولكن ذلك لا يحول دون ذكر طرف من حياتى فى خلال السنوات المقبلة . وهأنذا أقرر بعضه . فأقول :

كنت أنهض مبكراً . وأحضر الصلاة التى تقام فى الهيكل . . ثم أسلخ بياض النهار فى الدراسة . والاطلاع . فتعلمت الدين ، وفروضه ، ومعانيه ، وأصل الآلهة ، والعالم الأعلا . ووقفت على أسرار الاجرام السماوية ، وحركاتها ، وتعلمت السحر ، وتفسير الأحلام ، والتقرب من الآلهة ، ولغة الرموز وأسرارها الخارجية والداخلية ، والقوانين الأبدية للفضيلة والرذيلة ، وعرفت سر الاهرامات — ويا ليتنى ما عرفتها — واطلعت على تواريخ الماضى ، وأعمال الملوك القدماء من أيام هوروس ، وتدربت على أساليب السياسة والحكم ، وعلوم الأرض ، وتاريخ اليونان والرومان ، وحذقت لغتيهما .

خمسة أعوام طوال قضيتها عف الذيل ، طاهر القلب . لم أرتكب خلالها شراً فى نظر إله او بشر . أجد وأعمل للوقوف على كل شىء . وأعد نفسى للمهمة الشاقة التى تنتظرنى.

وكان أبى يبعث إلى برسالتين فى كل عام . فأرد عليه متسائلا : ألم يحن الوقت بعد لانتهاء دراستى ؟ !

وأخيراً ضقت ذرعا بالوحدة . ولما كنت بلغت مبلغ الرجولة . . وصرت

عالما محرراً ، فقد تاقت نفسى إلى حياة الرجال

وكثيراً ما ساءلت نفسى : ألا يجوز أن تكون كل تلك الأحاديث التى أسمعها . والنبوءات التي ترددت عن أمور ستحدث ، حلماً تمثلته عقول قوم تغلبت أهواؤهم على عقولهم ؟ صحيح . ان الدم الملكى يجرى فى عروقى . . فقد أطلعنى خالى سيبا على تاريخ سرى منقوش فوق حجر من الصوان يثبت ذلك . لكن ماذا أفيد منه ومملكتي ترسف فى قيود الاستعباد ؟ لقد انقضت أجيال طويلة على هذا الوطن المنكوب وهو يرزح تحت النير الأجنبى . فهل يمكن أن يتحقق ذلك الحلم السعيد . وتتحرر مصر مرة أخرى ؟

وهنا تذكرت صلاتى فوق البرج فى أبوثيس . والعلامة التى رأيتها . . فانتابنى العجب . . وتساءلت . . أترانى كنت أحلم ؟ !

وذات ليلة . سئمت نفسى الدرس والاطلاع . فخرجت الى حديقة الهيكل المقدس لأروح عن نفسى. وفيما كنت مستغرقاً فى تأملاتى ، التقيت بخالى سيبا وهو يجوس خلال الحديقة متفكرا أيضاً .

وابتدرنى بقوله :

— مهلا ياهارما كيس ! . مالى أراك حزينا مبتئسا ؟ هل أضجرتك المعضلة التى كنا ندرسها معا ؟

فاجبت :

— ياخالى . . اننى ضجر حقا ؟ ولكن ليس من المعضلة ! فقد كانت سهلة الهضم . . ان قلبي مثقل . لأننى سئمت الحياة بين جدران هذه المعابد . وضقت ذرعا بأثقال العلوم المتراكمة فوق عاتقى . لافائدة من اختزان قوة لايمكن استخدامها .

— آه . . انك قليل الصبر ياهارما كيس . وتلك حال الشباب الطائش . ستذوق طعم القتال . وستعرض نفسك لاخطار المعارك والحروب . أليس لهذا تريد الرحيل ياهارما كيس ؟ حسنا . لك ما تشاء . فقد أذنت ساعتك . . لقد لقنتك كل ماأعلم ، وأظن ان التلميذ فاق معلمه .

وأمسك . . وخفف الدموع التى انثالت من عينيه .

فقلت مسروراً :

— والى أين سأذهب ياخالى ؟ أأعود الى أبوثيس لأبدأ فى تلقى أسرار الآلهة ؟ .

— نعم . . ستعود الى أبوثيس ، ومنها الى الاسكندرية . ثم الى عرش أجدادك ياهارما كيس . اصغ إلى . . ان الموقف يتلخص فى الوقت الحاضر فيما يلى : انك تعلم كيف ان كليوباترا ، الملكة ، فرت الى سوريا عند ماخالف الخصى الخبيث (بوثينوس) وصية أبيها أوليتس ، ونصب أخاها بطليموس ملكا على مصر .

وتعلم كذلك كيف عادت كليوباترا ، مثل ملكة حقيقية ، على رأس جيش عرمرم ، وعسكرت فى بلزيوم . . وكيف ابحر قيصر إلى الاسكندرية

على رأس فصيلة ضعيفة قادما من فارساليا . . فى أثر بومبيوس الذى عثر عليه مقتولا . . إذ كان قد قتله القائد اشيلاس ولوكيوس سبتيموس قائد القوات الرومانية بمصر .

وتعلم أيضاً كيف انزعج السكندريون لقدومه ، وأرادوا البطش برؤساء جنوده .. وقد اعتقل قيصر الملك الصغير بطليموس وأخته ارسنوى . ثم أمر بتسريح جيش كليوباترا ، وجيش بطليموس ، تحت قيادة ا كلاس ، اللذين كانا يعسكران فى بلوزيوم (طينة) وجها لوجه . فأجاب القائد ا كلاس على هذا النداء بأن زحف على جيش قيصر ، وحاصره فى الاسكندرية . . وظلت الاحوال غامضة بعد ذلك . . ولا أحد يعلم من الذى سيفوز بحكم مصر . . ولكن كليوباترا ألقت (الزهر) . . وأقدمت على عمل ينطوى على الجرأة والاستنفاف . . فقد تركت جيشها فى (طينة) ، وتسللت الى الاسكندرية عند الغسق ، ولم يكن يرافقها غير (ابولو دورس) الصقلى ، الذى طواها بحزمة من السجاجيد المصنوعة فى سوريا . . وأرسلها هدية إلى قيصر .

وإذ فتحت الهدية أمام المهداة اليه . برزت من جوفه أجمل فتاة على ظهر البسيطة . . نعم .. وأغزرهن علماً وحكمة .. فهام بها قيصر العظيم . . ولم تجده معرفته ، وتجاريبه الطويلة أن تحميه من سحرها . . فكاد يفقد حياته وسؤدده الذى ظفر به بعد مئات من المعارك بجهله ، وطيشه . .

فقاطعته :

— يا للأحمق ! ! يا للأحمق ! ! انك تدعوه عظيما . . . ولكن كيف يكون الرجل عظيما إذا لم يقو على التخلص من اغراء المرأة ؟ قيصر . الرجل الذى يتوقف مصير العالم على كلمة تنطق بها شفتاه . ! قيصر الذى تكفى كلمة واحدة منه لتسيير الجيوش الجرارة ، وتغيير مصائر الشعوب . ! قيصر البطل ، الرجل الوقور البعيد النظر . . أقول أيسقط قيصر هذا مثل تفاحة ناضجة فى حجر فتاة غادرة ؟ إذا كان ذلك كذلك ، فما أحط منبت هذا القيصر . . وما أحقره من مخلوق ضعيف ! !

فأطال سيبا النظر إلى وجهي .. ثم هز رأسه نفيا .. وأجاب :

— لا تتعجل فى الحكم يا هارما كيس .. ولا تتكلم بمثل هذا التفاخر ، ألا تعلم ان فى كل درع موطنا للضعف .. والويل لمن يحتمي بترس ينفذ منه السهم ؟ ! ان المرأة على ضعفها أعظم قوة على الأرض . . تأتى على أشكال متعددة ، وتطرق أبوابا كثيرة . انها سريعة ، صبورة ، تملك قياد عواطفها بعكس الرجل .

إن لها لعين القائد . . فوجب أن يكون القلب كالحصن المنيع حتى لا تجد منفذاً لها اليه . . فاذا كان الدم يجرى حارا فى عروقك ، فان قبلة من قبلاتها تحيله ثلجا .. واذا كنت طموحا إلى العلا . فانها تفتح مغاليق قلبك وترشدك إلى سبيل المجد ، والظفر .

واذا كنت متعبا مكدوداً ، فان لها فى صدرها راحة ، وهناء . . فاذا سقطت ، رفعتك ، وصورت لعينيك المحدوعتين الفشل نصراً وفوزا .. نعم يا هارما كيس ، فى استطاعة المرأة ان تفعل هذا ، وأكثر منه .. ولاعجب فالطبيعة تقاتل أبداً فى صفها . . فالمرأة اذن سيدة العالم .. وعظيم ولا ريب ذلك الرجل الذى يستطيع أن يتحدى سيطرة المرأة .

فانفجرت ضاحكا .. وهتفت :

— انك تتكلم بحماسة يا خالى سيبا . حتى ليخيل الى أنك لم تسلم من لظى الحب .. حسنا .. انا لا أخشى المرأة ، وشباكها . . ولا أعلم شيئا عنها ولا أريد أن اعلم .. وما زلت أصر على أن قيصر هذا كان مأفونا أحمق . . ولو كنت فى موقفه ، لقذفت بحزمة السجاجيد من فوق درج القصر ، إلى حماة من الأوحال لينطفىء سعير غيرتها .

فصاح خالى :

— لا . . صه . . صه ! ! من الخطأ أن تتحدث هكذا . . فلتحفظك الآلهة من كل شر . . ولتبق لك هذه القوة التى تزهو بها . . ايها الرجل ، انك لازلت جاهلا ، رغم علمك ، وحكمتك . . ان العالم الذى يجب أن تختلط به ليس هيكلا مثل هيكل ايزيس المقدسة .. فاتوسل إلى الآلهة أن

تظل لقلبك رودته ، لكى تكون رجلا عظيما سعيداً . تنقذ مصر من الاستعباد .

والآن دعنى استأنف سرد قصتى .

قد رأيت يا هارما كيس كيف احتلت المرأة مركزها حتي فى مثل هذه القصة الخطيرة .. سقط قيصر فى حبائل كليوباترا إذن .. فأطلق سراح أخيها بطليموس الصغير . . ولكن هذا لم يلبث أن انقلب على قيصر ، وخانه . . فاجتاح قيصر ومتريادس معسكر بطليموس واضطروه الى الفرار إلى النيل فى زورق لم يلبث أن غرق لكثرة اللاجئين اليه . وهكذا لاقى بطليموس التعس مصرعه .

وانتهت الحرب عند ذلك . وبرغم أن قيصر اولد كليوباترا ولدا اسماه قيصرون فقد نصب قيصر كليوباترا ملكة على مصر ، يشاطرها أخوها بطليموس الاصغر الحكم ، على أن يكون زوجها اسميا . ثم رحل إلى روما وقد حمل معه الاميرة إرسينوى الفاتنة ، وهى مكبلة بالاصفاد والاغلال . بيد أن قيصر لم يلبث ان مات مقتولا كما عاش يلغ فى الدم. وإذا جاز لى أن أعتمد على الانباء التى بلغتنى ، فقد قتلت كليوباترا أخاها وزوجها بالسم . ونصبت قيصرون الصغير شريكا لها على العرش الذى تحتفظ به بمساعدة الرومانيين . وبمعاونة سيكتوس بومبيوس ، وهو الذى احتل مركز قيصر من قلبها .

ولكن البلاد تغلى كالبركان . تتحفز للثورة فى وجه كليوباترا . وفى كل قرية من قرى مصر يتحدث الاطفال عن مخلص مصر . وهو أنت ياهارما كيس .

لقد أذنت الساعة . فعد إلى ايوثيس .. وتعلم أسرار الآلهة النهائية . وقابل الذين سيواجهون العاصفة عند هبوبها .

وعندئذ يجب أن تعمل يا هارما كيس . لتطهر البلاد من الرومان ، واليونان . واجلس على عرش أجدادك . و كن ملك الشعب ، فما لغير هذه الغاية خلقت أيها الأمير .

الفصل الخامس

تحذير أمينمحعت

ودعت خالى سيبا فى صباح اليوم التالى . و كرّرت عائدا الى ابوثيس غادرتها غلاما ، وعدت اليها يافعا ، فارع الجسم، غزير العلم . موفور الحكمة .

وفيما كنت اخترق الحقول فى طريقى إلى الهيكل ، التف الكهنة وأهل القرية من حولى . وراحوا يحيوننى باحترام وتبجيل

وانطلقت إلى غرفة أبي . فوجدته جالساً أمام النضد ، وقد فعلت السون فعلها فى بنيته

وجثوت أمامه . ولثمت يده . فباركنى . وقال :

— ارفع وجهك يا بنى . ودع عينى الضعيفتين تتأملا وجهك ، لأستشف طوياك . ففعلت . وأنعم النظر فى وجهى فاحصاً . مدققاً .

وأخيراً قال :

— لقد قرأت خفاياك . وأيقنت انك طاهر القلب ، راجح العقل ، ولعمرى لم يخب ظنى فيك . أواه ! كانت سنوات موحشة ، ولكنى أحسنت صنعاً بارسالك إلى هناك . حدثنى الآن عما مر بك لأن رسائلك لم تشف غليلى . انك لا تعلم يا بنى مدى لهفة الاب على الوقوف على أنباء الابن

فحدثته وأفضت فى الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل . . وفى النهاية طلب أبى الى أتأهب لتلقى تلك الأسرار الاخيرة التى يجب أن يحيط بها كل من اختارته الآلهة

وقضيت الشهور الثلاثة التالية فى التأهب ، حسب التعاليم المقدسة ، فلم أتذوق خلال تلك المدة شيئاً من اللحم . واحتجبت داخل الهيكل ، وانصرفت إلى دراسة أسرار الضحايا العظيمة . وغضب (الأم المقدسة) . . وكنت أصلى بحرارة أمام المذبح . حتى خيل إلى اننى زهدت الحياة . ولم أعد أنظر اليها نظرة المتشبث بها المتعلق بأذيالها

وكنت متجها بافكارى وخواطرى إلى قبة السماء ، حيث الافلاك تجرى

فتجذب وراءها مصائر البشر . وحيث يجلس القديسون على عروشهم الملتهبة ، وهم يرقبون عجلة القدر ، وهي تدور وتنتقل من عالم إلى آخر .

ايه ايتها الساعات التى قضيتها فى التأمل والتفكير المقدس . . والتى ما أن ذقت حلاوتها مرة حتى رغبت ان تدوم ابد الدهر .. وأنت أيها الجسد الفاني الذى تقذف بنا مساوئك الى قرارة الهاوية . بودى لو تحللت منك وخلعتك عنى ، واطلقت روحى حرة تسعى الى اوزوريس !

ومرت أشهر التجربة سراعا .. واقترب اليوم المقدس الذى اتحد فيه جنتا وروحا بالأم (ايزيس) . ولا أحسب أنى قضيت من قبل ليلة تلهفت فيها على طلوع الفجر ، كما قضيت تلك الليلة . . ولا اخال محبا أحس بالشوق للقاء عروسه .. كما أحسست أنا للقاء وجهك الجميل يا ايزيس . ! وحتى الآن بعد أن حنثت بعهدك ، ونأيت عنى ، لا تزال روحى تهفو اليك . ولكن . مادمت قد سمحت بكشف النقاب ، وذكر أمور وحوادث لم يشر اليهما أحد منذ ابتداء الخليقة . فسأسرد قصتى . وآتى على وصف ذلك الصباح المقدس .

اقيمت الحفلات الرائعة سبعة أيام سويا . . فاحتفل بام الاله اوزوريس . ورتلت أغنية أحزان الأم ايزيس ، واحتفل بذكرى مجىء الطفل المقدس هوروس .. الابن المنتقم ، ابن الاله . . وقد احتفل بهذه المناسبات طبقا للتعاليم الدينية القديمة .. فكانت الزوارق تتهادى فوق سطح البحيرة المقدسة وجلد الكهنة أنفسهم بالسياط أمام هيا كلهم .. وحملت الأصنام والتماثيل فى الشوارع ليلا .

وحين غابت شمس اليوم السابع وراء الأفق ، احتشدت جماهير غفيرة لترنم أغنية أحزان الأم ايزيس .. وكيف ثأرت من الشر .

خرجنا من المعبد صامتين . . وانطلقنا فى طرقات المدينة وكان أبى امينمحت يتصدر الموكب ، وهو يرتدى ثيابه الكهنوتية . ويتوكأ على عصاه المصنوعة من خشب الأرز .. وقد سرت فى أثره وحيدا فى رداء من الكتان .. يتبعنى الكهنة بثيابهم البيضاء . وقد رفعوا تماثيل الالهة والأعلام تخفق فوق الرؤوس . . ومن بعدهم حملة الزورق المقدس . ثم المترنمون . .

بينا امتدت صفوف الشعب الى مدى لاتأتى العين على آخره وجميعهم يرتدون ثياب الحداد على موت اوزوريس .

اجتزنا شوارع المدينة صامتين ، حتى وصلنا الى الهيكل .

ولم يكد ابى يطأ البرج الخارجى بقدميه . حتى شرعت امرأة ترتل بصوت عذب حنون (الاغنية المقدسة) .

وكانت جموع الشعب ترد على المرأة بين الفينة فيما يشبه الكورس . . . وكان لصوتهم وقع محزن فى نفسى ، حتى كدت أبكى .

وعقبت المرأة فانشدت اغنية قيام أوزوريس من الموت . . وهى أغنية الأمل . والفوز .

وبعد أن فرغت من غنائها . . أخذ قرص الشمس يختفى وراء الافق .

وانتهت الحفلة عند ذلك

وفيما يتعلق بى . . كانت تلك هى البداية . . فبانتهاء هذا الحفل سجلت انضمامى إلى زمرة الكهنة . . فغادرت فناء الهيكل . . واغتسلت . . وارتديت ثيابا بيضاء من الكتان . وطبقا للطقوس الدينية ، دلفت إلى مقصورة داخلية ، ولكنها ليست أقصى المقصورات ؛ وقدمت القرابين المعتادة على المذبح . ورفعت يدى إلى السماء . وشرعت أبتهل خاشعاً . . وأستجمع أطراف شجاعتى فى انتظار ساعة التجربة العصيبة

ومرت ساعات .ثم فتح الباب . ونفذ ابى إلى الغرفة بثيابه الناصعة البياض. وبرفقته كاهن المعبودة (ايزيس)

وانبعثت واقفاً . وتقدمت منهما بكل خضوع . فرفع كاهن ايزيس مصباحه إلى وجهى . وسأل :

ـــ أمستعد أنت أيها المختار لمشاهدة جلال المعبودة وجهاً لوجه ؟

فأجبت : نعم . قدنى اليها

فأردف الكاهن بصوت رهيب :

ـــ فكر فى الأمر ملياً ، فليس هو بالهين اليسير . فان كنت قد اعتزمت أن تبلغ أمنيتك الأخيرة ، فاعلم يا هارماكيس ، يا سليل الملوك ،

أن التعالم تقضى عليك بأن تموت الليلة بالجسد هنيهة ، لتعطى بذلك الفرصة لروحك كى تتطلع إلى المسائل الروحية . فان مت ، ثم وجد بين طيات قلبك أى دنس أو رياء ، فالويل لك يا هارماكيس . لأن الحيـاة لا تعود اليـك حينئذ ويتلاشى جسدك . فهلا أنبأتنى الآن ، هل أنت طاهر ، نقى من التفكير فى الخطيئة . وفى المرأة البشرية

فأجبت : نعم .. خذنى إليها ..

فقال الكاهن :

— حسنا .. سننطلق من هنا وحدنا أيها الكاهن النبيل امنمحعت .

فقال أنى :

— الوداع يا بنى ، كن ثابتا . وعالج التجربة بعزم وطيد وايمان راسخ كيما تنجح وتنتصر ، ان من يرعى الحق والصدق فى حكم الشعوب يجب أن يتسامى أولا فوق البشر ! ولا بد أن يضع رضاء الآلهة نصب عينيه ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة للوقوف على الأسرار المقدسة ، ولـكن كن على حذر ، فان الالهة تطالب من يجرؤ على الدخول فى دائرتها المقدسة بالشىء الـكثير ، واذا حاد عن طريقها انزلت به أشد القصاص فبقدر مايصيب الانسان من مجدها ، وفخارها ، يكون مبلغ إذلاله ، وتأديبه ، فليـكن قلبك ثابتا إذن ياهارماكيس الملـكى ! ! والآن ، اذا كان قد استقر منك العزم ، فاذهب الى حيث لايسمح لى بمرافقتك ، والى اللقاء !

وقفت هنيهة مثقل القلب ، حائراً ، ولـكن كانت تسيطر على رغبة قوية فى الاجتماع بالآلهة ، وكنت أعلم أننى طاهر الذيل ، نقى القلب ، وألا شىء يحول دون أن احقق رغبتى فى الاجتماع بهم

فصحت : تقدمنى أيها الـكاهن المقدس وسأتبعك

وانطلقنا ..

الفصل السادس

مدينة الموتى

انطلقنا صامتين الى مقصورة ايزيس ، وكانت خالية ، معتمة إلا من ضوء باهت كان ينبعث من مصباح صغير ، وينعكس على الجدران المنحوته ، حيث نصبت مئات من تماثيل الأم (ايزيس) ،وهى ترضع الطفل المقدس .

وأغلق الكاهن الأبواب بالمزاليج . ثم قال :

— هأنذا أسألك للمرة الثانية : هل أنت مستعد ياهارما كيس ؟

فاجبت : وللمرة الثانية أقول اننى على تمام الاستعداد

فلم يتكلم ثانية . وانما رفع يديه الى أعلا . ثم قادنى الى (الهيكل المقدس) وبحركة سريعة اطفأ المصباح . ثم هتف بصوت خيل إلى أنه أجوف وسط هذا المكان الرهيب :

— انظر أمامك ياهارما كيس

فنظرت ، ولكنى لم أتميز شيئا . بيد أننى سمعت صوتاً ينبعث من الكوة حيث وضع رمز الآلهة المقدس الذى لم يره الا القليلون .

وإذ كنت أصغى لهذا الصوت خائفا ، رأيت أطراف الرمز ، وقد رسمت بخطوط من نار فى ذلك الظلام الحالك . . وكان معلقا فوق رأسى ، وينبعث منه رنين .

وحدث أن تحول الرمز ؛ فرأيت وجه الأم ايزيس بوضوح ! محفورا على أحد جانبيه . . وكان يرمز الى الولادة الأبدية فى حين حفر على الجانب الآخر وجه أختها المقدسة (نفتيس) ، وكان يرمز الى انتهاء كل حى الى الموت .

وتحول الرمز ببطء ، وهو يتأرجح فى الهواء . كما لو كان راقصا سحريا يخطر فوق فى الفضاء . ولكن لم يلبث الضوء أن اختفى وتلاشى الصوت .

وفجأة . . أضىء أحد جوانب الغرفة . فرأيت وسط النور الأبيض صوراً تتوالى وتترى .

رأيت النيل القديم ينساب وسط الصحارى الى البحر . والطيور البرية

تحلق فوق مياهه ، ووحوشا غريبة الهيئة تلقى بنفسها فى الماء ، وتغوص فيه . وكانت الشمس تنحدر نحو الأفق ، وراء صحراء ليبيا . فاصطبغت المياه بلون الدم . والجبال الشاهقة تتسامى الى السماء ، فأدركت اننى أرى العالم كما كان قبل بدء الخليقة . . وسرت الى نفسى رهبة . ودهشة .

واختفت هذه الصورة ، وحلت محلها أخرى . . فرأيت شاطئ سيجور (النيل) مرة أخرى . . وقد اكتظا بالخلائق . . وهم فى صورة أقرب الى القردة منهم لبنى الانسان . وهم يتشاحنون ! ويفتك بعضهم ببعض . بينا كانت الطيور البرية تفر خوفا من النار التى أشعلها الأعداء فى الأكواخ المصنوعة من الغاب ، بعد أن سلبوا مابها . وسرقوا محتوياتها . وقتلوا الأطفال وهشموا رءوسهم ببلط من الصخر . وبرغم أنى لم أسمع صوتاً يدلنى على حقيقة ماأرى ، فقد أيقنت اننى أرى حال الانسان منذ آلاف السنين عند مادب على الأرض فى بدء الخليقة .

وللمرة الثانية اختفت الصورة ، وظهرت مكانها أخرى . . فرأيت شاطئ (سيجور) وقد شيدت على أرضها مدن جميلة ، يجتاز أبوابها رجال ونساء وهم يروحون ويغدون فى أراض خضراء .. ولكنى لم أر حراساً ، أو جيوشاً أو أسلحة حرب وقتال .. فقد كانت الحكمة ، والرخاء ، والسلام تسود البشر .

وإذ كنت مستغرقا فى مشاهداتى وتأملاتى برز شيخ يرتدى حلة من المهابة والوقار ، تتوقد مثل شعلة من اللهب ، من أبواب معبد ، تتقدمه وتسير فى أثره نغمات الموسيقى . الى أن جلس على عرش من العاج ، وضع فى السوق مقابل النهر . . فلما غابت الشمس وراء الافق ، نادى فى الناس يدعوهم للصلاة . . فصلوا جماعة ، وسجدوا اجلالا وتعظما . . فأدركت أن هذه الصورة تمثل حكم الآلهة على الارض . . وذلك قبل حكم مينا بوقت طويل . .

تغير شكل الرؤيا ، فبقيت المدينة الجميلة على حالها . . ولكن أبدل أهلها بقوم ترتسم على وجوههم أمارات الجشع والشر ، يبغضون قيود الاعمال الشريفة ، وينغمسون فى الشر . . وجاء المساء فجلس الشيخ على عرشه ،

ونادى الناس للصلاة . ولكن أحداً منهم لم يلب النداء . . فيطأطىء الرأس اجلالا وتعظما

وصاحوا قائلين :

— لقد اجتويناك . . نريد ملك الشر ! ! اذبحوه ! اذبحوه ! واطلقوا الشر من عقاله ! !

فنهض الشيخ الوقور عن عرشه . . وراح يحملق فى الاشرار بعينين حزينتين . .

ثم هتف :

— انكم لاتفقهون ماتقولون . . لكن ما أردتم سيكون لكم ! وأقسم بذاتى أننى إذا مت ، فلن تجدوا سبل الخير ذلولة معبدة . .

وفيما كان يتكلم ، رأيت شيطانا رجيما يثب فوق الشيخ وهو يسبه ويلعنه ثم ذبحه . ومزقه اربا . وارتقى العرش بين تهليل الجماهير وصيحات استحسانها .

بيد أن ذلك لم يطل أمده . فقد هبط من السماء شبح مقنع على أجنحة من الظل . وأخذ الشبح يجمع أشلاء الشيخ المتناثرة ، وهو يبكى ويعول . ولم يلبث الشبح (وكانت امرأة) ان رفعت يديها . وبكت . وبينما هى تبكي وثب من جانبها محارب مسلح له وجه رع (الشمس) وقت الظهيرة . وحمل هذا المحارب على المارد الذى اغتصب العرش . . وصرخ فى وجهه . . ومن ثم اشتبكا فى نضال رهيب . إلى أن صعدا معاً إلى السماء

واعقبت هذه الصورة صور أخرى . فرأيت ممالك ، وشعوبا فيأزياء متباينة ، ويتكلمون لغات مختلفة . رأيتهم يمرون أمامى أفواجا . أفواجا . يحبون ، ويبغضون ، ويقاتلون ، ويقضون . وكان القليلون منهم سعداء . بينما انطبعت على وجوه البعض علامات الحزن والشقاء . ولكن كانت تلوح على وجوه غالبيتهم سيماء الصبر ، والتجلد

وبينما كانت هذه الصور تترى وتتتابع أمام عينى من جيل إلى جيل كان (المنتقم) ينافح إله الشر فى أجواز الفضاء . وكانت الحرب بينهما سجالا . ولم

يسح لى أن أعلم كيف انتهى النضال بينهما

وأخيراً أدركت أن ما رأيته ان هو إلا الرؤيا المقدسة للنضال بين قوتى الخير والشر .

رأيت كيف خلق الانسان مفطوراً على الشر . وكيف أشفق عليه الذين فى السماء ومدوا اليه أيديهم ليطهروا قلبه منه ويقيلوا عثراته ! ويتمسوا عليه نعمة السعادة . بيد انه لم يلبث أن عاد إلى الطريق المرذول . وعندئذ تقدمت روح الخير الجليلة التى تدعوها أوزوريس ، والتى لها أسماء متعددة وتطوعت لمكافحة شرور الانسان الذى أسقطها عن عرشها . .

واختفت الصور . وتكلم الكاهن مرشدى . قال :

— هل فهمت ياهارما كيس معنى هذه الأشياء التى أرادت الآلهة أن تطلعك عليها ؟

— نعم . . فهمت . . هل انتهت الطقوس الدينية عند ذلك ؟

— كلا . . انها انما بدأت . . وأما ما سيأتى بعد . . فعليك أن تبلوه وحدك . ! سأتركك الآن على أن أعود اليك عند الفجر . ولكنى أرى أن أحذرك مرة أخرى . فليكن معلوماً أن ماستراه عيناك لايراه أحد ثم يعيش . لم أر فى حياتى غير ثلاثة أقدموا على مواجهة هذه الساعة الرهيبة ، ولكننى لم أجد غير واحد منهم بقى على قيد الحياة عند ماعدت اليه فى الفجر . . وأما أنا فلم أجد فى نفسى الجرأة على اقتحام هذا السبيل لأنه أعظم من أن تطأه قدما رجل مثلى .

فقلت :

— ليكن . . ان نفسى متعطشة للعلم والمعرفة . وسأجازف

فوضع الكاهن يده فوق رأسى ، وباركنى . ثم انصرف .

وشعرت أننى وحيد فى الحرم المقدس مع (أشياء) لاتمت الى هذا العالم بسبب . .

وساد السكون ، سكون رائع ، ومظلم كالظلمة التى تكتنفنى .

وتكلمت . فرجعت جوانب المكان صدى كلماتى . وكان له وقع مروع

لايمكن احتماله .

وتساءلت : ترى ماذا سأرى ؟ وهل سأموت ، حتى فى هذه الليلة التى أتمتع فيها بقوة الشباب ، وفتوته ؟ ماأروع عبارات التحذير والانذار التى سمعتها ! !

وانتابنى الفزع . . حتى لم أتمالك من التفكير فى الهرب . . الهرب ؟ ! ولكن الى أين ! ! ان أبواب الهيكل موصدة . وليس فى استطاعتى أن أجد منفذا آخر للخارج .اننى الآن وحيد مع القوة الخفية التى ناديتها . ولكن قلبى كان طاهراً ، عفا . فلماذا أخاف ؟ ! سأواجه الرعب الذى ينتظرنى . . . ولوهلكت .

وفجأة بدأ الهواء يهب . وحملقت فى وجهى أعين متألقة . وهز نفسى همس غريب . وفى احشاء الظلام كانت هناك اعمدة من نور . أخذت تتغير

وتتبدل . وتتحرك من هنا ومن هناك . وترسم رموزا غريبـة لم استطع حلها او فهم كنهها .

وزادت سرعة الضوء . وتجمعت الرموز . وتكومت . ثم تلاشت . ولم تلبث أن ظهرت مرة أخرى . ودارت بسرعة أعظم من سرعتها الأولى . فلم أستطع أن أتتبعها . وعندئذ خيل إلى أنني أسبح فى بحر من المجـد ، متلاطم الامواج . كالمحيط . فكنت ارتفع عاليا فوق اللجة . ثم لا البث أن أهبط

وأخيراً ، بدأت الانوار تخبو فى مهب الهواء العنيف .

ثم الفيت نفسى فى النهاية اشبه بكرة من نار . أو نجم فى سمـاء ليل مظلم حالك . وفجأة ارتفع دوى موسيقى مفزعة تنبعث من مكان سحيق وسط الظلام . وأخذ هذا الدوى يقترب رويدا رويدا . ويزداد وضوحا وارتفاعا إلى أن ا كتنفنى من كل جانب . وولد الذعر فى قلبى . وسحرنى أيضا .

و كما جاءت تلك الاصوات المروعة ، لم تلبث أن أخذت فى الابتعاد حتى تلاشت تماما . وتلتها أصوات أخرى متباينة فلبعضها رنين (الجـلاجل) ، وللبعض الآخر صوت الابواق النحاسية . وبين هذه وتلك كنت اسمع نغمات حلوة فوق نغمات البشر . وقرع طبول يدوى كالرعد .

ثم تلاشت هذه الاصوات أيضا . وساد صمت مروع .

وبدأت قواى تخور . وشعرت بالحياة تفـارقنى . والمـوت يدنو منى فى شكل سكون ووحشة . وأحسست ببرودة مخدرة تتمشى فى اوصالى .

ولـكنى كنت متمتعا بقواى العقلية . فرحت أفـكر .

أدركت أننى أقترب وشيكا من الحـد الفاصل بين الموت والحياة . ولـكن ما أرهب مثل هذا الاقتراب !

جاهدت لـكى أصلى . ولـكنى فشلت . فما كان هناك وقت للصـلاة . ولم البث أن شعرت باطمئنان فـكرى . وانقشع عنى الخوف والذعر . واستولى على نعاس لا قرار له .

كنت اموت ! اموت ! ولا شىء غير ذلك !

بل كنت ميتا . . ! !

ثم حدث انقلاب ، عادت الى الحياة ، ولكن شتان بين الحياة الجديدة ، والحياة التى ولت .

ووثبت واقفا فى ظلام المعبد ، ولكن الظلام لم يحجب ما فى جوفه عنى ، بل خيل كأن نورا ساطعا يغمر الغرفة ، وما كان هناك نور .

وقفت ، ولكن لم أكن أنا الواقف . وانما هو كيانى الروحى ، فقد كنت أرى جثتى مسجاة تحت قدمى ، وكانت متصلبة . ترتسم على وجهها أمارات هدوء مروع .

وانعمت النظر الى جثتى فى ذهول ، وعجب .

وفجأة ، الفيتنى محمولا على أجنحة من اللهب ، اندفعت بى بسرعة البرق الخاطف ، وانطلقت فى اجواء فارغة الى مسافات بعيدة ، ثم هوت بى فى النهاية الى قرار سحيق ، وظلت تهوى وتهوى آلافا من الأميال ، حتى استقرت أخيرا فى مكان غير محدود مضاء بنور لايتغير ، به هياكل ، وقصور ومساكن لايحلم بها البشر ، وكانت جميعها مشيدة من اللهب ، والظلمة ، ترتفع مسلاتها فى الفضاء الى مدى بعيد ، وتمتد أفنيتها الى مسافات شاسعة .

وبينا انا محلق فى الفضاء أخذت معالم الدنيا تتغير باستمرار ، فكان اللهب يستحيل الى ظلام ، والظلام الى ألسنة من نار ، وكان بريق البلور ، ولمعان اللآلىء يلمع ويسطع هنا وهناك وسط البهاء الذى كان يكتنف مدينة الموتى ، ثم رأيت أشجارا لخفيف أوراقها صوت أشبه بنغمات الموسيقى ، وهواء تشبه نسماته صوت الغناء .

وتمثلت أمامى أشكال غامضة غريبة ، متغيرة ، اندفعت نحوى ، ثم رفعتنى ، وهبطت ، حتى خيل الى اننى استقر فوق أرض أخرى

وصاح صوت عظيم : من جاء ؟

فأجابت الاشكال التى كانت دائمة التغير :

— انه هارماكيس ، هارماكيس الذى استدعى من الأرض ليشاهد

وجه (التى كانت وكائنة وستكون) هارما كيس ، ابن الأرض !

فصاح الصوت البغيض :

ـــ افتحوا الأبواب ، واغلقوا شفتيه لئلا يعكر صوته موسيقى السماء الشجية ، وأغمضوا عينيه لئلا يرى مالا تجوز رؤيته ، ودعوا هارما كيس الذى استدعى من الأرض يسير فى السبيل المؤدى الى (المكان الذى لا يتغير) تقدم يابن الأرض ، ولكن انظر أولا لكى تعرف المسافة التى ارتفعتها فوق الأرض .

فأطعت .. ونظرت .. فاذا بى أرى ظلاما ، يلمع فى سمائه نجم صغير .

ومست اذناى وعيناى وشفتاى نغم عليها السكون ، والظلام . فلا صوت يصل الى مسمعى .. ولا شىء تنعكس صورته فوق عينى . .

وفتحت الأبواب .. ودخلت مدينة الموتى

ودفعت إلى الداخل دفعا . . فانطلقت على غير هدى . . وأخيرا وقفت على قدمى .. وصاح الصوت مرة أخرى .

ـــ ارفعوا نقاب الظلمة عن عينيه . . واطلقوا لسانه ، وافتحوا أذنيه لكى يتمكن هارما كيس ابن الأرض من أن يرى ويسمع ويفهم . . ويقدم فروض العادة فى معبد (التى كانت وكائنه وستكون)

فمست شفتاى وعيناى وأذناى مرة أخرى . فانجابت الغشاوة عن عينى ، وغادت الى حاسة السمع . وانطلق لسانى

ورأيتنى واقفا فى قاعة من الرخام الاسود . . وكانت عظيمة الارتفاع حتى لم أستطع أن أرى قباب سقفها برغم ضوئها الوردى . . وكانت نغمات الموسيقى تتردد فى جوانبها .. بينا اصطفت على جانبها أرواح من اللهب ذات أجنحة . . بهرت عينى فلم أستطع النظر اليها . . وكان أمامى مذبح صغير مربع الشكل خال .

وصاح الصوت :

ـــ يا أيتها التى كانت وكائنة وستكون ، ياذات الاسماء المتعددة ، والتى لا إسم لها . يارسول الاله .

ان هارماكيس المصرى الذى استدعى من الأرض استجابة لرغبتك ينتظر الآن أمام مذبحك ، بأذنين واعيتين وعينين مبصرتين ، وقلب مفتوح .. اسمعى واهبطى !

وتلاشى صوت المتكلم . وساد الصمت .

ومن احشاء السكون ارتفع صوت كهدير موج البحر . . ثم تلاشى أيضا .. وعلى أثر ذلك رفعت يدى عن عينى ، ولا أدرى باية قوة فعلت ذلك ونظرت فرأيت سحابة معتمة معلقة فوق المذبح . . وكان يخرج منها

ويدخل فيها ثعبان من نار .

وخرت الأرواح المنيرة ساجدة فوق أرض الغرفة . . وشرعت تترنم وتبتهل .. ولكنى لم أفقه معنى ما تقول .. وبعد هنيهة هبطت السحابة المعتمة واستقرت فوق المذبح .. وتمدد الثعبان . ولمس جبينى بلسانه المتشعب . ثم اختفى .

وسمعت صوتا يتكلم من جوف السحابة بلهجة رقيقة هادئة :

— انصرفوا أيها الخدم . ا دعونى مع ابنى الذى استدعينه ..

فزايلت الأرواح الغرفة .. كأسهم من نار تتطاير فى الفضاء

واستطرد الصوت :

— لا تنذعر ياهارما كيس ، فأنا التى تعرفونى فى مصر باسم ايزيس .. ولكن لا تحاول أن تعرف اسمائى الأخرى لأنها فوق مستوى ادراكك .. أنا كل شىء . وروحى هى الحياة . وجسمى هو الطبيعة .. انا ضحكة الطفل وحب العذراء . وقبلة الأم . انا ابنة (غير المرئى) . وخادمته .. وهو الاله والقانون .. والقدر . . وأما انا فلست قانونا . ولا قدراً . ولكنك تسمع صوتى اذا عصفت الريح . أو زمجر البحر . . وترى صورتى اذا نظرت الى صفحة السماء المزينة بالنجوم .. واذا تفتح الزهر رأيت ابتسامتى . فالطبيعة انا .. واشكالها اشكالى .. لاشىء يضارع جلالى ..ولا شىء مهما دق حجمه لا يأويني .. والذى أمر بأن تخلق أمر بان اخلق ايضا . . فلا تخف رغم ما بيننا من فوارق . فان رابطة الحياة المشتركة تربطنا معا ..

فأطرقت .. وارتج على ، فقد عقل الرعب لسانى ..

واردف الصوت

— لقد تفانيت فى خدمتى يابنى ، وتقت الى رؤيتى هنا فى (امنتى) . . ولم تدخر وسعاً فى تحقيق هذه الرغبة . وجازفت باطلاق روحك من جسدك قبل الساعة المعنة فنعم الولاء . لقد استدعيتك الى لكى أبادلك الحديث ، كما حدثتنى تلك الليلة فوق برج الهيكل فى ابوثيس . . أتذكر زهرة اللوتس التى وضعتها فى يدك ؟ انها الدليل الذى كنت تطلبه . . وقد قدمته اليك لأن

دمك من دم الملوك . . ابنائى الذين خدمونى على مر الأجيال . . نعم يابنى . سترتق ذاك العرش الملكى العظيم .. وتعيد فروضى الدينية النقية ، وتطهر هياكلى من الرجس . والرياء .. اللهم الا ان فشلت فى مهمتك العظيمة ؛ وعندئذ لا يكون لروح ايزيس فى مصر الا مجرد الذكرى

وكف الصوت عن الكلام . . فاستجمت قواى . وسألت :

— وهل سيكون نصيبى الفشل أيتها الأم المقدسة ؟

— لا تسألنى عما لا يجوز أن أكاشفك به . قد يكون فى وسعى أن أقرأ ما سيصيبك . وقد لا تسرنى قراءته . وما فوزك وفشلك إلا مرجعهما اليك وحدك . وكيفما تكن أعمالك يكن مجدك أو عارك . اننى لا آبه كثيراً للنتائج ، لأننى لست إلا منفذة لما هو مسجل ، ومقدور ولكنى لن أتخلى عنك يا بنى . فقد وهبتك حبى . ولا أستطيع أن أسترد ما وهبت . فاعلم إذن انه بقدر فوزك سيكون جزاؤك . وأما إذا فشلت فسوف تكون العقوبة بنسبة الفشل ولكن اعلم أيضاً أن العار والآلام لا تدوم . لأنه مهما كان الانحراف عن الطريق السوى فانه يوجد ، مع الشعور بالندم ، طريق شائك يمكن العودة منه . فلا تألُ جهداً فى تجنب سلوك هذا الطريق

يا بنى . إنك أحببتنى وأنت تهيم فى وادى الخيال الذى يفقد الناس أنفسهم فيه على الأرض . وأنا أيضاً أحبك ، واتطلع إلى ذلك اليوم الذى ستأتى فيه وتسكن فى نورى مباركا . أقول اننى لأجل هذا كله سأطلعك على (الكلمة) التى استدعى بها من (المنتهى) . والتى يستطيع أن يلجأ اليها ذاك الذى قابلنى وجهاً لوجه ونظر إلى وجه (ايزيس) وإلى عينى (الرسول) دون أن يموت، كلما ألمت به شدة

انظر ! !

وتلاشى الصوت الساحر . وتبدلت السحابة التى كانت تحلق فوق المذبح تدريجياً . الى أن ابيضت ولمعت . واستحالت فى النهاية إلى شكل امرأة ترتدى ثيابا . ثم زحف الثعبان من قلبها وأحاط برأسها على هيئة تاج

وفجأة . نادى صوت بالكلمه الرهيبة فأنفجرت الابحره . وانقشعت .

ورأيت بعينى رأسى ذلك (الجـلال) الذى ترتعد فرائصى لمجرد ذكراه . ولـكنى لست فى حـل من تسجيل ما رأيت . فقد حذرت من ذلك تحذيراً قاطعاً .

رأيت إذن ما لا يمكن أن يتصوره عقل بشر

ولم يكد يتردد صدى (الـكلمة) . وتنطبع تلك الرؤيا على صفحة قلبى حتى خارت قواى . وسقطت أمام ذلك (البهاء) . وعندئذ خيل كأن الغرفة الـكبرى قد انشقت . وتهدمت واستحالت الى شـهب لامعة أحاطت بى .

ولم أع شيئا بعد ذلك

الفصل السابع

تتويج هارما كيس

وعند ما أفقت . . الفيت نفسى ممددا على الأرض ، فى مقصورة ايزيس فى مدينة أبوثيس . . ورأيت الـكاهن الشيخ واقفا بجانبى ، وهو يحمل مصباحا فى يده . . وينعم النظر فى وجهى .

وما أن فتحت عينى . . حتى هتف :

— لقد ولدت اليوم من جديد . . فشكرا للآلهة على نعمها . . انهض أيها الملك هارما كيس . . لا . . لا تحدثنى بشىء عما وقع لك . . قم أيها المحبوب من الأم المقدسة . . تقدم . فقد اجتزت النار . . واطلعت على ما وراء الظلام . . تقدم أيها المبعوث من جديد !

فنهضت . . وانطلقت الى غرفتى بخطى ثقيلة . . وقد تبلبلت أفـكارى واضطربت خواطرى .

وتمددت فوق فراشى متعبا ، مكدودا . . ولم البث أن استولى على سبات عميق . . لم تتخلله رؤى مزعجة ، ولا شبه مزعجة .

وقد قضيت فترة من الزمن فى عبادة الأم ايزيس . . ودراسة الأشكال الخارجية للاسرار التى بيدى الآن مفتاحها . . وتعلمت الأساليب السياسية .

وكان كثيرون ممن يؤازرون حركة ارتقائى عرش مصر يفـدون سراً

لزيارتى من جميع الانحاء . . ويتحدثون الى عن كراهية الشعب لـكليوباترا الملـكة .

ومضت ثلاثة شهور .

واجتمع منـدوبو مصر العليا والسفلى للمناداة بى ملـكا على عرش الفراعنة .

وكان من المتفق عليه سلفا أن تقام الحفلة سراً . فى معبد أبوثيس .

جاء نواب الشعب إذن من كل حدب وصوب . متنكرين فى شتى الأزياء فـكان بعضهم فى ثياب كهنوتية . . والبعض كحجاج إلى (المقدس) . والبعض فى زى شحاذين .. وكانوا فى مجموعهم سبعة وعشرين نائبا .

ومع القادمين جاء خالى سيبا متنكراً فى ثياب طبيب متجول . . ولـكنى عرفته بمجرد أن سمعت صوته الجهورى .

وإذ لاقيته على ضفة الترعة . وناديته باسمه . صاح مأخوذاً :

— عفا الله عنك . ألا يستطيع الانسان أن يتنكر ساعة واحدة ؟ لقد بذلت جهداً عظيما فى تغيير هيئتى ، ومع ذلك فقد عرفتنى لأول وهلة !!

وضمنى إلى صدره باشتياق .. وأراد أن يرافقنى إلى ابوثيس . ولـكننى ذكرته بالدور الذى يلعبه . . وكيف انه لا يجب أن ينسى دقة موقفه حيال جواسيس الملـكة كليوباترا الخطرين

* * *

والتأم عقد الجميع .

كان الوقت ليلا . . فاغلقت أبواب المعبد .. ولم يسمح لأحد بالبقاء داخله غير السبعة والعشرين نائبا .. وابى امينمحعت الـكاهن الأعظم .. والـكاهن العجوز الذى رافقنى إلى مقصورة ايزيس . والعجوز (اتوّا) . اذ كان عليها حسب العادات المتبعة أن تدهننى بالزيت . وخمسة كهنة آخرين أقسموا ذلك القسم الذى لا ينقض أن يكتموا السر .

كنت أجلس وحـدى فى الدهليز حيث نقشت اسماء ستة وسبعين ملـكا من الملوك الأقدمين الذين حكموا قبل سيتى المقدس . فى حين اجتمع النواب

فى الغرفة الثانية من الهيكل القديم

وبعد قليل ، أقبل أبى امينمحعت . . وكان يحمل مصباحا . ثم قادنى من يدى إلى القاعة الكبرى .

كانت الغرفة ضيقة ضعيفة الصوء . . والنواب يجلسون فوق مقاعد صخرية ينتظرون قدومى . . وأمام الهيا كل السبعة ، وضع عرش مرتفع . . التف حوله الكهنة وهم يحملون الصور المقدسة . والأعلام .

ولم اكد اطأ المكان المقدس بقدمى . حتى انبعث الرؤساء وقوفا . . وأحنوا رؤوسهم اجلالا وتعظيما .

وذهب بى أبى إلى العرش . . وأمرنى بصوت منخفض أن أقف أمامه . . وتحول الى المجتمعين . . وقال :

— أيها الاعيان . والكهنة . والأمراء . يا أبناء مصر القديمة . . وأشراف مصر العليا والسفلى الذين لبوا نداتى . . اصغوا إلى : أقدم اليكم الأمير هارما كيس . وارث عرش الفراعنة الأقدمين . وسليلهم بحق النسب والدم . انه كاهن إيزيس المقدسة . والواقف على أسرارها العظيمة . . والكاهن الوراثى للاهرامات القريبة من ممفيس . فهل يساور أحدكم الشك فى صحة نسبه ؟

فانبعث خالى سيبا واقفا . . . وقال : لم نجد شيئا يخالف ما قلت فى السجلات التاريخية . . ولا ريب أن نسبه لاغبار عليه .

فأردف أبى : هل فيكم من يرتاب فى أن الأمير هارما كيس انضم إلى الأم ايزيس بموافقة الآلهة . . وأن الطريق قد فتح له إلى أوزوريس . . وسمح له بأن يكون الكاهن الأعظم للاهرامات المجاورة لممفيس وهيا كل الاهرامات ؟

فنهض الكاهن العجوز الذى رافقنى الى مقصورة المعبودة ايزيس . . . وقال :

— لا . . ليس فينا من يرتاب فى ذلك يا أمينمحعت . . انى أعرف كل شيء عن ذلك حق المعرفة

فقال أبى : إذن فقد توفرت الشروط فى الأمير هارما كيس ، سليل (تخت ـ نف) لتتقدم العجوز (اتوّا) . ولتحدثكم عن النبوءة التى فاهت بها زوجتى عن هذا الأمير عندما حضرتها الوفاة

فبرزت المرأة من ظلال الأعمدة . . . وأعادت على مسامع الحاضرين النبوءة التى نطقت بها أمى قبيل وفاتها .

وإذ فرغت العجوز من سرد قصتها . نهض خالى سيبا مرة أخرى . . . وقال :

ـــ أيها الامير هارما كيس . . لقد اجتمعنا هنا لكى نتادى بك ملكا على مصر العليا والسفلى . بعد أن تنازل لك أبوك المقدس امينمحعت عن جميع حقوقه .. وبعد .. اننا لم نجتمع هنا بتلك الروعة والفخامة اللتين كان يجب اظهارهما فى مثل هذه المناسبة فان ما نفعله الآن يجب أن يبقى طى الكتمان والا فقدنا أرواحنا ، وضاعت قضيتنا التى تقدسها اكثر من ارواحنا ولكننا ، مع ذلك ، قمنا بواجب التكريم .. وراعينا التعاليم الدينية القديمة بقدر المستطاع .. ففكر فى الأمر أيها الأمير ، فاذا وافقت على عملنا ، اصعد الى عرشك . . يا فرعون واقسم اليمين .

لقد عانت مصر الأمرين تحت حكم اليونانيين : وكم انتفضت جزعا ، وفزعا ، عند رؤية حراب الرومان .. وكم تدنست آلهتها القديمة . ولكن هاهى ذى ساعة الخلاص والحرية قد حانت . .

ان عشرين الفا من الرجال المخلصين قد أقسموا لك يمين الطاعة والولاء وهم على استعداد لأن يهبوا كرجل واحد عند أول كلمة تصدر من فمك ، ليقضوا على الأغريق ، ويقيموا لك عرشا فوق اشلائهم وجثثهم . . عرشا أثبت أساسا من اهرامات مصر القديمة ، يصد عنها جموع الرومان . ويدفعها دائما إلى الخلف . . اما اشارتك فستكون قتل تلك البغى كليوباترا . . وهو أول عمل ينبغى أن تقوم به ياهارما كيس طبقا للخطة التى ترسم لك .

قوبلت هذه الكلمات الحماسية بعاصفة من التهليل والاستحسان . فصحت :

ـــ كفى ! كفى ! أبكم حاجة إلى شحذ عزيمتى بهذه الكلمات ؟ ! وهل

يرتاب أحدكم فى أننى اضن ببذل الف حياة على مذبح تحرير مصر ؟

فهتف خالى سيبا :

— أحسنت .! أحسنت .! رافق هـذه المرأة (اتوّا) ، لـكى تطهر يديك قبل أن تمس الرموز المقدسة .. وتدهن جبينك بالزيت قبل أن يوضع فوقه التاج . .

فانطلقت برفقـة (أتوّا) الى غرفة منعزلة ، حيث أفرغت المرأة ماء نقيا على يدى من وعاء من الذهب .. وكانت تصلى .. ثم غمست قطعة من القماش الرقيق فى الزيت .. ودهنت به جبينى . . وقالت :

— ايها الأمير السعيد .. الذى خلق للمجد . والسعادة . والحب

فقلت وقد أمضنى كلامها :

— صه ! صه ! لاتقولى اننى سعيد حتى تعلمى نهايتى . ولا تذكرى شيئا عن الحب لأنه من الحب تتولد الآلام والاحزان . وأما أنا فاسلك سبيلا آخر أعظم شأنا من هذا الذى عنه تتحدثين .

— نعم . . نعم . . هـذا ماتقول . . ولـكن السرور يأتى مع الحب . . فلا تستخف بالحب ياملكى لأنه هو الذى جاء بك الى هذا المـكان . وما أصدق السكندريين حيث يقولون « إن الأوزة الطائرة تسخر من التمساح ولـكن التمساح هو الذى يسخر منها وهى نائمة فوق سطح الماء » . وما كانت أنفساء الا تماسيح جميلة . . والرجال يعبدون (التمـاسيح) فى (مدينـه التماسيح) . بيد أنهم يعبدون المرأة فى جميع بقاع العالم . . والآن لقدتطهرت من كل رجس ياسيد التاج المزدوج . . فاذهب ! !

فزايلت الغرفة . . وكلمات المرأة الحمقـاء تدوى فى أذنى . ولا ريب انها كانت كلمات تنطوى على الحـكمة . وحسن البصر بالأمور .

ولما دخلت على النواب هبوا وقوفا إجـلالا وتعظيما . . وأحنوا رؤوسهم أمامى احتراما . ودنا انى منى . . ووضع فى يدى تمثالا من ذهب يمثل الآلهـة (ما) آلهة الحق . وتماثيل ذهبية أخرى للمعبود (أمون ـ رع) والمعبود (موت) ، والمعبود (خونس) ، ثم قالت بصوت متزن رزين :

— هل تقسم بجـلال (ما) وبجـلال (أمون ـ رع) و (موت) و (خونس) ؟

— نعم . . أقسم . .

— وهل تقسم ، وأنت تذكر المصـير المخيف الذى ينتظرك اذا فشلت ، أن تحكم مصر حسب قوانينها القديمة . وأن تحافظ على عبادة آلهتها . . وأن تحكم بالعدل . وألا تخون بلادك ! وألا تتحالف مع الرومان أو الاغريق . . وأن تهدم الأصنام الأجنبية . . وأن تكرس حياتك لتحرير مصر ؟

— نعم . . أقسم

— هذا حسن . . اذن ارتق العرش حتى أنادى باسمـك (فرعونا) أمام هؤلاء الرعايا المخلصين .

فاطعت . . وتقدم أبى ، ووضع الثعبان الملـكى على جبينى . وتاج مصر المزدوج فوق رأسى . والعباءة الملـكيـة على منكبى . ثم سلمنى صولجان الملك . والسوط .

ثم بدأ الجميع يقسمون يمين الولاء بين يدى . . كل واحد بدوره .

وتقـدم أبى . وأقسم بدوره يمين الاخلاص . ثم تناول يدى . وقادنى فى صدر موكب رهيب الى الهيا كل السبعة . وطاف بى فى أرجائها ، وأنا أقدم القرابين فى كل منها . وأحرق البخور . وأبتهل بوصفى كاهنا . . ثم قدمت القرابين على مذبح أوزوريس وآمون ـ رع وبتاح . حتى بلغت فى النهاية الى مذبح غرفة الملك .

وهنا قدموا الى القرابين بوصفى فرعون مصر المقـدس . . ثم انصرفوا لشأنهم وخلفونى منهوك القوى . ولـكننى ملـكا ! !

« * »

(الى هنا انتهى ماجاء فى الملف الأول من أوراق البردى . . وهو أصغرها) . .

القسم الثانى

سقوط هارما كيس

الفصل الاول

هارما كيس فى الاسكندرية

حان وقت العمل.

لقد رسمت كاهنا أعظم . . وتوجت فرعونا . . ومع أن الشعب كان لا يزال يجهلنى . . أو فقط يعرف اننى كاهن ايزيس ، فقد كان هناك ألوف من الناس ينحنون لى احتراما بوصفى فرعون مصر .

وأذنت الساعة أخيرا . . وكنت أتحرق شوقا للقضاء على الأجنبى . وتحرير مصر من العبودية . . وارتقاء العرش الذى آل الى بالوراثة . . وتطهير هيا كل آلهتى .

انعمت النظر إلى هيئتى فى المرآة . . فرأيت النصر مسطراً فوق جبينى والمستقبل يمهد لى سبيل السؤدد والعظمة .

ووقفت أمام تمثال أمى ايزيس . . وناجيتها . . ثم انفردت بنفسى فى غرفتى . . ورسمت الخطة لبناء هيا كل جديدة . . وسن تشريعات تعود على شعبى باليسر والرخاء .

وقد حتمت على فروض الكهنوت ، أن أطلق لحيتى . . وواجبات الملك أن أتدرب على الحركات العسكرية المختلفة ، واستعمال الأسلحة . . كما تضلعت فى العلوم السحرية القديمة ، لأسباب ستأتى فيما بعد، وقراءة النجوم .

وكانت الخطة التى تم الاتفاق عليها تتلخص فيما يلى :

اعتزل خالى سيبا العمل فى هيكل (آنو) مؤقتا ، بدعوى اعتلال صحته . . ورحل الى الاسكندرية انتجاعا للصحة على حد قوله . . وليتفرج

على عجائب المتحف العظيم . . ومجد بلاط كليوباترا .

وقد تم الاتفاق على أن ألحق به فى الاسكندرية حيث كانت تحاك خيوط المؤامرة .

ومضت فترة من الزمن . . وجاءتنى دعوة خالى المترقبة . . فتأهبت للرحيل . . وذهبت لوداع ابي ، فالفيته جالسا فى غرفته ، كما رأيته يوم زجرنى لذهابي فى أثر الأسد .

واذ دخلت عليه .. نهض عن مقعده .. وأراد أن يجثو امامى . . وهو يقول :

— السلام لفرعون !!

فقبضت على يده .. وقلت : ابى .. هذا لا يجوز ..

فقال : لا . بل يجوز جدا . فأنا الآن اجثو أمام مليكى . ولكن على رسلك .. هل ازمعت الرحيل يابنى ؟ لتحل عليك بركتى . ولتهبنى الآلهة القوة حتى أراك جالسا على عرشك . لقد حاولت . وأفرغت تجاريب السنين . وعصارة العلوم التى أحطت بها فى الوقوف على ما كتب لك فى مستقبل أيامك ولكنى برغم ذلك كله لم أفز بطائل ، ولست أكتمك بأنى احس الما فى بعض الاحايين . وأرى لزاما علىّ أن انبهك الى أن الطريق وعر شائك ، محفوف بالاخطار والمهالك . وسيأتى الخطر فى شكل (امرأة) !! لقد علمت ذلك منذ أمد بعيد وهذا ما حفزنى على دعوتك لعبادة (ايزيس) المقدسة .. التى تأمر عابديها أن يجعلوا بينهم وبينها سدا لا يتخطوه اليها ، الى أن يحين الوقت الذى تراه ملائما لتخفيف القيد . آه يابنى . ودِدت لو أنك كنت أقل جمالا منك الآن . فأخوف ما أخاف أن يكون جمالك هذا حجر عثرة فى طريقك . . حذار يابنى من فاتنات الاسكندرية خشية أن تتسلل احداهن كالدودة الى قلبك .. وتنتهك حرمة اسراره ..

فعبست وأجبت :

— لا تخش شيئا يا ابى . فان لى من واجبى ما يصرفنى عن التفكير فى الثغور البسامة .. والعيون الفتاكة .

— حسنا .. الوداع اذن يابنى . واضرع الى الآلهة الا نلتقى ثانية الا فى تلك الساعة السعيـدة التى انطلق فيها من ابوثيس فى رهط من كهنة مصر العليا لنقدم لك فروض الولاء . والاحترام . وانت جالس على عرشك ..

فعانقته ثم انصرفت .

وفى الليلة العاشرة لرحيلنا ، وصلنا الى مدينة الاسكندرية .. تلك المدينة العظيمة ذات الالف مصبـاح ، التى يعلوها ويكسف نورها ذلك المنار الابيض ، احدى عجائب الدنيا ، وهو فنـار يبعث من قمته ضوء مثل ضوء الشمس فوق مياه الميناء لهداية السفن فى الليل .

ونزلت إلى البر .. ووقفت وأنا فى حيرة من أمرى . أقلب الطرف حولى وأنصت بدهشة الى مختلف اللغات واللهجات التى كان يتحدث بها أهلها

وبينما كنت واقفا . . اقـترب منى شاب . . وضع يده على عاتق . . ثم سألنى :

— هل أنت الأمير هارما كيس القادم من أبوثيس ؟

فأجبت : نعم . .

فمال فوق أذنى . . ونطق بالـكلمة السرية . . ثم أومأ الى عبـدين . . وأمرهما بأن يحملا امتعتى من السفينة . .

وعاد العبدان بعد هنيهة . . فانطلقنا جميعا نحو شـاطىء الميناء العظيم . . ثم انعطفنا إلى اليمين . . واستأنفنا السـير فى طريق لاحب ، مرصوف بالجرانيت . . وعلى جانبيه منازل فخمة لم أر لها مثيلا . .

ووصلنا إلى حى هادىء من المدينـة . . ولم يلبث أن وقف رفيق أمام منزل مشيد بالطوب الابيض . . فعبرنا بابه الخارجى الى رحبة صغيرة . . ثم دخلنا غرفة مضاءة بمصباح . . وكان يجلس فيها خالى سيبا . .

واستقبلنى خالى مسروراً .. وكاد يرقص من الطرب . .

وبعد العشاء .. جلسنا نتجاذب أطراف الحديث . . فأنبأنى خالى أن كل شىء يسير فى الطريق المرسوم له . . وأن رجال البلاط لم يوجسوا خيفة حتى الآن . . وقال إن الملكة كليوباترا سمعت بمجيء كاهن معبـد (آنو) إلى

الاسكندرية ، فأرسلت تستدعيه اليها . . وأمطرته بوابل من أسئلتها ، لاعن الدسائس ، فهى لم تكن تعلم عنها شيئا ، وانما عن الاشاعة التى تطايرت عن وجود كنز مخبأ فى الهرم الاكبر المجاور لمدينة (آنو) . .

كانت كليوباترا امرأة مبذرة . . مسرفة لا تكف عن طلب المال . . فخطر لها أن تفتتح الهرم الأكبر وتضع يدها على الكنز .

وقد ضحك خالى سيبا من قولها . . وأخبرها أن الهرم الأكبر هو مدفن الملك خوفو المقدس . وانه لايعرف شيئا من اسراره . فغضبت كليوباترا من جوابه . . وأقسمت ان تهدم الهرم من أساسه ، كى تكشف عما فى جوفه من أسرار . . فضحك سيبا مرة أخرى . . وردد على مسامعها القول المأثور : «ان الجبال تعمر أكثر من الملوك» . فابتسمت وسرتها سرعة خاطره . . وأذنت له بالانصراف .

وأضاف خالى بأنه ستتاح لى فرصه رؤية كليوباترا هذه فى اليوم التالى . وهو يوم ميلادها ! كما كان يوم ميلادى أيضا . . وانها سترتدى ثياب ايزيس المقدسة ، وتغادر قصرها فى موكب رسمى . . إلى (السرابيوم) لتقدم ذبيحة فى معبد الاله الكاذب الجالس فى الهيكل . . ثم قال انه يجب أن ترسم الخطة التى تمهد لى سبيل الدخول على الملكة بعد ذلك

ولكننى كنت متعبا مكدودا . . فاتفقنا على تأجيل الحديث فى ذلك الى الوقت المناسب . . ومن ثم قمت الى مخدعى ، وتمددت على الفراش أنشد النوم . . ولكنه لم يطرق جفني الا غراراً بسبب غرابة المكان ، وجلبة الشوارع .

وقد استيقظت من نومى قبيل الفجر . . وصعدت إلى سطح المنزل . . وقلبت الطرف حولى فى مدينة الاسكندرية العظيمة . . وقد بدت فى ثوب أرجوانى أشبه بثياب الملوك .

وابتهلت الى الأم ايزيس المقدسة .. ثم هبطت إلى غرفة خالى . فاستقبانى سائلا : ما رأيك فى مدينة الاسكندرية ؟

— انها تشبه إحدى مدن الآلهة .

فصاح بحدة :

— نعم . . انها مدينة الآلهة الجهنمية . . بؤرة الفساد . . ومنبع الظلم . . مدينة الأديان الكاذبة التى تؤمن بها قلوب فاسدة . بودى لو دكت من أساسها . والقيت ثروتها فى اعماق البحر . . وكم اتمنى من صميم قلبي أن ينعق البوم بين أطلالها . . !! لاتجعل أيها الأمير هارماكيس جمال الاسكندرية يخدر أعصابك ، أو يصرفك عن واجبك النبيل . فهى مقبرة كل ايمان . وحذار أن تستهويك خلاعة نسائها ، أو جمالهن ، واجعل نصب عينيك ، حين تأتي الساعة ، أن تضع عرشك بين أسوار مدينة ممفيس البيضاء تشبها بأجدادك الفراعنة العظام

فلذت بالصمت .. وما كان فى استطاعتى أن أجيب وأنا أعلم ان ماقاله هو عين الصواب .

وأفطرنا .. ثم أخبرنى خالى ان الوقت قد حان للخروج لشهود موكب كليوباترا . وهى فى طريقها الى معبد (سرابيس) .

وكان خالى قد استأجر مقعداً خشبيا عند باب (كانواب) . واستطعنا ان نصل اليه بعد مشقات وطول عناء . وكان المقعد مظللا بقماش ارجوانى . فجلسنا . وانتظرنا طويلا .

وأخيراً ، جاء الجنود ليفسحوا الطريق للموكب . وهم فى ثياب الرومان .

ويلبسون الدروع . ومن بعدهم أقبل الرسل ، وطلبوا الى الشعب أن يلزم الصمت لأن كليوباترا على وشك الوصول .

وبدت طلائع الموكب على البعد . واقبل الف جندى من الصقليين يتبعهم الف من جنود تراقيه ، والف من المقدونيين ، ومثلهم من الغاليين وكل فريق منهم يرتدى بزة بلاده الرسمية . وفى أعقاب هؤلاء جاء خمسمائة فارس ، يرتدون وجيادهم دروعا . . وعلى أثرهم فوج من الغلمان والجوارى وهم يرفلون فى حلل فاخرة . . ويضعون التيجان الذهبية على رؤوسهم . . ويحملون التماثيل التى ترمز إلى الليل والنهار . . والصباح والظهر . والسماء والأرض . ومن بعدهم أقبلت طائفة من فاتنات النساء كن ينثرن الزهور ، ويسكبن الروائح العطرية على جانبى الطريق

وهنا . تعالت أصوات الجماهير صائحة : « كليوباترا ! كليوباترا ! »

فانحنيت إلى الأمام . وحبست أنفاسى . لأرى تلك التى بلغت بها الجرأة أن ترتدى ثياب الأم إيزيس المقدسة . . ولكن الزحام كان شديداً ، فلم أستطع أن أرى شيئاً . ولم أجد مفراً من تضحية مكانى . . ونهضت واقفاً . . وأعملت منكبى فى الجماهير حتى بلغت الصف الأمامى .

وأقبلت فى تلك اللحظة ثلة من زنوج النوبة ، يحملون فى أيديهم هراوات غليظة . وحملوا على المتفرجين بقوة . وكان أغلظهم قلباً زنجى مارد ، لم يتورع عن استعمال هراوته بكل وحشية وقساوة

واتفق أن كانت امرأة مصرية تقف بجوارى ، وهى تحمل طفلها على ذراعها . فهوى الجبار بهراوته فوق رأسها . فانكفأت على وجهها بين صرخات الاستياء من الجمهور

ساءنى هذا المنظر . . وغلى الدم فى عروقى . ولم أتمالك شعورى . . فرفعت الهراوة التى كنت أحملها فى يدى . . وهويت بها بكل قوتى بين منكبى الزنجى فانبثق الدم من جسمه ، ولوث ثيابه .

وصرخ الزنجى من شدة الألم . وتحول الى وثير الغضب يتطاير من

عينيه . ثم انقض على كوحش كاسر أحيط به . فارتد الجمهور الى الخلف .

ولم أتمهل . . أو أتريث . . وعاجلته بلطمة من قبضتى بين عينيه ! فتمايل وترنح . وهلل الناس ابتهاجا بفوزى . فقد كان الزنجى مشهورا بقوة الشكيمة . وشدة المراس

وسب الجبار . . وشتم . . ثم استجمع قواه . . وحمل على بهراوته مرة أخرى . . وسدد الى ضربة قاتلة . ولكننى تفاديتها ببراعة . فارتطمت هراوته بالأرض . وتهشمت . . وتناثرت أجزاؤها

وهلل المتفرجون . واشتدت سخريتهم . فزاد ذلك فى غضب الزنجى فانقض على للمرة الثالثة وقد أعماه الحقد عن كل شىء . فصرخت فى وجهه صرخة داوية .. وأطبقت على عنقه . وتعلقت به .

ولم يجد الرجل سبيلا الى التخلص منى سوى أن يلقى بنفسه فوق الارض بيد أننى ازددت تشبثا بعنقه . حتى خارت قواه . . فوضعت ركبتى فوق صدره وضغطت بكل قوتى حتى كدت أزهق روحه . . لولا أن خف خالى سيبا وبعض المتفرجين لنجدته . فرفعونى عنه .

وكانت مركبة كليوباترا قد وصلت فى تلك اللحظة . تتقدمها الفيلة ، وتسير خلفها الأسود . فانبعثت واقفا على قدمى .

ونظرت الى المركبة ، وأنا ألهث اعياء . وقد أصبت بجروح عديدة فى جسمى ، وتلوثت ثيابى البيضاء بدم الزنجى . . فرأيت كليوباترا لأول مرة ، وهى فى مركبتها المصنوعة من خالص الذهب ، يجرها جوادان ناصعا البياض

كانت تتوسط المركبة ، وعلى جانبيها جاريتان حسناوان . فى ثياب يونانية وهما تروحان لمولاتهما بمراوح مرصعة باللآلىء .. وقد وضعت كليوباترا على رأسها غطاء ايزيس ، وهو ذو قرنين من ذهب بينهما قرص القمر المستدير . ورمز عرش أوزوريس . . وقد التف حوله الثعبان الذهبى الملكى . . وتحت هذا الغطاء القلنسوة الذهبية . . والجناحان الزرقاوان . . المطعمان بالميناء . ورأس العقاب بعينيه المتلألئتين .. وأما جدائل شعرها الطويل فكانت تتماوج من تحت تاجها . حتى قدميها . وحول عنقها المستدير

(طوق) من الذهب مرصع بالجواهر .. وحول ذراعيها ومعصميها أساور من ذهب مرصعة بالياقوت والمرجان . وتحمل فى إحدى يديها صليب الحياة المقدس المصنوع من البلور ، وفى الأخرى صولجان الملك الذهبى .

كانت عارية الصدر .. وأما ثوبها فكان يلمع كالصدف . وقد نثرت عليه اللآلىء النادرة . وتحت هذا الثوب قميص مذهب أخفى جزء منه بوشاح من الحرير الموشى .. يتدلى إلى نعليها . وقد ربطا بلآلىء كبيرة .

ورفعت عينى إلى وجهها . ذلك الوجه الذى أسر قيصر .. وجر المصائب على مصر . وقدر عليه أن يقدم صولجان العالم لا كتافيوس .

وانعمت النظر الى تقاطيع الوجه الأغريقى الساحر . إلى الذقن المستديرة والشفتين الرقيقتين . والانف الدقيق . . والأذنين الصغيرتين . والجبين العريض . والشعر الأسود اللامع . . والحاجبين المقوسين ، والأهداب الطويلة المقوسة . والقوام الممشوق . والعينين المتألقتين ، اللتين يخيل الى الناظر اليهما أنهما تحجبان تحت جفنهما أسراراً . .

كانت (شعلة متوقدة) . لامثيل لها بين النساء . ولا أخالنى بالرغم من هذا الوصف الدقيق قد أتيت على كل ما كانت عليه من جمال وجلال . وحتى تلك اللحظة فقط أدركت أن قوة جاذبيتها وجمالها ليست كامنة فى ملامحها الفتاكة . بل فى ذلك المجد الذى يحيط بها ويتجلى من خلال هيكلها .

لقد جمعت كليوباترا كل سحر منح للمرأة . كما وهبت عقلا راجحا . . وحكمة عظيمة . ولكنها كانت موفورة الدهاء والخبث لاتخشى شيئا ولا تقيم وزنا لشريعة أو قانون . فاتخذت من الممالك والبلدان مسارح للهوها وعبثها . وروت حقل رغباتها واهوائها بدماء الرجال الزكية ، وهى تبتسم .

تركزت كل هذه الرغبات والاهواء فى صدرها . فابرزت الى العالم تلك المرأة الجياشة العواطف . الملتهبة الحواس . التى سميت كليوبترا ، فلم يتمكن رجل من استمالتها أو قهرها . وما كان أشق على المرء حين يراها أن ينساها أو يسلوها .

لقد كونتها الطبيعة عظيمة (كالصاعقة) . قوية السحر (كلمعان البرق)

فتاكة (كالوباء) ومع كل هذا كان لها قلب ينبض بالحرارة والحياة

التقت عيناى بعينيها لحظة عندما انحنت فى مقعدها إلى الأمام لترى مصدر الجلبة .. كانت عيناها شبه مغلقتين بادىء ذى بدء . . ولكنهما لم تلبثا أن استيقظتا ، وخيل كأن صفاءهما قد تعكر ، كما يتعكر صفاء البحر إذا اضطربت مياهه .. فانبعثت من عينيها نظرة غضب صارم ، لم يلبث أن استحال إلى دهشة شديدة حين وقع بصرها على النوبى الجبار ، وهو ممدد فوق الأرض ، يخور كالثور .

والتفتت كليوباترا إلى حراسها . . والقت عليهم بعض الأوامر . . فاقبلوا نحوى .. وقادونى اليها . فحبس الجميع أنفاسهم وهم يتوقعون هلاكى .

ووقفت أمامها معقود الساعدين فوق صدرى . . ولا شك أننى أخذت بهذا الجمال . ولكننى أحسست بالبغض يطغى على كل مشاعرى . نعم تقمت عليها لاجترائها على ارتداء ثياب ايزيس .. واغتصابها عرشى . . وتبذيرها أموال وطنى وثروته فى شراء المركبات الذهبية . والروائح العطرية .

وصعدتنى كليوباترا بنظرة فاحصة . . ثم قالت فى صوت متزن . . باللغة المصرية التى تعلمتها من دون ملوك الاغريق :

— من أنت ؟ وماذا تكون ايها المصرى ؟ وكيف تجرأت على ضربه عبدى اثناء سيرى خلال مدينتى !

فأجبتها فى ثبات :

— أنا هارما كيس . . هارما كيس الفلكى ، ربيب الكاهن الأعظم لمعبد ابوثيس ، وحاكم المدينة . جئت إلى هنا سعيا وراء عمل . وقد ضربت عبدك أنها الملكة لأنه اعتدى على تلك المرأة لغير ما سبب . . ولك أن تسألى من شهدوا قسوته يا ملكة مصر .

فقالت بصوت هادىء :

— هارما كيس ؟! لهذا الاسم وقع عظيم فى السمع . . كما أن لمنظرك وقع عظيم فى النفس .

وطلبت الى جندى رأى الحادث أن يقص عليها ماحدث . . ففعل ومن

ثم تحولت كليوباترا إلى الجارية التى كانت تروح لها . . وتحدثت اليها . .
وكانت فتاة ذات شعر مجعد . . وعينين سوداوين . . وجمال ملحوظ .
وأجابتها الجارية على سؤلها . . فأمرت كليوباترا أن يأتوها بالزنجى . .
فجىء به ، ومعه المرأة التى ضربها . .
وقالت كليوباترا بصوتها الهادىء الرزين :
— أيها الذل ! كيف سولت لك نفسكِ أن تعتدى على امرأة ضعيفة .
وماذا تقول ايهـا الجبان فى موقفك المزرى من هذا الشاب الذى ألقى عليك درسا من جنس عملك
انظر ! ! سألقنك بدورى درساً لا تنساه . . أيها الحراس . . ابتروا يده اليمنى . .
واعتدلت فى مجلسها . . وبدا الفتور على سحنتها . .
وانقض الجنود على الزنجى ، فاعتقلوه ، وبتروا يده اليمنى بالسيف . .
ثم حملوه بعيداً وهو يئن ويتوجع
واستأنف الموكب سيره بعد ذلك . . وقد لاحظت أن حاملة المروحة التفتت نحوى . . وابتسمت . ثم أحنت رأسها دليلا على الرضى . . .
فحرت فى تأويل هذه الاشارة ، ولم أدر ماتريد . .

وهتف لى الشعب . . وقال بعضهم أننى سـأحتل منصب الفلـكى فى قصر الملـكة عما قريب . . ولـكن سرعان ماتجذبنى خالى سيبـا من ذراعى . . . وراح يؤنبنى على تهورى واندفاعى . بيـد أننا لم نـكد ندخل الى غرفته حتى عانقنى جذلا . . وهنأنى بانتصارى على المارد الجبار

الفصل الثانى

غضبة سيبا

وفى اثنيـاء تناولنا العشاء فى الليلة عينها ، طرق باب المنزل . . ولمـا فتح نفذت منه فتاة تتشح برداء سابغ .. يشملها من قمة رأسها الى أخمص قدمها . فلا يكاد الانسان يتميز ملامح وجهها .

ونهض خالى لاستقبال القادمة . فنطقت الفتاة بالـكلمة السرية . وقالت بصوت عذب حنون:

— لقد جئت يا ابى ، برغم ما لا قيت من عنـاء فى الافلات من الحفلة التى يقيمونها الآن فى القصر . ولـكننى قلت للملـكة إننى أشعر بصداع ، فأذنت لى بالانصراف

فقال سيبا :

— حسناً . اخلعى رداءك فأنت هنا فى أمان

فخلعت الفتاة رداءها بضجر . فاذا بى وجهها لوجه أمام الفتاة التى كانت تروح لـكليوباترا فى المركبة . وهى حسناء الوجه . ترتدى ثياب الاغريق الانيقة . معتدلة القوام . بينما كانت جدائل شعرها معصوبة برباط من ذهب وأما وجنتاها فكانتا متوردتين كالزهرة

وعبس خالى عندما وقع بصره على ثيابها .. وسألها بخشونة :

— لماذا جئت فى هذه الثياب يا شارميون ؟ ألا تلائمك ثيـاب أمهاتك ؟ ليس هذا وقت اظهار المحاسن النسوية . ولا مكانه ، إنك لم تأت إلى هنـا للتسلط بل للاذعان

فأجابت الفتاة بصوت رقيق :

— لا . لا تغضب يا أبى . ربما تعلم أن التى أخدمها لا تميل إلى لباسنا المصرى . لأنه قديم على حد قولها . . وارتدائى إياه يثير حولى الظنون والريب . ثم إننى جئت على جناح السرعة فلم أستطع استبدال ثيابى

وفيما كانت الفتاة تتحدث . لاحظت أنها تراقبنى خلسة من خلال أهدابها الطويلة .

وقال خالى بصرامة . وهو يطيل النظر إلىّ :

— حسناً . حسناً .. ولكن تذكرى أبداً قسمك أيتها الفتاة ، والقضية التى وهبت نفسك لخدمتها . وليكن معلوما إنك إن نكثت عهدنا فسيحل بك انتقامنا . وانتقام الآلهة ! !

وارتفع صوته حتى بلغ مرتبة الصراخ . واستطرد :

— إنك خلقت . . وأنشئت لهذه المهمة يا شارميون . ولأجل هذا الهدف تعلمت . ووضعت فى المكان الذى تشغلينه الآن . فاستميلى تلك البغى الفاجرة التى تتظاهرين بخدمتها . . وحذار أن تدعى أبهة القصر وفخامته . . يصرفانك عن واجبك المقدس . أو يفسدان نقاء قلبك

واتقدت عيناه . . وخيل كأن جسمه الضئيل قد نما بجلال وعظمة . . وتقدم من الفتاة .. ورفع أصبعه فى وجهها متوعدا . ثم أردف :

— شارميون . . اعلمى اننى تساورنى الريبة فى أمرك أحيانا . . ومنذ ليلتين رأيتك فى منامى واقفة فى صحراء . تضحكين . . ثم رفعت يدك الى السماء ، فسقطت منها قطرات من الدم ، غطت أرض مصر ، فمن أين هذا الحلم أيتها الفتاة وما معناه ؟ ليس لدى ما آخذه عليك فى الوقت الحاضر ، ولكن حذار ، وإلا قطعت أوصالك هذه التى تعجبين بها ، ومثلت بجسدك برغم حبى لك ، وانتمائك الىّ دماً ولحماً

وكف عن الكلام . . وخمدت ثورة غضبه ، ولكننى أدركت لاول مرة مدى حماسة هذا الرجل النبيل ، ومبلغ توقد ذهنه ! وتشبثه بالغرض الذى يسعى اليه

وأما الفتاة فقد انكمشت منذعرة .. ثم غطت وجهها بيديها . . وانتحبت

ثم قالت :

— لا . . لاتتكلم هكذا يا أبى . . إذ أى شىء فعلت حتى استحققت غضبك ؟ لست أدرى شيئا عن حلمك هذا ، لكن . . ألم أنفذ كل شىء طبقا لرغباتك ! ألم أحافظ على القسم الرهيب ؟ ألم ألعب دور الجاسوسة ، وأطلعك على كل شىء ؟ ألم استمل قلب الملكة الى ، حتى باتت تحبنى ، ولا تمسك عنى شيئا ، كما استملت قلوب حاشيتها . ؟ فلم التهديد ، والوعيد ؟ !

وانتحبت مرة أخرى ، فزادها البكاء جمالا وملاحة

فقال خالى :

— كفى . . كفى . . لقد قبلت ماقلت . . فكونى على حذر . . ولا تأتى الينا مرة أخرى بهذه الثياب الخليعة الملجنة . . انظرى أيتها الفتاة . . هوذا ابن عمك . . ومليكك . .

فكفت الفتاة عن البكاء . . وجففت عينيها . . وطأطأت رأسها أمامى ثم قالت : أكبر ظنى انك ابن عمى المحبوب الأمير هارما كيس . .

فقلت وقد اصطبغت وجنتاى بحمرة الخجل . . فما حدثت فتاة لها مثل هذا الجمال الساحر من قبل :

— نعم ياابنة عمى . . هل كنت أنت رفيقة كليوباترا اليوم فى المركبة ؟

فلمعت عيناها ببريق الغبطة . . وتلاعبت على شفتيها ابتسامة عذبة . . وأجابت :

— نعم . . كانت شجاعة منك أن تقدم على مقاتلة ذلك الوحش الضارى . وقد شاهدت المعركة . . ومع أنى لم أكن أعرفك . فقد أشفقت على بطل مثلك أن يصيبه أذى . فأوعزت إلى كليوباترا أن تأمر حراسها بستر يده . . ولو قد علمت حقيقة نسبك لأوعزت اليها بقتله .

وابتسمت . . فتدخل خالى فى الحديث قائلا :

— كفى . . كفى . . ان وقتنا لايتسع لمثل هذا الحديث . فقصى مالك من أنباء ياشارميون . وانصرفى .

فتبدل حال الفتاة . . ووضعت يديها فوق صدرها . وقالت :

— ليصغ فرعون إلى جاريته . انني ابنة عم فرعون شقيق أبيك ، الذى مات منذ أمد بعيد . فدم ملوك مصر اذن يجرى فى عروقى . وأنا أيضا ممن يعتنقون الدين القديم . ويمقتون هؤلاء اليونانيين . ولا غاية لى أعظم من أن أراك جالسا على عرش أجدادك . وقد نبذت مكانتى السامية . وقبلت أن أكون خادمة لكليوباترا ، رغبة منى فى تحقيق الغرض السامى الذى وهبت له نفسى . واستطعت أن أمهد لك الطريق الذى يؤدى الى العرش .

تقضى المؤامرة المدبرة بان تدخل القصر فى الوقت المناسب لتقف على طرقاته ، وأسراره . وأن تكون لك الرئاسة على الخصيان والقواد . . وقد تمكنت من اغراء البعض ، واستمالتهم إلىّ . فاذا ماأعددنا التدابير الخارجية . وحان الوقت ، قتلت كليوباترا . ثم انتهزت فرصة الاضطراب الذى سيسود القصر وقتئذ ، وفتحت الابواب بمساعدتى . فيدخل اليه أنصارنا ومؤازرونا . ويفتكون بالجنود الموالين لنا . ومن ثم تستولى على (بروشيم) فاذا تم ذلك بنجاح سقطت الاسكندرية كلها .

وفى ذات الوقت يهب الذين أقسموا لك يمين الولاء فى جميع أنحاء مصر . ليخنقوا كل ما من شأنه أن يتعارض مع هذا الولاء . ولن تمضى عشرة أيام على قتل كليوباترا حتى تصبح فرعون مصر

تلك هى الخطة التى استقر الرأى عليها . والتى لاأدخر وسعا فى انفاذها على الوجه الأكمل .

دهشت ايما دهشة . . نعم أدهشنى فى الواقع أن تكون لفتاة لا تجاوز العشرين من عمرها تلك الحنكة والمقدرة على تدبير مؤامرة بمثل هذه الدقة . فما كان المشروع الا مشروعها فى الأصل . . ولكننى لم أكن أعرف شارميون حق المعرفة فى تلك الأثناء .

وأخيراً قلت مأخوذا :

— سمعت قصتك يا ابنة العم . ولكن اخبرينى كيف أتمكن من دخول القصر ؟

— ان الأمر هين يا ابن العم . . فلكليوباترا ولع عظيم برؤية الرجال

ومعذرة ياسيدى ان قلت إنك جميل الطلعة ، والقوام . وقد لاحظت لهفتها على معرفة مقرك . إذ أيقنت ان من كاد يقضى على زنجى جبار وهو أعزل من السلاح لاريب يكون عالما متضلعا فى أسرار النجوم . وحين اعادت على سؤالها عنك ، قلت لها إننى سأتحرى أمرك . . فاصغ الى أيها الأمير الجليل : من عادة كليوباترا أن تنام وقت الظهر فى غرفتها الداخلية المطلة على الحديقة المجاورة للميناء .. وسأنتظرك غدا فى هذا الميعاد عند أبواب القصر .. فعليك أن تطلب مقابلة السيدة شارميون .. وسأحاول أن أجمعك بكليوباترا على انفراد بعد استيقاظها . وأما الباقى فمن شأنك وحدك . .

ان كليوباترا مولعة بالعلوم السحرية . وطالما رأيتها تقضى ليالها مسهدة . ترقب النجوم .. وهى تدعى أنها تقرأ اسرارها .. وقد رفضت أخيرا الطبيب ديوسكوريدس من خدمتها . . إذ شاء تغفيله وقصر نظره أن يتنبأ ، ان كازيوس سيهزم مارك أنطونى فارسلت كليوباترا إلى القائد النيوس ، تأمره بان يضم الفرق التى أرسلتها الى سوريا لمساعدة مارك أنطونى ، إلى جيش كازيوس ، الذى انتصر طبقا لنبوءة ديوسكوريدس . . ولكن سرعان مادارت الدائرة على كازيوس ، وكذبت نبوءة المنجم . فهزم انطونى كازيوس ثم انتصر على بروتس . . فثارت ثائرة كليوباترا . وطردت المنجم شر طردة ومازال مكانه شاغراً . وهذا المكان هو الذى أعددته لك أيها الأمير . . فاذا ماحصلت عليه .. فسنعمل معا فى الخفاء لمصلحه مصر . إلى أن تحين ساعة الخلاص . فتهدم طعنة من خنجرك صرح هذا العرش الذى بناه الأغريق ومن ثم ترفرف الملكية بجناحيها على مصر العظيمة من جديد .

وكفت الفتاه عن الكلام .. فحدقت فى وجهها بذهول وعجب .

وقال خالى : نعم .. نعم . يسرنى دائما أن أراك على هذه الحال . . فانت الآن شارميون التى عرفتها . وانشأتها ، لاجارية البلاط التى أبغضها وأحقد عليها . والآن انصرفى الى عملك فقد طالت غيبتك .

لبست الفتاه رداءها فى صمت . وقبلت يدى باحترام . وانصرفت

وقال خالى :

ـ انها فتاة غريبة الاطوار . بل من أغرب النساء اللائى يرتاب الانسان فى إخلاصهن .

— لقد عاملتها بشىء من القسوة والصرامة يا خالى .

— نعم . ولـكن لـكل سبب مسبب . ومهما يـكن . فعليك بالحـذر الشديد منهـا . فهى فتـاة جموحة وأخشى أن تنحرف عن طريقنـا . انها متوقدة الذهن غيورة . تحب قضيتنا . ولـكنى أرجو ألا تتعارض قضيتنا مع رغباتها الخاصة . وأنا فى الواقع لم أفعل أكثر من إخافتها وتهـديدها ، خشية أن يفلت قيادها من يدى . إن حيـاتنا فى قبضة هـذه الفتاة نا هارما كيس . والويل لنا يوم تدور خيانتنا بخلدها .

الفصل الثالث

هارما كيس فى القصر

وفى اليوم التالى ، ارتديت معطفا طويلا فضفاضا كذلـك الذى يرتديه السحرة والمنجمون . ووضعت على رأسى قلنسوة رسمت فوقها أشكال النجوم بينا وضعت فى حزامى محبرة للألوان ، وحزمة من أوراق البردى . سجلت فوقها رموز سرية وتعاويذ . وأمسكت فى يدى عصا من الابنوس طرفها من العاج . كتلك التى يحملها الـكهنة والسحرة

وانطلقت . وبرفقتى خالى سيبا . إلى القصر .

واجتزنا البـاب الا كبر المصنوع من الرخام . ثم نفذنا من الابواب المصنوعة من البرنز . والتى تقع من خلفها ثـكنات الحراس .

واستأذن خالى . ودعا لى بالنجاح والتوفيق .

وتقدمت من الباب . فاعترضنى بعض الحـراس . وسألونى بغلظة عن اسمى . والغرض من قدومى . فاجبتهم بأن اسمى هارما كيس الفلـكى . وانى جئت لمقابلة السيدة شارميون وصيفة الملـكة .

وكاد الرجل يتنحى عن طريقى ، لولا أن أقبل فى تلك اللحظـة ضابط رومانى اسمه يوليوس . ورفض أن يسمح لى بالدخول . .

وكان هذا الضابط بدين الجسم . . له وجه يشبه وجه النساء . . ترتعش يداه من افراطه فى الشراب . .

وما أن وقع بصره علىّ حتى عرفنى . . وقال يخاطب زميله باللاتينية :

— انه الشاب الذى هزم النونى أمس

ثم تحول الىّ وقال :

— لماذا تريد مقابلة السيدة شارميون .؟ لا .. لا .. لن اسمح لك بذلك فانى أعبدها . . بل كلنا يعبدها . . فهل تعتقد أن نسمح لشاب له مثل جمالك أن يعكر صفونا ؟ ! لا . . لا . . وحق المعبود (بخيوس) لن اسمح لك بالدخول .- وأما إذا أرادت هى مقابلتك فلتأت اليك . .

فقلت بلهجة التوسل . . ولكنها لاتخلو من الكبرياء :

— اذن أرجو أن تبعث بمن ينبئها بقدومى .

فبدت سيماء الاشمئزاز على وجه الضابط . . وقال رفيقه :

— هو منجم كما يدعى . . فدعه إذن يتنبأ . . أويطلعنا على شىء من الاعيبه السحرية . .

وأيده الباقون بحرارة.. وقال أحدهم:

— نعم . . دعوه يظهر مهارته السحرية .. فاذا كان حقاً ساحراً ففى استطاعته أن يجتاز الأبواب رغم انف يوليوس . .

فلاحت لى بارقة أمل .. فقلت لرفيق يوليوس :

— على رسلكم ياسادة . . هل تريد أيها السيد أن أحدق النظر فى عينيك .. فربما استطعت أن اقرأ خفاياك ؟

— ليكن .. بودى لوكانت شارميون الفاتنة هنا ..

فامسكت بيده .. وحملقت فى عينيه .. ثم قلت :

— أرى ساحة قتال . . والليل ينشر جناحيه على الكون .. ثم .. ماهذا ؟ ! أرى اشلاء القتلى مبعثرة فى الساحة ، ومن بينها جثتك ياسيدى ينهش فيها وحش ضار .. ستموت ايها السيد المبجل تحد السيف قبل أن ينصرم عام واحد ..

ففر لون الحارس . . وصاح فى وجهى مزمجراً .. ثم مضى عنى . . وهو يتمتم بكلام غير مفهوم .. وتحولت إلى يوليوس .. وقلت له :

— انك تمنعنى من الدخول . . ولكننى سأدخل رغم انفك . وسأجرك ورائى .. تقدم أيها السيد وحدق فى طرف هذه العصا .

فامتثل بعد الحاح زملائه . . وراح يحدق فى طرف العصا . . حتى فقدت عيناه قوة الأبصار . وعندئذ سحبت العصا فجأة . ثم وضعت وجهى مكانها . . ورحت اتحول . وأدور . وهو يدور ورائى . ووجهه الجامد يكاد يلتصق بوجهى . .

وجعلت أتقهقر . وهو يتبعنى . . حتى اجتزت الأبواب . ثم رفعت رأسى فجأة فسقط فوق الأرض .

واسرع بالنهوض ،

وهو يمر بيديه فوق وجهه . .

وقد ارتسمت عليه سماء اللاهة ..

فقلت : هل اقتنعت أيها الضابط النبيل ؟ ! هأنذا قد اجتزت الأبواب . . فهل يقنعك ذلك بمهارتى السحرية ؟ !

وقبل أن يتمكن الضابط من الاجابة ..أقبلت شارميون فى الطريق المرصوف بالرخام ، يتبعها زنجى مسلح . وكانت تسير بخطى وئيدة متزنة . وقد شبكت يديها خلف ظهرها .

وأفسح لهـا الجنود والضبـاط السبيل .. وأحنوا رؤوسهم احتراما .. اذ كانت ، كما علمت ، تلى كليوباترا سلطة ونفوذا .

وتظاهرت الفتاة بأنها لم ترنى .. وقالت تخاطب جندى اسمه برينوس :

— لم هذه الجلبة يا برينوس ! الا تعلم أن الملـكة نائمة الآن ..

فقال باستكانة : نعم يا سيدتى . . ولـكن هذا الساحر (وأشار الىّ) اتى عملا خارقا . وقص عليها ما فعلته مع يوليوس . وأردف :

— ثم إنه يقول إن لديه مهمة هامة جاء لمقابلتك بشأنها .

فتحولت شارميون . ونظرت إلىّ بدون اكتراث . ثم قالت :

— آه ! نعم . تذكرت . سترى الملـكة حيله وألاعيبه . ولـكن اذا لم يكن فى استطاعته أن يفعل أكثر من اجتذاب سكير (ونظرت الى يوليوس باحتقار) فخير له أن يعود من حيث أتى .

وابتسمت . . واومأت إلى أن أتبعها .

انطلقنا فى طريق مرصوف بالرخام. واجتزنا الحديقة، بين صفين من تماثيل معبودات الوثنيين . . ثم نفذنا إلى رواق فاخر به أعمدة منحوتة على الطراز اليونانى . . ومن هذا الرواق انتقلنا إلى دهليز تتوسطه نافورة ينطلق منها الماء بهدوء . . ومن ثم عبرنا بابا صغيرا الى غرفة تعرف باسم (قاعة المرمر) وهى غرفة جميلة المنظر . . يستند سقفها على أعمـدة من الرخام الأسود . . وجميع جـدرانها من المرمر . . وقد نقشت فوقها قصص يونانيـة . . واما الأرض فـكانت من الرخام الملون . وقد سطرت فوقها قصة غرام اله الحب ليسيش . . وعلى جانبيها صفت مقاعد من العاج والذهب .

وأمرت شارميون الزنجى المسلح بالبقاء عند باب الغرفـة . . ثم دخلنا منفردين . . فرأيت فى الناحية المقابلة من الغرفة ستاراً كثيفا . . على جانبيه خصيان شاهران سيفيهما .

وهمست شارميون :

— شـد ما يؤلمنى ياسيدى أن استقبلك هؤلاء الضباط الرومان بغلظـة وخشونة . . ولـكنهم معذورون على كل حال . فهم كثيرو المواجس

والريبة . . والآن ابق هنا ريثما أذهب إلى مخدع كليوباترا . . وأعود .

ثم نفذت من بين الستائر . . وغابت هنيهة . . عادت بعدها على الأثر . . وقالت :

— هل تريد أن ترى أجمل امرأة فى العالم وهى نائمة .؟

فدهشت . . ولكنها أسرعت تقول :

— لا تخش شيئا . . فلو انها استيقظت لما فعلت شيئا . . . بل لعلها تضحك ملء شدقيها ، فقد أمرتنى أن أذهب بك اليها فى الحال سواء كانت نائمة أو مستيقظة . . انظر .. إن معى خاتمها الملكى .

واجتزنا الغرفة . . وبينا كنت أحاول المرور من خلال الستائر اعترض الخصيان سبيلى .. فعبست شارميون . . وأبرزت لهما الخاتم من صدرها . . فاحنيا رأسيهما . . وأفسحا لى السبيل .

ودخلنا مخدع كليوباترا .

كانت غرفة على جانب عظيم من الروعة والفخامة . . مزينة بأنواع مختلفة من الرخام والذهب والعاج . . والزهور واللآلىء .. وأثاثها يجل عن الوصف . . وتماثيلها من أروع آيات الفن .

وكانت كليوباترا مستلقية فوق سرير فاخر ، عليه غطاء من حرير رقيق لامع . . وشعرها الأسود المتماوج ينتشر من حولها . . وقد توسدت أحد ذراعيها ، بينما تركت الآخر ملقى فى استرخاء . . وافترت شفتاها الجميلتان المفترقتان . . عن ابتسامة عذبة رقيقة . . وكشفتا عن صفين من أسنان كاللؤلؤ المنظوم .

جمدت فى مكانى مبهوتا حائراً . . . ولبثت برهة مبهوراً من ذلك الجمال النادر .. وخيل الىّ فى تلك اللحظة أنه من القسوة أن أقتل هذه المخلوقة الجميلة . .

أدرت بصرى فجأة . . فألفيت شارميون ترقبنى بعينيها النافذتين . . . وكأنها تريد أن تقرأ خواطرى .. ولا ريب أن شيئا منها قد انعكست آثاره على صفحة وجهى . . فاستطاعت أن تقرأها بسهولة إذ همست :

— إنه أمر مؤلم ولا ريب . . اليس كذلك ؟ انك رجل قبل كل شىء يا هارما كيس . . وأحسب أنك ستحتاج الى مجهود جبار لتستطيع الثبات الى النهاية .

فوجمت . . ولم أحر جوابا .

ولمست شارميون ذراعي . . وأومأت نحو الملكة . . فأدرت بصرى ، ونظرت إلى كليوباترا . .

وشد ماراعنى منظرها . .

كانت قد شبكت يديها . . . وارتسمت على وجهها أمارات الذعر ، والفزع . . وكانت تلهث . . ثم لم تلبث أن رفعت ذراعها . كأنما تريد أن تدفع أذى يهددها . .

وتأوهت . . ثم استوت جالسة فى فراشها . . وفتحت عينيها النجلاوين وكانتا سوداوين كقطعة من الليل البهيم . . ولكن سرعان ما تغير لونهما ، فاستحال أزرق كالسماء .

وقالت :

— قيصرون ؟ أين ابنى قيصرون ؟ إذن كنت أحلم ؟ ! لقد رأيت فى المنام أن يوليوس قيصر — يوليوس الذى مات — جاءنى ، وقد لف وجهه بوشاح ملوث بالدم .. ثم طوق ابنه بذراعيه .. وانطلق به . . ثم رأيت أننى مت — مت من الألم ، وكثرة مانزف من دمى — وأن رجلا لم استطع رؤية وجهه كان يسخر منى عند موتى .

آه . ! من يكون هذا الرجل ؟ « مشيرة الىّ »

فأجابت شارميون :

— اطمئنى يا سيدتى . إنه هارما كيس المصرى الساحر الذى امرتنى أن آتيك به

— آه ! الساحر ؟ ! هارما كيس الذى قهر المارد النوبى ؟ ! لقد تذكرت الآن . على الرحب والسعة . اخبرنى أيها السيد الساحر . هل تستطيع أن تفسر هذا الحلم ؟ ! لو وفقت فى تفسيره . فسأدلك على طريق

للثروة والسؤدد أعظم من أى طريق آخر تشير اليه نجومك .

فأجبت :

— يخيل انى جئت فى الوقت الملائم أيتها الملكة العظيمة . فأنا ضليع فى تفسير الاحلام . ما النوم الاسلم يرتقيه الذين انتقلوا إلى أحضان اوزوريس إلى مركز شعورنا الحى من وقت لآخره ويرددون صدى ما فى (قاعة الحق) التى يقيمون بها . باشارات ورموز . وكلمات نستطيع نحن الاحياء ان نفسرها عما أوتينا من علم وحكمة

تقولين انك رأيت قيصر العظيم فى ثيابه الملطخة بالدماء . وقد طوق الامير قيصرون بذراعيه . ثم حمله . وانطلق به . إذن اصغى إلىّ

إن روح قيصر اتت حقا اليك فى المنام من (امنتى) . والمقصود باحتضانه الطفل قيصرون أن يوحى بأنه هو الذى فقد عظمته وحبه دون سواه . وأما تظاهره بأخذ الطفل . فمعناه أنه يريد أن ينطلق به من مصر ليتوج فى (الكابيتول) امبراطورا على روما . وسيدا على جميع الممالك . وهذا هو كل شىء أيتها الملكة .

كنت أعلم أن تفسيرى على شىء كثير من الغموض والابهام . وقد تعمدت ذلك . إذ ليس من المستحسن أن يتنبأ الانسان بشر للملوك .

ونهضت كليوباترا من مكانها . ثم جلست على حافة الفراش . وراحت تتفرس فى وجهى . وهى تعبث باطراف حزامها المرصع باللآلىء ..

ثم قالت :

— إنك أعظم ساحر التقيت به . فقد أمكنك أن تقرأ خفايا قلبي . كما لو كنت تقرأ فى كتاب مفتوح .

ثم شبكت يديها خلف رأسها . واضطجعت . ونظرت إلىّ من خلال عينيها شبه المغلقتين . ثم قالت :

— هلم أيها الساحر المصرى . أرنا سحرك . فانى أريد التسرية عن نفسى بعد أن سئمت مقابلة رسل العبرانيين . ماذا تستطيع أن تفعل ؟ أقسم بحق

المعبود (سيرابيس) أن أهبك منصبا فى القصر . وأملاكا إضافية تدر عليك مالا وفيراً إذا برهنت على مهارة فى السحر مثل مهارتك فى التنبؤ .

فأجبت :

— إن جميع أساليبى قديمة مع الأسف . . ولكن هناك بعض أعمال سرية نادرة الاستخدام . وربما لم يريها من قبل . هل تخشين رؤية السحر ؟

— لا أخشى شيئاً . فاصنع ما شئت . تعالى يا شارميون واجلسى بجانبى لكن لا . . أين جميع الجوارى . ؟ أين إيراس ومريرا . ؟ انهما يحبان السحر أيضاً .

فأسرعت قائلا :

— لا . إن السحر لا يفلح فى حضرة كثيرين . . والآن . انظرى

والقيت عصاى فوق الرخام .. ثم تلوت تعويذتى سراً . . فمكثت العصا مكانها هنيهة . ثم جعلت تتلوى ببطء . بينما كنت مستمراً فى التلاوة . ولم تلبث أن استحالت إلى حية . أخذت تزحف وتحدث فحيحاً مزعجاً

فصفقت كليوباترا طربا . وصاحت :

— تباً لك ! تباً لك ! أتسمى هذا سحراً ؟ إنها العوبة عتيقة يستطيع أى ساحر من الجالسين على قارعة الطريق أن يأتى بها . لقد رأيتها من قبل عشرين مرة

فقلت :

— مهلا أيتها الملكة . فأنت لم ترى كل شىء بعد

وبينما كنت أتكلم . إذا بالحية تتجزأ إلى قطع صغيرة . تولد من كل منها حية جديدة . وتجزأت هذه الحيات بدورها ، وخرجت منها حيات أخرى تسعى . وهكذا دواليك ، حتى خيل إلى أعينهما المأخوذة أن المكان قد استحال إلى جحر للافاعى . وقد أخذت تزحف . وتصفر . وتلتف حول نفسها . .

وأتيت باشارة من يدى . فأحاطت الحيات بى . ثم أخذت تزحف نحوى ببطء وتلتف حوا جسدى ، وذراعى ! إلا وجهى إلى أن بدوت وكأننى

أرتدى ثوبا من الحيات .

وصرخت شارميون فزعا . وأخفت وجهها فى ثوب الملكة

وهتفت الملكة : كفى أيها الساحر . لقد حيرنا سحرك

فحركت ذراعىّ .. فاختفت الحيات . وإذا بعصاى ملقاة عند قدمى .

وتبادلت الملكة ووصيفتها نظرة دهش . فالتقطت عصاى . وواجهتهما وأنا معقود الذراعين . وقلت بخضوع :

— هل اقتنعت الملكة باعمالى المتواضعة ؟ .

— نعم اقتنعت أيها الساحر المصرى . انك جئتنى بعالم أره من قبل أو اسمع به. لقد عينتك منذ الآن فى حاشيتى . وخولت لك حق الدخول على الملكة . أمن أعمال سحرية أخرى من هذا القبيل ؟

— نعم أيها الملكة . لو تكرمت باسدال الستائر ، أريتك شيئا آخر

فاسدلت شارميون الستائر . وأظلمت الغرفة .

وتقدمت من كليوباترا .. ووقفت بجانبها . ثم أشرت بعصاى الى البقعة التى كنت أقف فيها من قبل . وقلت :

— انظرى هناك ، ترى ما تفكرين فيه .

وساد الصمت . . وراحت المرأتان تحدقان إلى البقعة الخالية بخوف وانزعاج . وسرعان ماتجمعت سحابة أمامهما . وأخذت تتجسم ببطء ، إلى أن اتخذت شكل رجل ، جعل ينمو تارة ، ويتلاشى أخرى .

وعندئذ صرخت :

— أيها الخيال . اظهر بحق جميع الآلهة ! !

فظهر الشبح متجسما كاملا . . وكان على هيئة قيصر الملك . . وقد لف وشاحه حول وجهه . وثوبه ملطخ بدماء كانت تنبثق من جراح تملأ جسمه

ولوحت بعصاى فى الهواء . فاختفى الشبح فى الحال .

وتحولت الى المرأتين . وشد ماراعنى اصفرار وجه كليوباترا ، وأمارات الفزع التى كانت مرتسمة على وجهها .

وصاحت لاهثة :

— من أنت أيها الرجل ؟ من أنت حتى تستطيع أن تجلب الأموات من قبورها ؟ .

فضحكت . . وأجبت :

— ما انا الا ساحر الملكة ، ومنجمها . وخادمها المتواضع .. ألم يكن هذا ماتفكرين فيه أيتها الملكة ؟

فلم تجب . ولكنها نهضت واقفة . وزايلت الغرفة من باب آخر .

وتمالكت شارميون روعها . وسألتنى :

— كيف تفعل هذه الأشياء الخارقة أيها الملك هارما كيس ؟ اخبرنى فقد بت أهابك وأخشاك !

— لاتخافى ياشارميون . ولا تفكرى فيما رأيت .. فقد انتهت اللعبة .

فتهللت أساريرها . وقالت :

— لعمرى انك بارع كل البراعة . ولن تنصرم الليلة حتى يذيع صيتك فى أنحاء الاسكندرية . ويهابك الناس أكثر من أى رجل آخر . . هلم ياهارما كيس . واتبعنى

الفصل الرابع

أساليب شارميون

تلقيت فى اليوم التالى مرسوما بتعيينى كبيرا لمنجمى وسحرة القصر الملكى براتب كبير ، وآلت الىّ جميع الممتلكات الموقوفة على شاغل المنصب . وقد افردت لى غرفة خاصة فى القصر كنت أنطلق منها ليلا الى برج المرصد العالى حيث أرقب النجوم . وأسجل أسرارها .

وكانت كليوباترا فى تلك الفترة شديدة القلق من الناحية السياسية ولا تعلم كيف سينتهى النضال العظيم القائم بين أحزاب روما . . على أنها قررت فى النهاية أن تنضم إلى أقوى الأحزاب ، لتأمن على عرشها . ومن ثم كثرت استشاراتها لى . وكانت تطالبنى بتفسير أسرار النجوم والأفلاك . . فكنت أجيبها الى طلبها ، ولكن بطريقة تتفق وأغراضى الخاصة .

وكان انطونى ، أحد أعضاء الحكومة الثلاثية الرومانية ، المؤلفة منه ، ومن اكتافيوس وبيدوس ، موجوداً فى آسيا الصغرى . وقد بلغه أن كليوبترا تحقد على الحكومة الثلاثية .. وأنها لذلك أرسلت تأمر قائدها سرابيون بمساعدة كازيوس . . بيد أن كليوبترا انكرت هذه الحقائق أمامى وأمام غيرى .. وادعت أن سرابيون تصرف من تلقاء نفسه . وتغطية لموقفها استدعت القائد ، وقتلته لكى تبرىء نفسها أمام انطونى .

وسارت الأمور سيرا حسنا بعد ذلك ، وانصرفت كليوباترا وأعوانها الى مراقبة الحالة السياسية الخارجية . . وضربوا صفحا عن الشئون الداخلية فما كان يجول بخاطرهم أن ثمة فتنة تدبر .

وقد قوى حزبنا فى تلك الأثناء .. وبدأ المترددون ينضوون تحت لوائنا . ويقسمون بالقسم الرهيب الذى لا ينقض أن يخدموا مصر مابقى فيهم نفس

يتردد .

وكنت أغادر القصر بين الفينة والفينة . وانطلق لاستشارة خالى سيبا فى منزله . وهناك كنت التقى بكثيرين من الأعيان وكبار الكهنة الذين انضموا إلى حزب مصر

وكثيرا ما التقيت بكليوباترا . . وطالما أدهشتنى بغزارة علمها ، وتوقد ذهنها . وكانت تهابنى بغض الشىء ، فسعت إلى خطب ودى . ولم تقتصر العلاقات بيننا على مجرد الاستشارات الفلكية . بل تعدتها إلى استشارات أخرى .

وأما شارميون فكانت تتردد على غرفتى بكثرة . بل طالما رأيتها بجانبى دون أن أدرى من أين جاءت ، ولا متى تذهب . وفى كثير من الأحايين كنت لا أراها على الاطلاق ، إلى أن يقع بصرى عليها فجأة .. فاذا بها تراقبنى من خلال أهدابها الطويلة .

وكانت الفتاة شعلة من الحركة الدائمة . لا تتدخر وسعا فى خدمتى ، وخدمة قضيتنا المقدسة . . فاذا ما شكرتها ، وأطريت اخلاصها وولاءها . . وقلت انى سأذكر لها ذلك الاخلاص فى الوقت الذى أخذ يقترب ، راحت تضرب الأرض بقدمها . وارتجفت شفتاها ، كطفل غاضب . ثم تقول انى ، رغم غزارة علمى ، واتساع أفق حكمتى ، أجهل ان الخدمات التى يؤديها الانسان بدافع الحب ، لا تستحق الجزاء . فهى جزاء نفسها .

ولكننى كنت أجهل معنى قولها هذا ، ولا عجب ، فقد كنت خالى الذهن . لا تجول مثل هذه المسائل بخاطرى . وكيف كان يمكن أن تخطر الغرامياب ببالى . وانا ما سعيت الى كليوباترا إلا فى سبيل خدمة قضية بلادى . التى وهبت لها نفسى . فضلا عن يمين الاخلاص الذى أقسمته بين يدى الآلهة . . الا استجيب لنواعى الاغراء . والحب . ذلك الحب الذى كان مصدر بلائى وبلاء مصر ؟!

والواقع انى كنت أفسر عباراتها فى مبدأ الأمر بان الخدمات التى تسديها لمصر التى تحبها انما تحمل فى طياتها لونا من الجزاء . فلا حاجة اذن لشكرى .

ولكن اذا اتفق وأطريت سمو روحها . ثارت وبكت بدموع الغضب المكبوت ، ثم تنصرف عنى ، وقد خلفتنى تهبة الحيرة والارتباك .

كنت أجهل ما يؤلمها . ولا أعلم أن هذه الفتاة قد وهبتنى قلبها . . نعم ، كنت اجهل ذلك . وانى لى أن اعرفه ، وأنا الذى كنت أعتبرها أداة لخدمة قضيتنا المشتركة المقدسة ؟

لم يستهونى جمالها . وحتى حين كانت تميل فوقى وتلفح أنفاسها وجهى لم اكن افكر فيها الا كما يفكر المرء فى جمال تمثال فنى .. صقلته يد بارعة !

والغريب أن حب المرأة كان سبيل انزلاقى إلى الوهدة التى طالما سخرت منها ، واستخففت بها !

لقد أحبتنى شارميون وكان حباً مشئوماً انتهى بها إلى خاتمة مفجعة

صفوة القول انى كنت أجهل كل شىء . . وظلت معاملتى لها لا تتعدى معاملة الأخ لأخته .. وسرت إلى جانبها نحو نهايتنا المشتركة

* * *

اتفق أن أقيمت فى القصر حفلة سمر ، فى الليلة السابقة لتلك التى حددناها للقيام بحركتنا الثورية . وكنت قد قابلت خالى سيبا ظهر هذا اليوم ، وكان مجتمعاً بقواد فرقة مؤلفة من خمسمائة رجل مسلح ، هم الذين أنيطت بهم مهاجمة القصر عند منتصف ليلة الغد ، بعد قتل كليوباترا . ؛ والفتك بالجنود الرومانيين ، والغاليين . وكنت قد استملت الضابط يوليوس إلى .. وأرغمته ، تحت تأثير التهديد بقوتى السحرية ، على أن يعدنى بفتح باب القصر الصغير الواقع فى الجهة الشرقية عند تلق الاشارة المتفق عليها

وكان من المتفق عليه أيضاً أن تحتشد القوات المسلحة فى كل مدينة من آبو إلى آنو . وأن تبث العيون والارصاد فى كل مكان . فى انتظار وصول الرسول الذى يحمل اليهم نبأ مصرع كليوباترا . واستيلاء هارما كيس ملك مصر على عرش أجداده . ومن ثم تقوم هذه الفرق بعملية التطهير اللازمة .

وهكذا أعد كل شىء .. وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من النجاح ولكنى ، مع ذلك ، شعرت اثناء جلوسى فى المأدبة الملكية بحزن غامض

وبسحب شر مقبلة

انصرفت إلى النظر إلى كليوباترا وهى ترتشف كأس الخمر .. وتعبث بأصابعها فى أكليل الزهر الذى زينت به جبينها .. وتذكرت الخنجر الذى اخفيه بين طيات ثوبى .. ذلك الخنجر الذى أقسمت أن اغيبه فى صدرها فانتفضت

وحاولت جاهداً أن أقنع نفسى بكراهيتها .. وأن ابتهج لموتها .. ولكنى فشلت .. وكانت شارميون تقف خلف مولاتها وهى تراقبنى كعادتها من بين اهدابها الطويلة ..

وانتفضت للمرة الثانية .. وراغنى أن الطخ عرشى بالدم .. وأن استعين بالشر لتطهير البلاد من الشر .. وكم تمنيت فى تلك اللحظة أن أكون فلاحا يزرع أرضه ، ويحصد منها حباً من الذهب فى موسم الحصاد ولكنى ، واأسفاه .. ان الحبّة التى قضى القدر أن أبذرها هى حبة الموت فلا مفر اذن من أن احصد محصولها الأحمر ! !

ابتسمت كليوباترا بهدوء .. وقالت تخاطبنى :

— ماذا يؤلمك ياهارما كيس ؟ هل اختلطت سلاسل النجوم ، أو هل تفكر فى العوبة سحرية جديدة ؟! لماذا تستقبل مأدبتنا بهذا الاستقبال الفاتر ؟

- لا أيتها الملكة .. فقط اشعر بشىء من الخجل .. فخادم النجوم لايلاحظ نظرات المرأة التى لاتفيض عليه بأى لون من الوان السعادة

فتحولت كليوباترا إلىّ .. وأطالت النظر إلى عينى .. فاشتدت ضربات قلبى ..

واستطردت بصوت خافت لم يسمعه أحد غيرى وشارميون .

— لا تزه بنفسك ايها المصرى المتعجرف .. والا اغريتنى على أن اجرد سحرى فى وجه سحرك . . أية امرأة تستطيع أن تحتمل رؤية رجل يمر بها ، ويدفعها جانباً كما لوكانت شيئاً تافها ؟ انها اهانة ما بعدها اهانة وتمايلت فى مقعدها . . وضحكت ضحكة موسيقية رنانة . .

وحانت منى التفاتة إلى شارميون ، فرأيتها تعض على ناجذيها . . وقد

أجهم وجهها غضبا .

وأجبت الملكة ببرود ولكن بلباقة :

— معذرة ايتها الملكة . . ان النجوم ليكسف ضوؤها أمام ملكة السماء .

كنت أقصد القمر بقولى هذا . . فالقمر رمز الأم المقدسة ايزيس ، التى أرادت كليوباترا منافستها . . وتسمت باسمها .

ولكن كليوباترا أخطأت فهمى .. وصفقت بيديها البضتين .. وهتفت :

— نعم القول ! هوذا فلكى متوقد الذهن . . استطاع أن يحيي أحسن تحية . . لا . . مثل هذا العمل المدهش لا ينبغى أن يمر دون اهتمام وإلا غضبت الآلهة . . شارميون ، ارفعى ا كليل الزهور من فوق رأسى ، وضعيه على رأس هارما كيس العالم الكبير . . لابد من تتويجه (ملكا للحب) سواء رضى أو لم يرضَ

فامتثلت شارميون . . ووضعت الا كليل فوق رأسى ، وهى تبتسم . . وكان الا كليل معطرا . ولا نزال دافئا . . ولكن الفتاة وضعته بشيء من الخشونة ، آلمتنى قليلا . . ولم تخف عنى نظرة الغضب التى ومضت فى عينيها رغم الابتسامة الخفيفة التى ارتسمت على شفتيها .

وهمست الفتاة فى أذنى قائلة : هذا فأل سيء يابهارما كيس

ثم انحنت أمامى .. وقالت باللغة اليونانية : هارما كيس ملك الحب !

فقهقهت كليوباترا ضاحكة . . وشربت نخبى بوصفى (ملك الحب) . واقتدى بها المدعوون جميعا . . فقد أعجبتهم الملحة .

وابتسمت . . وكانت ابتسامة فاترة كاذبة . . وعصف الغضب بين جنبى . . فقد تذكرت سمو مكانتى ، وآلمنى أن أكون أضحوكة فى عينى كليوباترا ، وحاشيتها . . وساءنى أن تكون شارميون أعلاهم ضحكا . . فما كنت أعلم وقتئذ أن الضحك والحقد يكونان أحيانا ذلك النقاب الذى يسدله القلب ليخفى ضعفه عن الأعين النفاذة .

قالت شارميون عن ا كليل الزهور أنه (فألّ سيء) .. والصواب ما

قالت . . فقد شاء القدر أن استبدل تاج مصر المزدوج ، با كليل من زهور الحب الذابلة . . وفراش فرعون العظيم بصدر امرأة خادعة . مستهترة . .

ملك الحب ! ! لقد توجونى ساخرين . . نعم . . فأنا ملك العار أيضاً . وقد تذكرت وا كليل الزهور فوق جبينى ، أنا هارماكيس فرعون مصر بحق الدم والنسب ، قاعات أبوثيس التى لاتبلى . وتتويجى غدا للمرة الثانية .

واستأذنت فى الانصراف . ثم انطلقت الى البرج لأرقب النجوم

وما أن احتوانى البرج ، حتى خلعت ا كليل الزهور المشين . وقذفت به بين الآلات . ثم أخذت أتظاهر بمراقبة الكواكب والافلاك

وبعد قليل ، فتح الباب بهدوء . ونفذت شارميون الى البرج ، فى ثيابها البيضاء التى كانت ترتديها خلال المأدبة .

الفصل الخامس

هدية كليوباترا

هتفت من فورى :

— هاأنت قد جئت أخيراً ياشارميون ! لقد تأخرت كثيراً .

— نعم يامولاى . . لقد تعذر على الافلات . فهى الليلة متقلبة الأطوار ، كبحر ثائر . فلم أتمكن من ادراك نواياها وأغراضها .

— حسنا . . دعينا منها الآن . هل قابلت خالنا سيبا ؟

— نعم يامولاى .

— وهل أعطاك القائمة الأخيرة ؟

فأخرجتها من صدرها . . وقالت : نعم . . هاهي قائمة الذين يجب قتلهم عقب قتل الملكة . وهي طويلة كما ترى

فقلت وأنا أفحصها : نعم . . هى قائمة طويلة كما تقولين . لكن الواجب هو الواجب . . أمن أنباء أخرى ؟

— اليك قائمة اخرى بأسماء الذين يعفى عنهم . وأما هذه القائمة فبأسماء

المدن التى لا شك فى ثورتها على أثر وصول الرسول الذى يحمل نبأ مصرع كليوباترا .

— حسناً . والآن . .

وأمسكت متردداً . ثم قلت : لنتكلم الآن فى مقتل كليوباترا . . هل أعددت كل شىء : وهل يجب أن يكون قتلها بيدى ؟

فأجابت الفتاة بلهجة تشوبها رنة الحقد :

— نعم يا سيدى . ولا ريب أن فرعون يسره أن يستخدم يده فى تحرير مصر . والقضاء على هذه البغى ، الخائنة

— كفى عن الكلام بهذه اللهجة أيتها الفتاة . . فلعلك لا تجهلين اننى مرغم على ركوب هذا المركب الخشن بدافع من الضرورة الملحة والعهود التى قطعتها على نفسى . ألا يمكن قتلها بالسم ؟ ألا يمكن اغراء أحد الخصيان على قتلها ؟ إن نفسى لتشمئز من ارتكاب هذه الجريمة المنكرة ، وشد ما يدهشنى أنك تتحدثين بمثل هذا الاستخفاف عن اغتيال المرأة التى أحبتك مهما كانت جرائمها وموبقاتها وقراً ثقيلا

— مرحى . مرحى . ما هذه الشفقة .. وهذا العطف . يا فرعون ؟ ! يخيل انك نسيت الغرض من طعنة خنجرك . اصغ إلى يا هارماكيس . . من واجبك أن تتم هذا العمل . . وتتمه وحدك . ولو كانت ذراعى قوية لما أحجمت عن اتمامه . أما قتلها بالسم فمستحيل . لأن كل قطرة تشربها . وكل لقمة تأكلها يتذوقها ثلاثة من الخدم قبلها . وهؤلاء لا يمكن اغراؤهم بحال . صحيح أن اثنين منهم أقسما لنا يمين الولاء . ولكن الثالث عنيد لم تلن قناته . ومن مصلحة قضيتنا المقدسة أن نقتله فى النهاية .

لقد استقر الرأى على أن تضرب ضربتك الحاسمة قبل منتصف ليلة الغد بساعتين .. إذ ترافقنى ، ومعنا خاتم الملك ، إلى غرفة الملكة الخارجية ،لان السفينة التى تحمل الأوامر إلى الجنود تبحر من الاسكندرية عند فجر الغد . وستقرأ مع كليوباترا أسرار النجوم . وأنتما منفردان . وذلك لرغبتها فى أن يبقى الأمر سراً . فعليك خلال انهما كذلك فى قراءة الأوراق أن تطعنها فى

ظهرها طعنة الحمام . . وحذار أن يخونك جنانك فى اللحظة الأخيرة . فاذا فرغت من عملك خذ الخاتم الملكى واخرج إلى حيث يقف الخصى ، ثم اقتله إذا لم يكن من ذلك بد ، وهنالك تلتقى بى لنذهب إلى يوليوس. وسأرغمه ومن معه على فتح الباب الجانبي . كى يدخل سيبا والخمسمائة جندى الذين معه ويفتكوا بالجنود وهم نيام . فالمهمة كما ترى هينة يا سيدى . . فثق بنفسك . ولا تدع مخاوف النساء تتسرب إلى قلبك . . ماذا تكون طعنة خنجر . ؟ إنها لا شيء . ومع ذلك فان مصير مصر بل ومصير العالم يتوقف عليها

فقلت : صه ! ! ماهذا ؟ ! انى أسمع صوتا . .

فهرولت شارميون الى الباب . . وأطلت فى الدهليز المعتم وهى ترهف السمع . ثم عادت ، وأصبعها على شفتيها . . وهمست قائلة :

— انها الملكة ! ! انها الملكة ترتقى الدرج وحدها . . سمعتها تأمر ايراس أن تتركها وحدها . . لا أريد أن ترانى منفردة بك فى مثل هذه الساعة . . فهى امرأة متوقدة الذهن ، وقد ترتاب فى الأمر ! لماذا جاءت الى هنا ؟ ! أين اختبيء ؟ !

تلفت حولى . . فوقع بصرى على مكان صغير محفور فى جدار الغرفة . . وقد أسدل عليه ستاران كثيفان . . وكنت أستخدمه لوضع أوراقى وآلات رصد النجوم . . فأشرت الى المكان . . وقلت للفتاة : هلمى الى هناك . .

فتسللت شارميون وراء الستائر . . وأما أنا فوضعت خنجرى فى ثنيات معطفى . . وتظاهرت بالانكباب على فك الرموز السرية . .

وسرعان ماسمعت حفيف ثياب نسائية . . أعقبه طرق خفيف على الباب فقلت : ادخل ...

ففتح الباب . . ودلفت كليوباترا بثيابها الملكية إلى الغرفة . . وكان شعرها الأسود المرسل يتماوج من حولها . . والثعبان الملكى يلمع ببريق يخطف الأبصار فوق رأسها . .

وجلست .. ثم تنهدت . . وقالت :

— ليت شعرى . . كم هو شاق تسلق الطريق إلى السماء . . بيد أننى

كنت قد اعتزمت ان أراك على انفراد

فأحنيت رأسى . . وقلت : هذا شرف عظيم وأيم الحق أيتها الملكة . .

— أحق ما تقول ! لم تبدو على وجهك الأسمر سماء الغضب ؟ إنك شاب جميل لا تصلح لهذه المهنة يا هارما كيس . . ما هـــذا ؟ أراك قد ألقيت إكليل الزهور الذى وهبتك إياه بين آلات مهنتك التى أكلها الصدأ !! لو حظى الملوك بهذا الشرف يا هارما كيس لاحتفظوا بهـذا الاكليل أبداً . . . ولضموه الى كنوزهم الثمينة . . وإما أنت فقد ألقيته جانباً كما لو كان شيئا تافها . . فأى رجل أنت ؟ ولكن مهلا . . ماهذا ؟ انه منديل امرأة ! ! هل لك أن تخبرنى كيف جاء هذا المنديل إلى هنا ؟ وهل المناديل النسائية جزء من آلاتك الفلكية ؟ ياللعار ! أترانى ضبطتك متلبسا ؟! ألا تكون فى الواقع ثعلبا ماكراً ؟ !

فقلت وأنا أنظر الى المنديل . وكان قد سقط من شارميون :

— لا أيتها الملكة . لست أدرى كيف جاء هذا المنديل إلى هنا . ربما سقط من احدى النساء اللاتى ينظفن الغرفة .

فقالت بخشونة . . وهى تضحك تلك الضحكة الرقيقة المألوفة :

— أحقا ! من دواعى فخرى أن تحمـل خادماتى مناديل من خالص الحرير . ولا أكاد أجد غضاضة فى أن ألفه حول عنقى . إذ يخيل أنى أعرفه وأحاطت به عنقها . واستطردت : قد يسوءك أن ترى منديل حبيبتك حول عنق الحقير . خذه يا هارما كيس . خذه واخفه فى صدرك ، فوق قلبك

فأخذت المنديل من يدها غاضبا . . وتمتمت ببضع كلمات تدل على السخط ثم تقدمت من الشرفة التى أرقب منها النجوم . وكورت المنديل . . وقذفت به الى الريح .

فقهقهت كليوباترا ضاحكة . وهتفت :

— ما عساها أن تقول لو اتفق ورأت رمز حبها يقذف هكذا إلى الريح ؟ آمل ألا تقذف يا كليـل زهورى كذلك . . انظر . ! لقد ذبلت الزهور ياهارما كيس . خذه . والقه للريح .

والتقطت الاكليل وقدمته إلىّ .

ثارت ثائرتى . وخيل إلىّ أن أعمل بمشورتها . . ولكنى تمالكت نفسى . وسلكت سبيل الحكمة . وقلت بلهجة رقيقة :

— لا . . انه هدية منك أيتها الملكة . . وسأحتفظ به .

وحانت منى التفاتة إلى الستارين اللذين تختفى شارميون خلفهما فرأيتهما يتحركان . . وا أسفاه . . شد ماندمت فيما بعد على هذه الكلمات ! !

وحدقت كليوباترا فى وجهى بنظرة غريبة . قالت :

— شكراً لك على هذا العطف ياملك الحب .. هلم بنا الى الشرفة لتحدثنى عن سر النجوم . إننى أحب دائما النجوم النقية المتلألئة . . وبودى لو أقمت هناك لأسبح فى أفق الليل البهيم . وأنسى احساسى الضعيف بنفسى عند ماأطيل النظر والتأمل فى هذا الفضاء اللانهائى الساكن . . من يدرى ياهارماكيس ؟ ربما كانت هذه النجوم جزء من كياننا . . فهل لك ياخادمى أن تشرح لى هذه الغرائب . فانى بحاجة الى الاستزادة من العلم والمعرفة

سرنى ان أدارت دفة الحديث الى هذا السبيل المأمون . بيد أننى دهشت قليلا لاهتمامها بالتعمق فى دراسة الفلك والاحاطة بالافكار الفلسفية العالية . . فرحت أحدثها مسروراً عما يجوز قوله .

واصغت الى كليوباترا باهتمام ولهفة . وراحت تحدق فى وجهى وأنا أحدثها بلغتى المصرية . . وأراقب النجوم فى نفس الوقت

وأخيراً قالت : آه . يخيل الىّ أنك لاتحب التكلم باللاتينية . على رسلك سأحدثك اذن بلغتك التى أحذقها . فأنا أول ملكة اغريقية تتكلم لغتكم .

وشرعت تتحدث بلغة مصر القديمة بلهجة أجنبية زادتها عذوبة . قالت :

— كفى حديثا عن النجوم ، وما لجأت الى طرق موضوعها إلا لأنه يروقك ، ويبعد عنك الكآبة والملل . ولكنى أقول ان هذه المهنة لاتليق بك ياهارماكيس . إنك لاتزال فى عنفوان الشباب ، وحرام أن تقبر نفسك فى هذا البرج الموحش . كم عمرك ياهارماكيس ؟

— إننى فى السادسة والعشرين من عمرى أيتها الملكة . فقد ولدت فى

الشهر الاول من (شومو) فى فصل الصيف . وفى اليوم الثالث من الشهر فهتفت :

— اذن فسننا واحدة . فقد ولدت فى ذات اليوم أيضا . ولعمرى انه من دواعى فخر آبائنا أن أنجبونا . فاذا كنت أنا أجمل امرأة فى مصر . فأنت يا هارما كيس أجمل وأقوى رجل فيها . . إن يوم مولدنا المشترك دليل على أننا خلقنا لنتآزر . فأعمل أنا بوصفى ملكة . وتعمل أنت معى لتثبيت دعائم عرشى . وهكذا يعمل كل منا لخير الآخر .

أطربنى حديثها . وصعد الدم إلى وجنتى . وأجبت :

— أو ربما ليعمل كل منا لشر الآخر .

— لا . لا تتحدث عن الشر . اجلس بجانبى يا هارما كيس . ولنتحدث كاصدقاء . لقد أغضبتك أثناء المأدبة . ولكنى لم أرد غير المزاح يا هارما كيس . والمزاح محبب . فشد ما يزعجنى هؤلاء الامراء والاشراف بغباوتهم . وأولئك الرومان المتعجرفون . المتصلبو الاعناق . انهم يتظاهرون أمامى بالولاء . فاذا ما انفردوا بأنفسهم سخروا منى . وقالوا إننى خادمة الحكومة الثلاثية الرومانية . أو خادمة امبراطوريتهم . أو جمهوريتهم ، حسب الظروف . لم يرتفع من بينهم رجل إلى القمة التى بلغها قيصر ، ذلك الرجل الذى لم يستطع العالم كله الوقوف فى وجهه . انهم أشبه بدمى الاطفال وقد رأيت من جانبي أن أوقع بينهم لتظل لى الغلبة وأنقذ مصر من براثنهم . ولكن ماذا كان جزائى ؟ لقد بات الجميع يتحدثون عنى سراً . ولست أجهل أن رعاياى يمقتوننى . . وأكبر ظنى أن بينهم من يود قتلى لو استطاع إلى ذلك سبيلا :

و كفت عن الكلام . وغطت وجهها بيديها . وقد أحسنت صنعا . اذ نفذت كلماتها إلى أعماق قلبي . ولم اتمالك من الانتفاض وأنا جالس بجانبها .

واستطردت بعد قليل :

— لست أجهل أنهم يحقدون علىّ . وينعتوننى بالبغى . مع انى لم احد عن طريق الشرف غير مرة واحدة . وكان ذلك عندما احببت أعظم رجل

فى العالم . لقــد التهبت شعلة هيامى عنــدما مسنى الحب . ولعمرى يخطئ السكندريون حين يعتقــدون اننى دسست السم لأخى بطليموس الذى أراد مجلس شيوخ روما أن يكرهنى على الزواج منه . ضــاربا صفحا عن قــوانين الطبيعة التى لا تبيح مثل هذا العمل الشــاذ . ومهما يــكن فانهم يشتطون فى حكمهم ضدى . منذ مات أخى متأثراً بمرض الحمى . نعم . انهم يظنون بى سوء ولعلك أنت أيضا تشاطرهم هذا الرأى يا هارما كيس .

وامسكت . ريثما تلتقط أنفاسها . ثم أردفت :

— تذكر ياهارما كيس ماهو الحسد قبل أن تصدر حكمك . . انه ذلك المرض العقلى الذى يعمى القلوب . . ويجعل عين الشفقة ترى كل شىء مشوها . . وتقرأ الشر على وجه الأبرار. وتجد الرجس فى أطهر عذراء .

وتذكر ياهارما كيس ان العظماء هم دائما وأبدا هدف لحسد الحاسدين . وطمع الطامعين. فاحكم ياهارما كيس ، كما تريد أن يحكم الناس عليك . ولا تنس أن الملكة ليست حرة فى تصرفاتها ، كن صديقى ومستشارى ياهارما كيس ، صديقى الذى اعتمد عليه ، فانى اشعر بوحشة بغيضة فى هذا القصر المكتظ ، لقد توسمت فيك الأمانة والاخلاص . ولست أرى مايحول دون ثقتى بك ، وسأرفع مكانتك ، فانى بحاجة الى شخص أجعله معين أسرارى ، ومستشارى الأمين .

وكفت عن الكلام هنيهة ، وراحت ترمقنى بعينيها النافذتين ، ثم سألت :

— والآن ياهارما كيس ، هل لك أن نكون صديقى ، انا التى لاصديق لها ؟

ومالت نحوى ، ولمستنى لمسا خفيفا ، وصوبت الى سهام عينيها الساحرتين فتبددت مقاومتى فى الحال .. وغلبت على أمرى . .

ورحت أفكر فى الليلة المقبلة ، فاعترانى الخجل والحزن .

أأكون أنا صديقها .. أنا الذى أخفى بين طيات ثيابى ذلك الخنجر الذى سأغتالها به ؟ !

وأطرقت . . وزفرت زفرة حرى .

ولكن كليوباترا ظنت انني رثيت لحالها ، فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت : ان الوقت متأخر الآن ، فلنرجىء الحديث إذن الى الليلة المقبلة ونهضت ، وقدمت الى يدها لالثمها ، فلثمتها ، وأنا لا أكاد أعى مافعلت وانصرفت . . وقد خلفتني منتصبا فى وسط الغرفة أحدق النظر وراءها كالحالم

الفصل السادس

غيرة شارميون

جمدت فى مكانى لا أتحول . . ولا اتحرك . . وقد استغرقت فى التفكير ..

ثم تناولت اكليل الزهور . . وأطلت النظر اليه .. ولا أدرى كم مكثت على هذه الحال . . بيد انى لم اكد أرفع عينى ، حتى رأيت شارميون واقفة أمامى ، وهى تطيل النظر إلى وجهى . .

ولاحظت ـ ولكنى مع الأسف لم أعر ذلك اهتماما كبيراً فى تلك اللحظة ـ ان وجه الفتاة تكسوه حمرة الغضب . . ثم لم تلبث أن ضربت الأرض بقدمها فى غيظ وحنق ...

فقلت : آه ! اهذه انت ياشارميون ! ! ماالذى يؤلمك ؟ هل آلمك الاختباء طويلا ؟ ! لماذا لم تتسللى من الغرفة خفية عندما قادتنى كليوترا إلى الشرفة ؟

فرمتنى الفتاة بنظرة غاضبة . . وأجابت :

— أين منديلى .؟ لقد سقط منى منديلى المزركش هنا

— منديلك ؟ آه ! ألم ترى ماحدث ؟ ! انى اضطررت إلى القائه من الشرفة .

— آه ! نعم . . لقد رأيتك وأنت تلقى به . . ولكنك لم تلق باكليل الزهور أيضاً لأنه هدية من ملكة . . ولقداحتفظت به ياهارمكيس

يانسل الملوك . وكاهن ايزيس . . ومختار الآلهة .. وفرعون مصر الذى توج ليعمل لنصرة أرض (خم) . . انك القيت منديلى ارضاء للملكة الجميلة . .

فعجبت للهجة الفتاة . . وسألتها : ماذا تعنين ؟

فدفعت الفتاة رأسها إلى الخلف بكبرياء .. وأجابت : ماذا اعنى ؟ اتريد أن تعرف ما اعنى يا ابن عمى . . ومولاى هرماكيس ؟ ! اذن فسأخبرك . .

واستطردت بلهجة حافة صارمة :

— انك على وشك التردى فى هاوية الشر المروع . . لقد القيت كليوباترا شباكها حولك . . ولا أحسبنى اغالى حين اقول انك كدت تقع فى شرك غرامها . . نعم ، كدت تقع فى حب المرأة التى يتحتم عليك أن تقتلها غداً !! تمهل ياهارماكيس ، وانعم النظر فى هذا الاكليل الذى تحمله . . الا كليل الذى لم تجرؤ على القائه وراء منديلى . . لأنه كان لها وهو لايزال معطراً من شعرها .. شعر محظية قيصر . . وغيره . .

. اخبرنى بحق الآلهة . . إلى أى حد وصلتما من سمركما فى تلك الشرفة ؟ ما انسبها من عش جميل جدير بالعشاق . اليس كذلك ؟ نعم . . وما أحلاها من ساعة أيضاً ؟ !

نطقت الفتاة بهذه الكلمات اللاذعة بهدوء عجيب ، وبلهجه رقيقة معتدلة ولكنها كانت تقطر حقداً وموجدة . فاستبد بى الغضب . وارتج على القول . ولم يسعفنى المنطق

وانتهزت الفتاة الفرصة ، فاسترسلت فى سخريتها . حتى ثارت ثائرتى . . وانطلق لسانى من عقاله . . فصحت بها : كيف تجرؤين على مخاطبتى بهذه اللهجة يا فتاتى ؟ الا تعلمين من أنا ؟! كيف سمحت لك نفسك بالسخرية منى ؟

فصاحت : إننى أهتم بتصرفاتك . وأما من أنت ! فلا شأن لى به .

فقاطعتها : ماذا تعنين ؟ هل أستحق اللوم إذا كانت الملكة ؟ ..!

— الملكة ..؟!

— إذا كانت كليوباترا قد شاءت أن تأتى إلى هنا ليلا . وتتحدث عن ..

— عن النجوم يا هارماكيس . نعم . عن النجوم والورد فقط .

جن جنوني . فانفجرت في وجهها مهدداً ، متوعداً . فانكمشت وتراجعت إلى الوراء مندعرة . ولكنها لم تلبث أن أخذت تبكي بحرقة . فخجلت من نفسي . وأمسكت عن الكلام . برغم الغضب الذي كان يعصف بين جنبي !

قالت الفتاة ، وهي تنتحب : يجب ألا تخاطبني بهذه اللهجة يا هارماكيس . . هذه قسوة منك لا تتفق ومبادىء الرجولة . آه ! معذرة . . فقد نسيت انك لست إلا كاهناً . لا رجلا . . اللهم إلا فيما يتعلق بكليوباترا

— بأي حق تفوهين بهذه الكلمات ؟! وماذا تعنين بها ؟

فرفعت الفتاة الي عينيها السوداوين . . فاذا هما محضلتان بالدموع . . التي لم تلبث ان انحدرت فوق وجنتيها الموردتين كما تنحدر قطرات الندى فوق زهر الزنبق ، ثم قالت :

— تسألني بأي حق أفوه بهذه الكلمات ؟ آه . . ياهارماكيس . ! هل أصبت بالعمى ؟ ! انني أخاطبك بأول وأقدس حق تملكه المرأة ! أخاطبك بحق الحب العظيم الذي أطويه لك بين جوانحي . الحب الذي تتعامى عنه ! نعم ! وبحق مجدي ، وعاري ! . آه ياهارماكيس ، لاتغضب ، ولا تستخف بي اذا كانت الحقيقة قد أعلنتها شفتاي قسراً في النهاية .

سأكون الفتاة التي تريدها ياهارما كيس ! انني كقطعة من الشمع اللين تستطيع أن تصورها كيف تشاء ، هذا اذا قبلت ان تكون لسفينتي ربانا . ومرشدا يا هارماكيس ، واما اذا فقدتك ، فسأفقد كل شيء يصدني عن الشر ، والهلاك ، ولا مفر من أن تتحطم سفينتي في النهاية .

انك لاتعرفني ياهارماكيس ، ولا يمكنك ان ترى روحي المتوقدة التي تضطرم بين جوانح هذا الجسم الضعيف ! ! بل لعلك تعتقد انني فتاة ماكرة عنيدة ، قليلة الخبرة ، ولكن مهلا ، فأنا أجل شأنا من ذلك ، فاذا كنت قد بلغت القمة في الحكمة والفلسفة . . ففي استطاعتي ان أبرهن لك على انني لست دوناك في هذا الميدان ، إن لم أزد

اننا من دم واحد ، وفى استطاعة الحب ان نزيل مابيننا من الفروق البسيطة . .

ان غايتنا واحدة ، فنحن نحب وطنا واحداً ، ويربطنا عهد واحد ، فافتح لى قلبك ياهارما كيس ، وأجلسنى بجانبك فوق عرش مصر المزدوج ، ارفعك وحق الآلهة الى السماك ، وإما اذا نبذتنى ، فاحذر أن أجذبك معى الى قرار سحيق . .

وأمسكت فى انتظار قرارى وقد عقدت ساعديها فوق صدرها ،وتقدمت نحوى خطوة ، ثم أخذت تحدق النظر الى وجهى ، وقد تغير لونها . . وأخذ جسمها ينتفض .

وأما أنا فقد جمدت فى مكانى واجماً . فقد أثر بى سحر صوتها . وقوة بيانها . وعنف لهجتها . ولم يساورنى الريب فى انه لو كانت فى قلبى ذرة من الحب لها . لأوقدت كلماتها هذه شعلة غرامى . ولكنى لم أكن كذلك . بل ولم استطع ان أحمل نفسى على حبها . أو التظاهر به على الأقل

وعجبت لأطوار الفتاة . ولم املك من الضحك.وتذكرت فى هذه اللحظة فقط، خشونتها وهى تضع أكليل الزهور فوق رأسى اثناء المأدبة والمنديل وكيف قذفت به الى الريح . فهززت كتفى استخفافا . وكان الأجدر بى أن أتدبر أمرى. فقد كانت هذه الضحكة أصل بلائى .

ازداد امتقاع وجه الفتاة إذ سمعت ضحكتى . . وبدت على وجهها علامات اليأس القاتل . . فأمسكت عن الضحك . . وانتظرت .

وأخيرا . . قالت الفتاة بصوت متحشرج . . وقد غضنت من بصرها :

— إذن فقد راقك قولى .. وجلب السرور الى نفسك

— لا . لا ياشارميون . أرجو المعذرة . فما ضحكت إلا يأسا وقنوطا .!!

انك تعرفين من أنا . . وما هى مهمتى . . وتعلمين أننى قطعت على نفسى العهد لايريس . . وان لا شأن لى بك طبقا للقوانين المقدسة .

فقاطعتنى قائلة : نعم . نعم . وأعلم أيضا أن عهودك ومواثيقك قد نقضت بالروح . وتلاشت كالسحب . لأنك تحب كليوباترا يا هارما كيس .

فهتفت : انك تكذبين أيتها الفتاة الشريرة ! انك تريدين اغرائى لأتحول عن واجبى المقدس ، وأرتدى ثوب الخزى والعار ! ! إن العاطفة ، أو الطمع ، أو حب الشر ! تدفعك الى سلوك هذا السبيل الوعر

أتريدين أن أجيبك بصراحة على سؤالك الصريح ؟ ! انك لا تهمينى فى شىء خارج نطاق الواجب الذى أعمل على اتمامه . واعلمى أن نظراتك الرقيقة لاتهز مشاعرى . ولا تزيد ضربات قلبى ! ! بل انك لا تكادين تكونين صديقتى . لأننى لا أثق بك كثيراً . ومهما يكن ، فانى أحذرك من ارتكاب ما قد يتعارض مع قضيتنا . وإلا فموتا تموتين . والآن ، هل انتهت الرواية ؟

تراجعت الفتاة إلى الوراء . إلى أن أصطدمت بالجدار . وغطت عينيها بيديها . ولكنها لم تلبث أن رفعتهما . ورمقتنى بعينين يرسلان شواظاً من اللهب . ثم أجابت بلهجة رقيقة :

— لا . . لم تنته بعد . . صحيح . انى رميت (الزهر) فخسرت . . والويل للمغلوب . ! هل لك أن تعطينى ذلك الخنجر الذى تخفيه بين طيات ثيابك لكى اضع حداً لذلى وعارى فى التو واللحظة ؟ ! لا . ! ! إذن اسمع منى كلمة أخرى أيها الملك هارما كيس : إذا استطعت أن تنسى حماقتى فلا تخش شرى . فأنا لا ازال الى الآن ، كما كنت فيما مضى ، خادمتك وخادمة قضيتنا المقدسة . الى اللقاء .

وزايلت الغرفة وهي تستند إلى الجدار .

وأما أنا فانطلقت الى غرفتى . وألقيت نفسى فوق الفراش . . وجعلت أتأوه ألما وكمداً .

وأخيرا .. غلبنى النعاس ، فرحت فى سبات عميق

ولما استيقظت كان النهار قد طلع .. وتسرب الضوء إلى الغرفة . . وسمعت تغريد الطيور فوق أفنان الأشجار .

كان قلبى مثقلا بالهموم والأحزان . . وتذكرت ألا بد أن الوث يدى بالدماء فى منتصف الليل .. دماء كليوباترا التى وثقت بى واتخذتنى صديقا لها

وشعرت بالنفور والاشمئزاز من هذا العمل البغيض . . وتمنيت لو أتنازل عن حقى الموروث لكى اعفى من ارتكابه . . ولكن واأسفاه ! . لامفر ، ولا مناص !

وابتهلت إلى الأم ايزيس .. ولكنى لم أسمع جوابا على توسلاتى . فسقط فى يدى .. وتساءلت : ترى ما الذى فصم الرابطة التى كانت تربطنى بها حتى أنها لم تستجب لنداء ابنها المختار ؟ ! هل يمكن أن أكون قد شططت ؟ ! قالت شارميون . اننى أحب كليوباترا ؟ فهل هذا صحيح ؟ ! لا . . لا . ان هى إلا ثورة الطبيعة ضد كل عمل ينطوى على الغدر . . لقد أرادت الآلهة أن تجرب قوتى .. ولعلها هى أيضا تأنف من رؤية الدماء .

وجاء العصر .. فذهبت للقاء خالى سيبا فى منزله . . وهناك وجدت قواد المؤامرة مجتمعين سراً . وكانوا سبعة .

واد دخلت عليهم . اقفلت الأبواب . وأحكم اغلاقها . . ثم ركعوا أمامى وصاحوا : السلام يافرعون !

فامرتهم بالنهوض . وقلت اننى لم أصبح بعد فرعونا

فقال خالى سيبا : هذا صحيح أيها الأمير .. ولكنك لن تلبث أن تكونه فتشجع ..فلا شىء يعترض الآن سبيل الفوز .

انظر .. هاهي القوائم الأخيرة .. لقد أقسم واحد وثلاثون الف رجل على التمرد ، على أثر وصول الأنباء اليهم . ولعمرى . لن تنصرم خمسة أيام حتى تسقط جميع القلاع والحصون فى أيدينا . . ولا يبقى أمامنا مانهابه أو نخشاه .. فروما مغلولة اليدين . . ولها من مشاكلها الداخلية ما يصرفها عن قمع حركة الثورة فى مصر .. ثم اننا سنعقد تحالفا مع أعضاء الحكومة الثلاثية وإذا أرغمتنا الظروف ، رشوناهم بالمال .

وقد تحدث اضطرابات ومؤامرات أخرى فى الاسكندرية لتتويج ارسنوى شقيقة كليوباترا . ولكننا لن نمكن المتآمرين من الفوز ببغيتهم . فسنضرب على أيدى أهل المدينة بيد من حديد . وأما أرسنوى فسيغتالها من سيسافرون غداً على أثر مصرع كليوباترا

فقلت : ولـكن هنـاك الغلام قيصرون . فقد تطالب روما بحق الصبي . وفي ذلك من الخطر ما فيه .

ـــ لا تخف . فسيلحق قيصرون غداً بأبيه وأمه في (مطهر الأرواح) لقد أعد كل شيء لاستئصال شأفة البطالسة من مصر إلى الأبد

فسألته بحزن : أما من سبيل آخر للاصول إلى أهدافنـا المقدسة ؟ إن قلبي يجزع ويتألم من سفك الدماء

فأجابني خالي بلهجة جدية :

ـــ لا . لا تجعل رقة قلبك تصرفك عن واجبك المقدس . يجب القضاء على كليوباترا وابنها خشية أن يشب الابن أسداً ضاريا فيمزقك . ويقذف بك من فوق عرشك

فتنهدت . وأجبت : على رسلك ياخالي . حدثني الآن بخطتك ؟

وقضينا فترة طويلة نتشاور في الأمر . إلى أن شعرت في النهاية بشيء من حماستي القديمة يتسرب إلى قلبي . واتفقنا على انه إذا لم يتيسر لي قتل كليوباترا الليـلة . فان الدسيسة تؤجل إلى الغد . ولـكن لا أكثر . لأن هذا العمل هو الاشارة المتفق عليها لايقاد نار الفتنة .

وانصرفت . وكان ذلك آخر عهدي بخالي .. فلم أره بعد ذلك

وانطلقت إلى الميناء لأروح عن نفسى . وهنـاك وقع بصرى على سفينة قادمة من النيل . وقد أخذ ركابها يهبطون إلى البر . فوقفت أرقبهم هنيهة .

وفجأة . سمعت صوتاً أعرفه . يقول :

— انظرو ! انظروا ! ما أعظم هذه المدينـة . . كيف تجىء عجوز مثلى الى هذه المدينـة الرائعة طلبا للرزق ؟ اذهب أيها الوغـد ودع سـلة عقاقيرى وشأنها .

فدرت على عقبى . . فاذا بى وجها لوجه أمام مربيتى (أتوّا)

واضطربت المرأة . . ولـكنها لم تلبث أن رسمت الاشارة السرية . . وهمست :

— لقد أتيتك رسالة من أبيك امينمحعت أيها الأمير هارما كيس

فسألتها : وهل هو بخير .

— نعم . . ولـكنه يلاقى عذابا ألما فى انتظار الساعة الرهيبة .

— وما رسالته ؟

— ان تحذر خطرا عظيما يتهددك : . وهذه كلماته : « كن ثابتا تظفر »

فاحنيت رأسى . . وتولانى الفزع .

وسألت المرأة : متى تنفذ المهمة؟.

فاجبت : هذه الليلة .

— اذن ادع من يذهب بى الى منزل الـكاهن سيبا .

فعلت . . وانطلقت لشأنى وأنا أردد نصيحة أبى

الفصل السابع

قتل هارما كيس

حانت الساعة أخيراً . . فانفردت فى غرفتى . فى انتظار شارميون . . ورحت أطيل النظر الى خنجرى الذى سأدفنه فى صدر كليوباترا . . وكان خنجرا طويلا حادا . . صنعت يده من الذهب الخالص على شكل أبى الهول وفتح الباب بهدوء . . ودخلت شارميون . . وعلى وجهها علامات

الكآبة والانقباض .

ثم قالت : أيها الملك هارما كيس . . ان كليوباترا تنتظرك

غاص قلبى بين جنبى . وسألتها : وهل أعد كل شيء ياشارميون ؟ .

— نعم ياسيدى . . ان يوليوس يترنح من كثرة ماتجرع من خمر . . وهو يحرس الأبواب . وقد سحب الحصيان عدا واحداً . وآوى الجنود إلى ثكناتهم . وأما خالى سيناً فيختبىء مع رجاله خارج الأسوار .

— حسنا . . هلمى بنا .

ونهضت . وأخفيت الخنجر فى صدرى . وقالت شارميون :

— كلمة أخرى ايها الملك . . فما زال فى الوقت متسع للحديث .. أمس . آه ! . أمس ! . (وارتفع صدرها وهبط) . رأيت أمس حلماً ما زال يزعجنى . ولعلك رأيت مايماثله ياسيدى . ألم يكن كل ماحدث بيننا حلما ؟ !

— نعم .. نعم . . لماذا تزعجيننى بالحديث فى هذه الأمور الآن ؟

— لست أدرى . . ولكن ثق ياهارما كيس ان القدر أعد الليلة عدته لعمل حاسم . ومن المحتمل أن أذهب ضحية هذا العمل . أو تذهب أنت . . أو نذهب معاً . . فاذا قدر أن يحدث ذلك ، فاننى أريد أن أسمع منك الآن ان ماجرى بيننا لم يكن الا حلماً . وان الحلم قابل للنسيان .

فقلت بضجر :

— نعم . فكل شيء فى هذا العالم مجرد حلم . وحتى هذه الليلة المروعة . وهذا الخنجر المرهف النصل ليست إلا أحلاما . ولكن ماذا ترانا نشاهد يوم اليقظة ؟ .

— هاقد شاركتنى أفكارى أيها الملك هارما كيس . فكما تقول ، اننا نحلم .. ولكن الرؤى تتغير بتغير الأفكار والمسببات.. ولكنى أتساءل . هل كانت تلك الرؤيا التى رأيناها ليلة أمس . وقد ظهرت أمامك فيها بثوب الذل والعار . فما كان منك إلا أن سخرت من ذلى وعارى . . أقول هل هذه الرؤيا خيالية ثابتة ؟ وهلا يمكن أن تتغير أو تتبدل ؟

فاجبت : لا ياشارميون . يؤسفنى ان آلمتك . ولكن لم يطرأ على الرؤيا

أى تغيير أو تبديل . وقد افصحت لك عما يكنه قلبى نحوك . . فانت ابنة عمى وصديقى ولا شىء أكثر من ذلك .

— حسنا .. حسنا جداً .. لننس كل شيء .. ولننتقل إلى حلم آخر .

ثم ابتسمت ابتسامة مروعة . . هى ابتسامة الجزع والألم . . ولا عجب فقد ماتت مع هذه الابتسامة سعادة شارميون المصرية . وضاع أملها فى الحب وتكسرت القيود التى تربطها بالواجب المقدس . ونقضت عهودها . وانقلبت امرأة شريرة . نبذت وطنها .. وتنكرت لآلهتها . نعم . كانت هذه الابتسامة نقطة التحول فى مجرى التاريخ . . فلو لم يشأ القدر أن أرى هذه الابتسامة على شفق شارميون .. لما سيطر اكتافيوس على العالم .. ولنالت مصر حريتها ومجدها .

ومع ذلك . فلم تكن الا ابتسامة امرأة !!

سألتها : لم تبدين فى هذه الهيئة الغريبة ايتها الفتاة ؟

— اننا نبتسم فى الاحلام .. ها قد حان الموعد فهلم بنا . وكن ثابتا تظهر ايها الملك هارماكيس

وأخذت يدى ولثمتها . ثم تحولت . وسارت أمامى .

ووصلنا إلى (قاعة المرمر) . فتريثنا . اذ كانت غرفه كليوباترا الخاصة وراء هذه القاعة . وهى الغرفة عينها التى رأيت كليوباترا نائمة فيها لأول مرة

وقالت شارميون : انتظر هنا . ريثما انبىء كليوباترا بقدومك .

وما هى الا لحظات حتى عادت الفتاة ، وهي مطرقة الرأس . . تمشى بخطوات ثقيلة . . ثم قالت : ان كليوباترا فى انتظارك . فاذهب اليها .

فسألتها بصوت متهدج :

— وأين أراك بعد أن افرغ من ارتكاب الجريمة المروعة ؟

— هنا .. ومن ثم نذهب معا إلى يوليوس ..

فذهبت . ولم اكد أبلغ الستائر . . حتى أدرت وجهى الى الخلف . . فرأيت منظرا غريبا .

كانت شارميون واقفة فى منتصف القاعة .. وقد دفعت رأسها إلى الوراء

وبسطت ذراعيها كأنما تريد أن تمسك بهما شيئا . . بينا انعكست على صفحة وجهها امارات العذاب النفسانى المروّع .

ولا عجب .. فقد كانت تعتقد انى ، أنا حبيبها ، سائر إلى حتفى . . وأن هذا وداعنا الأخير !!

ونفذت إلى الغرفة . وكان أول ما وقع عليه بصرى كليوباترا وهي مضطجعة فوق فراشها الوثير .ترتدى ثيابا بيضاء تشف عن مفاتن جسمها البديع . وكانت تحمل فى يدها مروحة من ريش النعام مرصعة باللآلىء . تروح بها على وجهها برفق . فى حين كان إلى جانبها عودها العاجى . ونضد صغير عليه بعض الفواكه . وزجاجة من الخمر المعتقة

تقدمت من (اعجوبة العالم) وأنا ذاهل مضطرب . فما رأيت كليوباترا من قبل فى حلة من الجمال تحاكى الحلة الرائعة التى كانت ترتديها فى تلك الليلة المروعة .

وهذه هى المرأة التى فرض على أن أغتالها بعد قليل ! !

ولم تكترث كليوباترا بدخولى . وظلت مضطجعة فوق فراشها . . وهى تروح بمروحتها فى شىء من الملل والسآمة

وأخيراً وقفت قبالتها . . فرفعت عينيها إلىّ . . وضغطت مروحتها فوق صدرها . كأنما أرادت أن تخفى جماله الفتان . ثم قالت بصوت حنون :

— آه ! أهذا أنت أيها الصديق ؟ ! لقد أحسنت بالقدوم . فقد بدأت أمل الوحدة .. اجلس يا هارماكيس

وأشارت بمروحتها إلى مقعد على مقربة من قدميها . فأحنيت رأسى . ثم جلست . وقلت : لقد سجلت ما رأيته من أسرار النجوم عملا برغبة الملكة . فاذا تنازلت جلالتك شرحتها لك

ونهضت لأدور حول فراشها . . وأطعنها من الخلف وهى منهمكة فى المطالعة . بيد انها استوقفتنى برفق . وقالت باسمة :

— مهلا يا هارماكيس . اجلس مكانك . . واعطنى الاوراق . . ان وجهك الليلة مليح تجذبنى إلى التحديق فيه قوة خفية

ولم يكن ثمة مناص من الطاعة . فقدمت لها أوراق البردى . وقد قررت فى نفسى أن أهاجمها فجأة وهى تقرأ . ثم أغيب خنجرى فى صدرها

وتظاهرت كليوباترا بالقراءة . ولكننى رأيتها تحدق إلىّ النظر من فوق حافة الورقة ولم تلبث أن قالت :

— لماذا تضع يدك فوق صدرك ؟ هل تحرك قلبك ؟

كانت يدى على مقبض الخنجر . وأجبت : نعم أيتها الملكة . انه يخفق بشدة .

فلاذت بالصمت . . ثم تظاهرت بالقراءة مرة أخرى . . ولكنها كانت ترقبنى خلسة .

تساءلت : هل ألقى نفسى فوقها الآن . ؟ ألا يجوز أن ترانى وأنا أهم بالوثوب عليها .. فتصرخ . وتقاوم ؟ لا . لا . من سخف الرأى أن أتعجل واذن فلأنتظر حتى تسنح فرصة أخرى .

قالت كليوباترا وهى تلقى بالاوراق فوق المنضدة :

— لقد سئمت قراءة النجوم . واستكناه أسرارها .

ثم أمسكت قليلا . ورمقتنى بنظرة غريبة . ثم أردفت :

— لندع القراءة الآن . ولنبحث عما يطربنا . ويشرح صدورنا . . ترى ماذا نفعل ؟ فى وسعى أن أرقص . . فأنا راقصة بارعة . ولكن ذلك العمل يتعارض مع هيبة الملوك . إذن فلأغن

والتقطت العود . وأخذت تلعب بأناملها الرقيقة على اوتاره . وسرعان ما ارتفع صوتها بانغام رقيقة مشجية .

وقد نفذ صوتها الحنون الى أعماق قلبى . فلم أتمالك من التحديق فى وجهها باعجاب وطرب .

وأخيرا كفت عن الغناء . وتلاشى صدى صوتها الشجى . . ولكنه أخذ يدوى فى قلبى . فما سمعت قبل اليوم صوتا أرق ، وأعذب من صوت كليوباترا الحنون .

وفجأة ، انبعثت واقفة . ومدت ذراعيها نحوى . . وعيناها

الساحرتان ترمقانني بنظرة قاهرة متسلطة

ولـكني تذكرت واجبي . فتمالـكت زمام نفسي .. وقالت كليوباترا :

— اليست لديك كلمة شـكر تقدمها الىّ على غنائى الحقير ؟

فاجبتها بصوت خافت . متهدج :

— نعم أيتها الملـكة . . أقول لك الحق إن غناءك أخذ بمجامع قلبى .

فابتسمت برقة . وقالت :

— لا . . لاتخش شيئا ياهارما كيس . فلست أجهل أفـكارك البعيدة عن جمال النساء وسحرهن . وما تتمتع به من منعـة لاتتوفر لأبناء جنسك . . ولـكن مهما يكن . . فلا ضرر من اللعب بالحديد البارد .

فاثرت الصمت . ووضعت يدى المرتجفة فوق قبضـة الخنجر . ورحت أبحث عن وسيلة تمـكننى من قتلها قبل أن أفقد شعورى .

واستطردت كليوباترا بذلك الصوت الحنون :

— ادن منى ياهارما كيس . بل تعال واجلس بجانبي . ولنتحدث معا ، فان لدى كلاما كثيرا أريد أن أقوله لك .

وأفسحت لى مكانا بجانبها فوق الأريكة . فنهضت وأنا أظن ان الفرصة قد حانت لاغتيالها . وجلست بجانبها . وكانت مائلة الى الوراء . تنظر إلى بعينيها الناعستين

كان عنقها وصدرها عاريين . فأدركت أن هذه أنسب فرصة لاتمام ذلك العمل البغيض الذى آليته على نفسى . ومن ثم رفعت يدى مرة أخرى لأقبض على خنجرى . . بيـد أنها أسرعت ، وقبضت على راحتى بلطف . . وأبقتها فى يدها .

ثم قالت : أرى على وجهك سيماء التألم يا هارما كيس . فهل تشكو مرضاً ياصديقى ؟

فأجبت لاهثاً : نعم . . أشعر بألم شديد ! !

- فقالت ، وهى لاتزال قابضة على راحتى .

— اذن اضطجع فوق الأريكة . واسترح . ستذهب نوبة الألم سريعا .

ولا ريب انها كانت نتيجة السهر الطويل ومراقبة النجوم . ما أرق نسيم الليل العليل الذى يهب من تلك النافذة حاملا شذى الزهور . اصغ الى همس البحر . وصوت أمواهه وهى ترتطم بالصخور ، استمع الى تغريد البلابل الذى يأخذ بمجامع القلوب ! ! ليت شعرى . . ماأجمل الليل ، وأعذب موسيقى الطبيعة الشادية . اصغ إلى ياهارما كيس . لقد خمنت شيئا عنك . وخرجت من تفكيرى بأنك أيضاً من سلالة الملوك ، وان الدم الذى يتدفق فى عروقك ليس دما وضيعا ، ماذا ! اتنظر الى الرمز المنقوش على صدرى ؟ لقد رسم اجلالا لاوزوريس الذى أعبده كما تعبده أنت ياهارما كيس ! . انتظر ! .

فحاولت النهوض . ! ولكنى فشلت . . فقد خارت قواى . . واستولى على الضعف .

وتأوهت . . وقلت : دعينى انصرف .

— لا . . لم يحن الوقت بعد . . انك لا ترضى أن تتركنى الآن وحيدة ! اخبرنى ياهارما كيس .. الم يغز الحب قلبك من قبل ؟

— لا . . لا . . ايتها الملكة . . مالى والحب . . لا شأن لى به . دعينى اذهب . . فقد خارت قواى . . وأخذ منى الضعف كل مأخذ .

— ألم تذق طعم الحب ؟ هذا أمر غريب ولا ريب ! اذن مامعنى الحياة بالنسبة اليك ياهارما كيس؟.

وأخذت تقترب منى شيئا فشيئا . . الى أن طوقت عنقى بذراعها البضة ، وتنهدت ، ثم صوبت الى نظرة متسلطة من عينيها الزرقاوين العميقى الغور وابتسمت . تلك الابتسامة العذبة الرقيقة .

جعلت تدنو منى . . وقوامها البديع ينثنى . . الى أن لفحت انفاسها العاطرة وجهى . . ثم التقت شفاهنا

ويل لى أنا الشقى !

نسيت بهذه القبلة التى كنت أرجو ان تكون سهم الموت، انزيس. ورجائى فى السماء . . واعمانى وشرفى . . وبلادى . . واصدقائى . . بل نسيت كل شىء فى الدنيا .

نعم . . نسيت كل شيء . . ولم أحس غير أن صدر كليوباترا الفاتن يعلو ويهبط فوق صدري . . وهي تدعوني بسيدها . وحبيبها .

وتنهدت كليوباترا .. وقالت :

— عاهدني الآن على الحب . . واشرب هذه الكأس عربونا له

فتناولت الكأس . . وجرعت محتوياته حتى الثمالة . . وسرعان ما أدركت — ولكن بعد فوات الأوان — ان السائل الذي شربته مخدر .

وسقطت فوق الاريكة . . وبرغم أنني كنت أعي كل شيء . . فانني لم أتمكن من الكلام . أو التحرك .

وانحنت كليوباترا فوقي . وأخرجت الخنجر من صدري . ثم دفنت شعرها إلى الوراء . وهتفت :

— لقد انتصرت !! نعم . انتصرت . انتصرت من أجل مصر . لقد أردت إذن أيها الملك المنافس أن تفتك بي بهذا الخنجر . ها . ها . اعلم ان جيشك يحتشد الآن خارج أبواب قصري ! أما زلت مستيقظا ؟ ! لا شيء يمنعني الآن من أن أدفن هذا الخنجر في صدرك

تألمت فأشرت إلى صدري كي تنفذ وعيدها . فما كنت أتمنى غير الموت . ولكنها استوت واقفة . ورفعت يدها بالخنجر ثم هوت به إلى أن وخز سنه لحمي . ولكنها قذفت به في عرض الغرفة . وهتفت :

— لا . اني أحبك . ومن القسوة أن أقتلك ! لقد رددت عليك حياتك فعش يا فرعون الضائع الساقط الذي انتصر عليك دهاء المرأة ! ! عش يا هارما كيس لتحتفل بفوزي وظفري !!

وضحكت ثم فقدت شعوري على الأثر

الفصل الثامن

يقظة هارما كيس

عند ما أفقت من نومي ، الفيتني ممداً في غرفتي . فانبعثت واقفاً في حركة سريعة . ولم تساورني الريبة في انني كنت أحلم . نعم ، لا يمكن أن يكون

ما رأيته غير حلم! لعمرى كم هو عزيز على نفسى أن أصحو من نومى،لأعرف اننى خنت بلادى . وأضعت الفرصة الذهبية . وغدرت برفاقى . ومساعدى

أواه ! ما أروع الحلم الذى رأيته !! لا ريب أن حلماً آخر يماثله يقضى على أشجع الرجال . ولـكن بفرض أن ما رأيته كان أوهاما صورها لى عقلى المضطرب ، فأين أنا الآن ؟! أين أنا ؟! كان يجب أن أكون فى قاعة المرمر فى انتظار عودة شارميون

أين أنا ؟ ؟ وأنت أيتها الآلهة ! ! ما هـذا الشىء المخيف الذى له شـكل انسان ؟ هذا الشىء الملفوف فى ثوب أبيض ملطخ بالدماء ، وقد وضع بحالة مروعة عند طرف الفراش الذى كنت نائما عليه ؟ !

وثبت كالليث . وصرخت صرخة داوية ثم لطمت ذلك الشىء بكل قوتى فتدحرج (الشىء) .

وتملـكنى الذعر . فانقضضت على الغطاء الأبيض ، ومزقته . فاذا بى أرى جثة رجل ربطت ركبتاه الى فـكه المدلى .

ولم يكن هذا الرجل غير الضابط يوليوس الرومانى .

ومن جرح فى صـدره كان الدم ينزف بغزارة . وخنجرى مدفون فى صدره . بينا تدلت من عنقه ورقة كتب عليها بالرومانية :

(تحيتى يا هارما كيس !أنا يوليوس الرومانى الذى أغريته . فانظر عاقبة الخونة المارقين)

ترنحت الى الوراء . وقد خارت قواى من هول ما رأيت . . وأدركت فى هذه اللحظة أننى لم أكن حالما . وانى فشلت ! وهلـكت !

وتذكرت أنى أمينمحعت . وتمثلت أمامى هيئته ، وقد جاءوا ينبئونه بما لحق ابنه من العار وضياع الآمال . وتذكرت خالى سيبا ، وتمثلته واقفاً مع رجاله خارج الاسوار طول الليـل فى انتظار الاشـارة التى لم تأت . . ترى ماذا حل بهم ؟

وحاولت أن أقنع نفسى بأننى لم أكن خائنـاً وحدى . فقد خدعت أنا أيضا . . ولـكن ترى من خدعنى ؟ ربمـا كان يوليوس . .

وتحسست القوائم السرية التى كانت فى جيبى .. ولكنى لم أجد لها أثرا .

أواه ؟ لقد هلك رفاقى أيضا ! !

أصابنى الدوار لهذه الفكرة المؤلمة .. فسقطت فاقد الشعور . . وعندما تنبهت من اغمائى ، أدركت من ظل الشمس الطويل أن الوقت بعد الظهر . فقمت وأنا اترنح . . وكانت جثة الضابط يوليوس لا تزال ملقاة عند طرف الفراش .

واندفعت صوب الباب،واليأس يمزق قلبى . ولكنى الفيته موصداً باحكام وسمعت صوت الحراس فى الخارج . . وأيقنت انهم يصوبون أسنة رماحهم نحو الباب ..

ومضت فتره ليست بالقصيرة . وفتح باب الغرفة . . ودخلت كليوباترا المنتصرة بثيابها الملكية الفاخرة .

ثم أغلق الباب وراءها .

جمدت فى مكانى .. ولم أدر ماذا أفعل . . وتقدمت كليوباترا منى . . الى أن وقفت قبالتى .. ثم قالت وهى تبتسم برفق :

— السلام لك يا هارما كيس . أرى رسولى قد عثر عليك (وأشارت إلى جثة يوليوس) ما أروع شكله !. أيها الحراس !

ففتح الباب فى الثو . ودخل حارسان مدججان بالسلاح .

فقالت كليوباترا : احملا هذه الجثة . والقيا بها إلى الطيور . لكن مهلا اخرجا هذا الخنجر من صدر الخائن أولا

فامتثل الرجلان ووضعا الخنجر فوق المنضدة . وهو يقطر دما . ثم حملا الجثة . وخرجا بها وهما يترنحان . ثم شرعا يهبطان الدرج .

وإذ تلاشى وقع أقدامهما . قالت كليوباترا :

— أظن أنك فى حالة سيئة يا هارما كيس . اما أعجب تصرفات القدر لقد كاد يصيبنى ما أصاب ذلك الخائن يوليوس . وكادت هذه الدماء التى تقطر من الخنجر أن تكون دمى .

فتبلجت الحقيقة أمام عينى . وأدركت أن يوليوس هـو الذى وشى بى واستطردت كليوباترا : نعم . كنت أعـلم أنك قادم لاغتيالى أمس . ولم يخف عنى أنك تقبض على مقبض خنجرك كلما رفعت يدك إلى صدرك . وأنك تستجمع قواك لترتكب تلك الجريمـــة المروعة التى لم تكن شديد الميل لارتكابها . آه ! كم كانتَ ساعة رهيبة ! ولست أكتمك أنى طالما تساءلت لمن تكون الغلبة . أنت ام أنا . فكلانا كان يحارب صاحبه بسلاح المكر . والخداع . والقوة .

نعم . إن رجال الحرس خارج غرفتك . ولكن لاتوجس شراً . فلولا علمى بأننى اقيدك بقيود أقوى من السلاسل والاصفـاد . وأننى أحتمى من شرك بسياج من الشرف يصعب عليك اجتيازه أكثر من تخطى رماح جميع جيوشى وحراسى . أقول لولا اننى واثقـة من ذلك كله . لكنت الآن فى عداد الاموات .

انظر . هوذا خنجرك .

ثم دفعت الخنجر إلىّ . و كشفت عن صدرهـــا . وعنقها . . واستطردت :

— اقتلنى إذا استطعت .

وراحت ترمقنى بعينين ملؤهما الطمأنينة والهدوء . واستتلت :

— انك لا تستطيع قتلى .. فثمة أشياء لا يستطيع انسان مثلك أن يعملها ويعيش .. ومن أهم هذه الأشياء أن يقتل الرجل المرأة التى هى له . . لا .. لاتحول سن الخنجر الى صدرك . لأنك ان لم ترد قتلى . . فاحرى بك الا تقتل نفسك ياكاهن ايزيس . وناكث عهدها ! هل تتوق الى مواجهة ذاك الجلال الذى انتهكت حرمته فى (امنتى) ؟ بأية عين تظن أن (الأم) تنظر إلى ابنها الذى جاء ليرفع اليها فروض الولاء وهو يرتدى ثوب الخزى والعار . بعد أن حنث باقدس الايمان . ثم تخاذل فى النهاية وقتل نفسه ! ! أين تجد المغفرة ياصديق إذا رغبت فى التوبة ؟ !

كاد قلبى يتمزق من فرط الاسى والألم . فقد نطقت كليوباترا بالصدق ..

ولم أجد فى نفسى الشجاعة على الانتحار ! ! نعم .. وجدت نفسى فى مأزق لا اجرؤ فيه حتى على الموت .

فتهالكت فوق الفراش .. وبكيت .

بكيت بدموع الألم . والحسرة . بيد أن كليوباترا دنت منى . . وجلست تحانى . وحاولت أن تعزينى ، وتسرى عنى . فطوقت عنقى بذراعيها . . وقالت : لا ياعزيزى . انظر إلىّ ! ! انك لم تفقد كل شىء . فأنا لست ناقمة عليك فكلانا قام بدوره خير قيام ، ولكنى قاومت سحرك بسحرى النسائى فانتصرت فى النهاية .

لست ألومك فى الواقع على الجهود التى بذلتها لاستعادة العرش الذى استولى عليه آبائى . ولو كنت مكانك لفعلت ما فعلت . ولما ترددت فى الاقدام على العمل الرهيب الذى أقسمت أن تتمه .

نعم يا هارما كيس . اننى أعطف عليك من هذه الناحية، عطفى على كل عمل عظيم يدل على الجرأة والبسالة . ولست ألومك على حزنك لما أصابك من فشل . ومن هنا كان عطفى عليك كامرأة ، امرأة والهة

قليلون من يعرفون حقيقة عواطفى وميولى . ليس فى مصر كلها من يخفق قلبه بحب مصر مثلما يخفق قلبى . . حتى ولا قلبك ياهارما كيس . . ولكنى مغلولة اليدين بسبب الحسد والغيرة والبغضاء . حتى صرفتنى عن العمل لرفاهيتها .

ولكنك ستدلنى كيف أعمل لسعادة مصر . . لأنك ستكون مستشارى وحبيبى . هل تظن أنه من الهين أن تأسر قلب كليوباترا . . ذلك القلب الذى أردت أن تسكته إلى الأبد بطعنة من خنجرك ؟ . نعم ستكون أنت حلقة الاتصال بينى وبين شعبى ياهارما كيس . . وسنحكم معا . . ونربط بين المملكتين الحديثة والقديمة . . ونعمل على تحسين حال الفلاح . . وتصعد أنت الى عرش فرعون من سبيل سهل . شريف .

اصغ الى يا هارما كيس . . سأعمل على ستر خيانتك بقدر المستطاع . . صحيح اننى اطلعت على وثائقك السرية وأمرت بتشتيت المتآمرين . ولكننى

سأحاول جهد طاقتى أن أعفو عنهم من أجلك

• فرفعت رأسى .. وسألتها : وماذا أصاب الذين معى . . أولئك الذين وضعوا ثقتهم فىّ ؟

فنهضت . ووضعت يدها فوق ذراعى . ثم قالت :

— قلت لك إننى سأعفو عنهم من أجلك . . واقسم بعرشى . وبجميع آلهة مصر الا أمسس شعرة واحدة من رأس أبيك امينمحعت . . وإذا لم تكن الفرصة قد ضاعت فسأعفو أيضا عن خالك سيبا ومن كانوا معه . . فهل أنا امرأة قاسية كما يدعون ياهارما كيس ؟ ! ان فى قوائمك أسماء قوم يستحقون الموت ،ولكنى لن أنكل بهم .

وضحكت ثم استطردت : ولكنى لن أمنحك ذلك كله بدون مقابل . . عليك أن تشترى ذلك منى .. وأما الثمن فباهظ جداً .. انه قبلة ياهارما كيس

فاجفلت وأشحت بوجهى عنها . وأنا أقول :

— لا . هذا ثمن باهظ .. لن أقبل أحدا بعد الآن

فعبست . وقالت : فكر فى الأمر . واختر لنفسك ما يحلو . قارن أيها الكاهن الموقر بين عبء حبى الثقيل . وموت أبيك الشيخ . . والذين تآمروا معه .

كانت غضبى . وعيناها متوقدتين . وصدرها يعلو ويهبط . فأدركت انها قد بتت فى الأمر . وألا شىء يثنيها عن عزمها ..

وتنهدت . ثم قبلتها . وبذلك سجلت عارى . واستعبادى .

وابتسمت كليوباترا ابتسامة الفوز والظفر . . ثم مضت عنى وقد احتفظت معها بالخنجر .

وحرت فى تفسير تصرفها هذا . ولم يدر بخلدى اننى خدعت . . وانها خشيت أن تقتلنى ليقينها ان المؤامرة ما زالت قوية . وانها اذا قضت على هبت ريح الثورة وقذفت بها من فوق عرشها . .

لم أدرك انها انما عفت عن شركائى بدافع من خوفها . . ولاعتبارات سياسية ... ومهما يكن فقد برت كليوبترا بوعدها . . واطلقت سراح الجميع

الفصل التاسع

سخرية شارميون

قضيت احد عشر يوما وأنا سجين في غرفتي . ولم أر خلال هذه المدة أحدا غير الحراس والعبيد الذين كانوا يحملون الى الطعام والشراب .

وكانت كليوبترا تكثر من زيارتي . ولا تدخر وسعا في احاطتي بكل ضروب الحب والعطف . . بيد انها تجنبت كل اشارة الى ما يدور خارج القصر . .

وكثيرا ما حولت مجرى الحديث الى نظام الحكم في مصر . . ثم تسألني عما عساي اقترحه لاسعاد الشعب وصد مطامع الرومان . وارهابهم . فكنت أجيبها بادىء الأمر بتحفظ وألم . . ولكن سرعان ما آنست اليها . فرحت أحدثها بمقترحاتي . . وكانت تصغي الي بفرح لا يوصف . .

وهكذا أخذت كليوبترا تتغلغل في أعماق قلبي . الى أن تعلمت كيف أحبها . . بل لقد طغى حبها على كل شيء آخر . . فلم أعد أفكر إلا فيها ، مع انها أصل ذلي وبلائي . .

واتفق أن جاءت كليوباترا لزيارتي ذات يوم . وقالت انها جاءت على عجل من مجلس عظيم عقد للنظر في حروب انطوني في سوريا . ثم جلست قبالتي ضاحكة . . وقالت انها سئمت حديثهم . . فاعتذرت لهم بورود رسالة من روما . . ثم استأذنت في الانصراف . . على أن تعود اليهم بعد قليل

وفجأة . انبعثت واقفة . ثم خلعت التاج الملكي . وثبتته فوق رأسي . كما وضعت العباءة الملكية على منكبي

وقدمت الىّ صولجانها .

وجثت أمامى . . وضحكت مرة أخرى . . ثم أحاطت عنق بذراعيها . وقبلتنى .. وقالت اننى ملـكها .. وانها اطوع لى من بنانى .

وتذكرت حفلة تتويجى فى معبـد ابوثيس . . وا كليل الزهور الذى توجتنى به كليوباترا (ملـكا للحب) . فثارت ثائرتى . وعصف الغضب بين جنبى . فقذفت بالتاج ، والعباءة ، والصولجان ، فوق الأرض .

وزأرت فى وجهها :

— كيف تجرؤين على السخرية منى . أنا طائرك الحبيس ؟

وراعتها هيئتى . . فتراجعت إلى الوراء . وقالت : أنا أسخر منك ..

وغضت من بصرها . واستطردت فى لهجة عذبة :

— اصغ إلى يا هار كيس . لقد اعتزمت الاقتران بك . فـكف عن الاضراب عن تناول الطعام . فقد أبلغنى العبيد ذلك . ثم ان اصفرار وجهك خير شاهد على مايقولون . اننى لم استبقك فى الأسر إلا لأنك عزيز على نفسى . ومحافظة على شرفك وحياتك بعـد ماذاع من خيانتك لقضية مصر . ومهما يكن فسأطلق سراحك غـداً . وستظهر فى البلاط مرة أخرى بوصفك منجمى .

ثم استأذنت ، وانصرفت ، بعد أن وعدتنى خيراً .

لم يبق لدى ثمة شك فى أن كليوباترا تنوى الزواج بى رسمياً . وما زال هذا اعتقادى حتى الآن . فقد كانت جميع تصرفاتها معى تعزز هذا الاعتقاد

وجاءت شارميون لزيارتى فى اليوم التالى . ولم أكن قد رأيتها منذ تلك الليلة التى اكتسيت فيها ثوب العار .

واجهتنى الفتـاة بوجه مصفر . وأرخت عينيهـا الى الارض . ثم قالت بصوت رقيق : أرجو المعذرة لتجرؤى على القدوم اليك بدلا من كليوباترا ولـكن لاتحزن لأنها ستأتى فى التو .

فانتفضت لهذه الـكلمات اللاذعة . وأدركت الفتـاة سـوء حالى . . فاستطردت :

— لقد جئت اليك يا هارما كيس ، يامن لم تعد ملكا ، لأقول لك انك مطلق السراح وأنك حر فى مواجهة عارك ، ورؤيته مجسما فى كل عين وضع صاحبها فيك ثقته . جئت لأقول لك إن المؤامرة التى قضى المصريون الأبطال عشرين عاما فى تدبيرها قد قضى عليها قضاء تاما ، وتشتت شمل مدبريها . فخمدت الزوبعة قبل أن تثور . وكل ذلك بسبب خيانتك

فتأوهت . وقلت : لم يكن الذنب ذنبي . فقد خاننا يوليوس

— لم يخنك أحد . بل أنت الذى خنت العهد . لماذا لم تقتل كليوباترا وأنت منفرد بها . ؟ تكلم يا خائن !

— لأنها وضعت لى عقدرا فى كأس الشراب

— واحسرتاه يا هارما كيس . إنك بعت وطنك . وقضيتك لقاء قبلة بغى . ولكن مهلا . فليس ببعيد ذلك اليوم الذى تراه هى ملائما لتطأك بقدميها كشئ قذر

فانتفضت مرة أخرى . و آلمتنى كلماتها التى تقطر سخرية . ومقتا . ولكنى تجلدت وسألتها بصوت حزين : ولكن كيف لم تعرف كليوباترا بأنك كنت أحد المتآمرين ؟

— لم يكن اسمى مدونا فى القوائم .

وأمسكت هنيهة ثم استطردت : إن الفرصة سانحة للوشاية بي . فلماذا لا تنتهزها وتغدر بى لأننى أحببتك فى أحد الأيام . نعم . هل تذكر حبي ؟ إننى أكثر الناس شعوراً بفداحة سقوطك . فان العار الذى يلحق بمن نحب لا بد أن يلحقنا كذلك . مهما كانت نذالة ذلك الشخص .

وقلبت شفتها احتقاراً . وأردفت : من سوء الحظ أن وقتى لا يتسع لتبادل الحديث . . إننى جئت لأقول لك إنك مطلق السراح . وأن كليوباترا تنتظرك في قاعة المرمر

وهكذا اعيدت إلى حريتى . ولكنها كانت حرية لفظا . فان الرقابة كانت شديدة جداً . حتى لم أكن أستطيع أن أتجاوز فناء القصر .

وذات يوم وصل كونيتوس دليوس الرومانى المخاتل . وكان يحمل

رسالة لكليوباترا من مارك انطونى أحد أعضاء الحكومة الثلاثية ، الذي كان يقاتل فى آسيا فى تلك الاثناء .

واستقبلت كليوباترا الرسول استقبالا رسميا رائعا فى القاعة الكبرى . وجلست فوق عرشها الذهبي يحف بها شخصى وضباط البلاط . والوصيفات .

وأمرت الملكة رجال التشريفات أن يأتوا بسفير انطونى . ففتحت الابواب الكبرى . ودخل الرسول الرومانى . بين قرع الطبول ، وتحية الحراس . وكان يلبس درعا ذهبيا لامعا . وعباءة قرمزية من الحرير . يتبعه ضباطه عن كثب .

وبينا كان رجال التشريفات يعلنون اسم دليوس . والقابه . ومناصبه . كان هذا يحدق فى وجه كليوباترا وهو يكاد يلتهمها بعينيه

وفرغ رجال التشريفات من مهمتهم . . ولكن الرسول ظل على جموده لاينطق بكلمة . . فقالت كليوباترا باللاتينية :

— السلام لك أيها النبيل دليوس . . رسول انطونى البطل العظيم . . تكرم أيها الرسول وابسط لنا الغرض من قدومك .

ولكن الرسول الماكر ظل على صمته . . فهتفت كليوباترا :

— لماذا لاتتكلم ايها النبيل . ؟ هل من شيء يعقل لسانك ؟

فخرج الرسول من صمته أخيراً . . وأجاب :

— أرجو المعذرة ياملكة مصر الحسناء . . فان الجمال المفرط كالموت يعقل الألسنة . ولاعجب ان انا وقفت مشدوها ، مأخوذاً أمام فتنتك وملاحتك

ثم ابتسم وأردف : ان معى رسائل لك ايتها الملكة بخط انطونى النبيل ، وختمه . . فهل تسمحين أن أقرأها على رؤوس الاشهاد

فأومات كليوباترا . . وفض الرسول الاختام . . وقرأ مايلى :

« باسم الحكومة الرومانية الثلاثية ارسل ، أنا مارك انطونى احد اعضاء هذه الحكومة ، تحياتي إلى كليوباترا ملكة مصر العليا والسفلى التى تحكم بفضل الشعب الرومانى . .

لقد بلغنا انك قد ساعدت الثائر كازيوس ، عن طريق النيوس وسرا بيون حاكم قبرص ، ضد جيوش الحكومة الثلاثية النبيلة مما يتعارض مع وعودك . وواجباك . .

وحيث اننا علمنا انك تعدين أسطولا عظيما لهذا الغرض .

فبناء عليه . ندعوك للقدوم الى قليقيه فى الحال . ومقابلة النبيل أنطونى لكى تجيبى بنفسك على هذه الاتهامات . . وتنذرك انك ان عصيت أمرنا هذا عرضت نفسك للخطر . والسلام »

تألقت عينا كليوباترا وهى تصغى الى الرسالة . . وقد رأيتها تشدد الضغط على جانبى عرشها المصنوعين على هيئة أسدين ذهبيين . . ثم قالت :

— قد سمعنا كلمات التملق والمداهنة . . وها نحن نسمع كلمات التهديد والوعيد . . اصغ إلى يادليوس .. إن التهم التى تكيلونها إلى فى رسالتكم ليس لها نصيب من الصحة بتاتا .. فعد الى سيدك وقل له ان البحر أمامه .. فان شاء حاسبتنا ! فليأت الينا . . وسنستقبله استقبال الملوك .

فابتسم الرسول ليخفى غضبه .. وقال :

— انك لا تعلمين شيئا عن أنطونى النبيل . . فهو عنيف فى كتابه ، ولكنه أرق حاشية عند اتصالك به . . ففكرى فى الأمر .. ولا ترديني اليه بهذا الرد الجاف . فيعمل على الثأر منك وينقض على بلادك كما تنقض الصاعقة. أتوسل اليك أن تلبى هذه الدعوة . . تعالى الى قليقية . تعالى ومعك هداياك ولاتأتى على رأس جيوشك . . بل تعالى بجمالك وزينتك ولا تخشى شرا من انطونى النبيل .

وأمسك وهو يرمق كليوباترا بنظرة ذات مغزى ، فغلى الدم فى عروقى . ولم يخف معنى كلماته على كليوباترا ، فاعتمدت ذقنها بين راحتيها ، وبدت على وجهها أمارات التفكير العميق .

وأخيرا قالت :

— هذا أمر يحتاج الى كثير من التروى وانعام النظر ، فامهلنا عشرة أيام كى نتدبر جوابنا على رسالة النبيل أنطونى .

فاطرق الرسول هنيهة ، ولم يلبث أن أجاب باسما :

— ليكن ما تشائين ايتها الملكة . . سانتظر عشرة أيام ريثما تفكرين في الجواب .

وأومأت كليوباترا . فقرعت الطبول مرة أخرى . . وانسحب دليوس وضباطه وهم يحيون الملكة باخناء رؤوسهم

الفصل العاشر

متاعب كليوباترا

استدعتنى كليوباترا لمقابلتها فى غرفتها الخاصة . . ولما ذهبت ، الفيتها قلقة مضطربة . تروح وتغدو فى غرفتها كالطير الحبيس . .

وإذ دخلت عليها . جلست فوق أحد المقاعد . ثم مدت إلى يدها . وقالت :

— أهذا أنت ياهارما كيس . لقد استدعيتك لأسألك النصح والهداية .

هل تعلم ان حيـــاتى أصبحت جحيما لايطـاق . فانى لم أكد أنجو من سن خنجرك باعجوبة حتى دهمتنى هذه المشكلة العويصة . كعاصفة تجمعت وراء الأفق . ثم ثارت فجأة . أرأيت إلى هذا النمر المتأنق ؟ ! وهل سمعت ماجاء فى رسالة انطونى من قوارص الـكلم ؟ ! إننى أعرف انطونى حق المعرفة ، فقد رأيته قبل بلوغى سن الرشد : وهو رجل يجمع بين الحذق والحمـاقة . سهل الانقياد إذا ماتغلبت عليه شهواته . ولـكنه اذا غضب انقلب إلى عدو شديد المراس . وفوق ذلك فهو كريم الخلق ، باسل ، محب للنساء . والخمر .

هذا هو انطونى . . فـكيف ترى إلى هذا الرجل الذى رفعه القدر الى قمة المجد رغم إرادته ؟ وبم تنصح لمجابهته . والوقوف فى وجهه ؟

فاجبت : إن انطونى ليس الا بشراً . له نقطة ضعف . ويمكن التغلب عليه بمهاجمته من هذه الناحية .

— هذا صحيح . ولـكنه واحد من أعـــاء الحـكومة الثلاثية . فهناك ليبدوس وذلك الشاب اكتافيوس . فلو أنى ذهبت إلى قليقية ، ولم أتفق مع انطونى . لسارع بعقد الصلح مع رفيقيه . وانقض على مصر كالعقاب الـكاسر

فما العمل ياهارما كيس ؟ .

— ما العمل . . نصده عنها . ونرغمه على العودة إلى روما .

— ربما كان ذلك مستطاعا لو انك نجحت فى مؤامرتك ، وارتقيت عرش مصر . . لأن الشعب كان يقف من خلفك يشد ازرك . . ولكن المصريين يبغضونى . ويحقدون علىّ .. ثم اننى لا أملك المال اللازم لاستئجار الرجال الذين يلقون بأنفسهم إلى ساحات الحروب .

وأمسكت هنيهة . واقتربت منى . وسلطت علىّ سحر عينيها القاهرتين ، وقالت :

ـ اصغ إلىّ يا هارما كيس .. هل تستطيع أن تنبئنى ـ بوصفك كاهن الاهرامات الأكبر ـ بما إذا كانت هناك كنوز مخبأة فى جوفها .

اننى بحاجة إلى المال لانقاذ وطنك .. وانقاذ نفسى ، أنا حبيبتك ، من ايدى مارك انطونى . . فهل صحيح ما يقال عن كنوز مدفونة داخل الاهرامات ؟

فأطرقت هنيهة . ثم أجبت :

— بفرض صحة هذه الأشاعات كيف يمكننى أن أثق بانك ستستخدمين هذه الثروة لهذه الغاية النبيلة .؟

فسألت بلهجة تشف عن القلق :

— اذن فهناك كنز ! كلا . . لا تبعث السآمة والضجر إلى نفسى يا هارما كيس. لأن الذهب بالنسبة إلىّ فى مثل هذا الوقت العصيب اشبه بالماء يقع عليه الظمآن وسط الصحراء .

— نعم . . هناك كنز ، ولو أننى لم أره . ولكننى أعلم أن صاحبه قد سجل فوقه ما معناه أنه يلعن إلى الأبد كل من يستولى عليه لأغراضه الخاصة ولذا لم يجرؤ أحد من الفراعنة الذين رأوه على أخذ شىء منه . برغم حاجتهم الماسة اليه ..

— هل لك أن تريى هذا الكنز يا هارما كيس ؟

فأجبت بصرامة : لن أفعل ذلك الا إذا اقسمت انك ستنفقينه فى الدفاع

عن مصر ضد انطونى . وفى كل ما يعود بالخير على البلاد وأهلها .

فقالت بلهجة جدية :

— انى اقسم . بل أقسم بحق كل اله فى مصر انك إذا أريتنى هذا الكنز العظيم ، فانى اتحدى انطونى . وأعيد دلبوس إلى قليقيه برسالة أشد قسوة من الرسالة التى حملها إلى . نعم .. وسأفعل اكثر من ذلك يا هارما كيس . سأتخذك زوجا شرعيا .. واكل اليك انفاذ خططك ومشروعاتك فى صد نسور الرومان عن مصر .

نطقت كليوباترا بهذه الكلمات . وهى تنظر إلى بعينين ملؤهما الصدق والاخلاص . فصدقتها . ولم تخالجنى الريبة فى نواياها . بل وشعرت لأول مرة منذ فشلى وسقوطى بشىء من السعادة وراحة الضمير . فقد خيل إلىّ انى لم أفقد كل شىء بعد ، وأننى سأنال مع معبودتى كليوباترا ما فقدت من سلطة وجاه ! . .

قلت : أعيدى القسم يا كليوباترا

فاعادته . . وختمته بقبلة حارة .

وبدأنا نتحدث عما سنفعله بعد الزواج . وكيف نتغلب على جنود انطونى وهكذا خدعت مرة أخرى . ولو أننى أعتقد أنه لولا غيرة شارميون ، لتزوجت بى كليوباترا . وانقطعت صلتها بانطونى .

واتفقنا على الرحيل فى الغد . على أن نبدأ فى البحث عن الكنز بعد ليلتين . .

وفى فجر الغد ، أعد المسئولون زورقا . ذهبت اليه كليوباترا متنكرة فى ثياب سيدة مصرية تريد الحج الى هيكل (هورم ـ خو) . ورافقتها وأنا متنكر فى ثياب الحجاج . وبرفقتنا عشرة من خدمها المخلصين فى ثياب التوتية

وصلنا الى (صا الحجر) عند منتصف الليل ، واسترحنا حتى الفجر . ثم استأنفنا السفر . وعند ما انحدرت الشمس نحو الأفق ، كنا قد وصلنا إلى حصن بابليون . وهناك رسا بنا الزورق على الضفة الثانية من النهر . . ونزلنا الى البر

وانطلقت وكليوباترا ، وخصى واحد ، قاصدين الاهرامات . وكانت منا على بعد فرسخين . وبينا كنا نخترق حقلا ، رأيت حمارا يرعى . فامسكته . والقيت فوقه عباءتي . ثم عاونت كليوباترا على امتطائه . وقدته في الطريق الموصل الى منطقة الاهرام .

وبعد ساعة . لاحت لنا الاهرامات على البعد .

واجتزنا مدينة الأموات . وتسلقنا التل الصخرى . ثم انطلقنا بين صفين من القبور . حتى وصلنا الى الهرم الثالث .

وتوقفنا .. وراحت كليوباترا تنظر الى الهرم بدهشة . وتعجب .

ثم سألت : هل هذا هو المكان الذى خبىء الكنز فى جوفه ؟

فأجبتها بالايجاب .. ومن ثم درنا حول الهرم . ، إلى أن وصلنا إلى جانبه الشمالى . حيث نقش فى منتصفه اسم (منقرع) فرعون مصر الذى شيده ليكون مقبرة تضم رفاته . . ووضع به ذلك الكنز السرى ليسد حاجات مصر وقت الشدة . .

قلت لكليوباترا : ان الكنز مخبأ فى بطن الهرم . . فهل أنت على استعداد للتعرض للمخاطر فى سبيل الحصول عليه ؟ .

فقالت وقد أخذت قواها تخور :

— ألا تستطيع الدخول مع الخصى .. وتأتيان بالكنز ياهارما كيس ؟

— لا .. لا أستطيع اتيان هذا العمل . ولوكان ذلك لأجلك ، أولأجل خير مصر . لأنه أعظم جرم يقترف . . بيد أن منصبى الكهنوتى يبيح لى أن أرى ملك مصر المكان الذى دفن فيه الكنز ، اذا طلب إلىّ ذلك . . وأن أريه كذلك الانذار المكتوب . . ولفرعون بعدئذ أن يقدر مبلغ حاجته إلى المال وهل تكفى هذه الحاجة لتحدى لعنة الميت ؟

لقد جاء فى السجلات التى قرأتها أن ثلاثة ملوك أقدموا على استخراجه وقت الحاجة . . وهم : الملكة المقدسة حتشبسوت . وأخوها تحتمس . . ثم المقدس رمسيس ـ ميامون .. ولكنهم لم يجرؤوا على مس الكنز . بعد أن اطلعوا على نص اللعنة . وأدركوا أن حاجتهم إلى المال لاتوازى التعرض لها ..

فأطرقت كليوباترا هنيهة . . وأخيراً هتفت :

— مهما يكن . . لابد ان أرى كل شيء على الأقل . .

— على رسلك.

وبدأت ارفع الصخور ، بمساعدة الخصي ، وأضعها بعضها فوق بعض في بقعة معينة عند قاعدة الهرم . إلى أن بلغ ارتفاعها نحو متر ونصف متر ، فاعتليتها . وبحثت عن العلامة السرية . . ثم دفعت الصخرة المرسومة فوقها العلامة بكل قوتي . وبطريقة معينة . فدارت الصخرة . . وكشفت عن مدخل ضيق لا يكاد يتسع لمرور شخص واحد . .

ولم تكد الصخرة تدور حول نفسها . . حتى خرج من بطن الهرم خفاش غريب الخلقة . أبيض اللون . . شيبه الدهر . . لم يقع بصري من قبل على خفاش في مثل حجمه إذ كان في حجم عقاب كبير . .

وحلق الخفاش هنيهة فوق كليوباترا . ثم ارتفع في الجو . وسرعان ما اختفى عن أعيننا .

. وصرخت كليوباترا صرخة مروعة . وسقط الخصي على وجهه . وأما أنا فدب الذعر في قلبي . . ولكنني لم أنبس ببنت شفة . . ولو أنني لا أزال أعتقد أن روح منقرع قد اتخذت هيئة خفاش . وطارت من منزله المقدس منذرة إيانا بمغبة عملنا .

تريثنا قليلا . ريثما نفذ شيء من الهواء النقي إلى داخل الهرم . ثم أخرجت ثلاثة مصابيح وأوقدتها . ثم أعطيت لكل من رفيقي مصباحا . . واحتفظت لنفسي بالثالث .

وتسلقت الى الفتحة حاملا معي حبلا طويلا ، لففته حول خصري . ثم أشرت لكليوباترا لتلحق بي . فلفت رداءها حول جسمها . ثم جذبتها الى أعلى حتى وقفت ورائي في الدهليز .

ولحق بنا الخصي . وأخرجت دليل الممر الذي جئت به معي . وقرأت ما يحتويه

ثم سرت في الطليعة . فعبرنا المنحدر على ضوء المصابيح الضئيل ، وكنا

نلهث من تأثير الهواء الحار الكثيف .

واذ اجتزنا المنحدر . أخذنا نهبط في دهليز نحت في قلب الصخر ، وكان شديد الانحدار إلى مسافة عشرين خطوة تقريبا .

وبعد قليل الفينا أنفسنا في غرفة مطلية باللون الأبيض ، وكانت منخفضة السقف ، فجلست كليوباترا لتستريح قليلا ، ولكنني قلت معترضا :

— انهضي ، يجب ألا نتلكأ هنا ، وإلا أغمي علينا

فنهضت ، وواصلنا السير الى أن بلغنا بابا ضخما من الجرانيت ، فأخرجت الدليل مرة أخرى ، ثم ضغطت على حجر معين بقدمي . وتمهلت قليلا . فتحركت الصخرة فجأة إلى أعلا من تلقاء نفسها ، فسرنا من تحتها . إلى أن وجدنا أنفسنا أمام باب ثان من الجرانيت ، فضغطت مرة أخرى على حجر معين ، فانفتح الباب ، واجتزناه ، ولم نلبث أن وجدنا أنفسنا أمام باب ثالث أشد ضخامة من البابين السابقين .

ضربت هذا الباب ، كما جاء بالدليل ، في بقعة معينة ، فهبط ببطء وهدوء ، الى أن صارت حافته العليا في مستوى الأرض التي نقف عليها . . فعبرناه وانطلقنا في دهليز قليل الانحدار الى أن وصلنا الى غرفة كبيرة متسعة ، في أرضها تابوت كبير من الجرانيت ، نقش على غطائه اسم زوجة الملك منقرع والقابها .

ولم نتوقف في هذه الغرفة . بل استأنفنا سيرنا الى رواق في نهايته بئر عمقها سبعة أذرع . فربطت طرف الحبل الذي جئت به معي حول وسطي وربطت طرفه الآخر الى نتوء من الصخر ، ثم هبطت والمصباح في يدي . إلى أن وقفت في المكان الذي اختاره منقرع ليكون قبره الأبدي .

وبعد هنيهة لحقت بي كليوباترا ، واما الخصي فقد أمرته ان ينتظرنا عند فوهة البئر . فاطاع كارها .

الفصل الحادى عشر

استخراج الكنز

وقفنا داخل غرفة صغيرة مقوسة السقف مرصوفة بكتل ضخمة من الجرانيت كانت تضم بين جدرانها تابوت منقرع المقدس منحوتا فى صخرة واحدة من البازلت على شكل منزل خشبي يرتكز على وجه أبى الهول ذى وجه من ذهب

وقفنا نتطلع اليه فى رهبة يحف بنا سكون المكان وجلاله . وفوقنا يربض الهرم الاكبر يكاد يناطح السحاب . بينا نحن فى الاعماق تحتضننا الصخور الموجودة أسفل القاعدة .

كنا وحيدين مع ساكن القبر الذى جئنا لاقلاق راحته . ولا شيء حولنا من علائم الحياة وسط ذلك السكون الموحش .

تطلعت إلى التابوت وكان غطاؤه مرفوعا وملقى على احد جانبيه . وبجواره تجمعت الأتربه طبقات فوق طبقات

أشرت الى نقش على الجدار بالرموز المقدسة القديمة وقلت هامسا :

— انظرى فاجابت كليوباترا بصوت خافت :

— اقراها ياهارماكيس لأنى لا أستطيع

فقرأت ما يلى :

« أنا رمسيس ميامن — قد زردت هذا الضريح وقت العسرة. بيد اننى على رغم شدة حاجتى لم أجرؤ على مواجهة لعنة منقرع .. فلتكن لك ، يامن ستأتى بعدى، من ذلك عبرة .. فان كنت طاهر النفس نقيها . وكانت مصر فى أقصى حالات الفوز . . نفذ ما خلفته »

فهمست كليوباترا :

— أين ذلك الكنز إذن ؟ . أهو ذاك الوجه الذهبي لأبى الهول ؟

فأجبتها مشيراً إلى التابوت : إنه هناك . . اقتربي وانظرى

فاقتربنا متكاتفين . . وأزلت الأتربة العالقة بالرفاة الموضوعة بأسفل

التابوت فاذا تعويذة من « نوت » كتبت لتحميه وتدفع عنه شر أعدائه وتهجمهم

فأعادت كليوباترا سؤالها : أين ذلك الكنز إذن ؟

فطلبت اليها أن تقف عنـــد رأس التابوت بينـا وقفت عند مؤخرته وتطلعت إلى جثة فرعون المحنطة المربوطة بعصائب اصفر لونهـا بتأثير الزمن ووضعت تحتها سيقان زهر اللوتس وكان على صدره لوحة كبيرة من الذهب سطرت بكتابة مقدسة . وكانت كما يلى :

« أنا منقرع ـ الراقد فى احضان أوزوريس . أنادى من قبرى من سيجلسون على العرش من بعدى . . لقد حذرتني الآلهة فى إحدى الرؤى أن سيأتى يوم تخشى فيـه مصر السقوط بين أيدى الأجانب . وسيكون حاكمها فى حاجة ملحة إلى المـال لتجهيز الجيوش لطرد المتبربرة من بلاده . فأوحت إلىّ الحـكمة أن أصنع ما أنا صانع .. لقد وهبتنى الآلهة الخير الـكثير والمال الوفير . . أنفقت منها ما أنفقت واستعضت بالباقى أحجاراً كريمة من الزمرد واختزنتها ليوم مصر العصيب . . ولـكنى أخشى ضعاف النفوس الذين يستهويهم الثراء ولذا أرسل صوتى عالياً اليك يامن لم تولد بعد . إن الـكنز مخبأ داخل عظامى . فاذا كنت حقاً فى حاجة الى المال لتنقذ مصر من أعدائها فلا تخش ولا تتردد . قطعنى وفك الأربطة واستخرج الـكنز من صدرى ثم ضع عظامى فى التابوت الأجوف ، ولـكن ، إذا لم تمكن الحاجة إلى الاموال ماسـة . أو استهواك الجشع ، فلتحل عليك لعنة منقرع ولتعش طيلة حياتك تحصد شر ما اقترفت ، ولتعش أيامك فى البأساء والضراء إلى أن تموت »

وما أن انتهيت من القراءة حتى التفت إلى كليوباترا وقلت برزانة :

— لقد سمعت يا كليوباترا . فحكمى العقل . وأجيبي

فاطرقت برأسها مليا ولم تلبث أن قالت :

— ليس بوسعى أن أقدم على هذا العمل . هلم بنا

فشاع السرور فى قلبي ولـكنها ما لبثت أن قالت :

ــ ولـكن ماذا تقول الـكتابة ؟ . زمرد . اليس كذلك ؟ وان الزمرد الآن لأندر من العنقاء . ولطالما أحببت أحجار الزمرد

ــ ليست المسألة يا كليوباترا ما تحبينه . ولـكن ما تحتاجه مصر . وما يطويه صدرك من نوايا

ــ بالتأكيد يا هارما كيس . أو ليست مصر فى مسيس الحاجـة إلى المال ؟ . لقد نضب معين الذهب من الخـزانة . و كيف يسعنى ان أصمد فى وجوه الرومان خاوية الوفاض ؟ . هاهى المحنة التى ظهرت لمنقرع المقـدس فى الرؤيا . لأننى ان لم أصد هجمات الرومان فلا مندوحة من استيلائهم على مصر . وبدخولهم ينقرض منها الفراعنة . ولن يكون ثمت فرعون بعد ليتسلم الأسرار . إذن لنطرح الخوف ظهريا ولنبـدأ فى العمل . وما دامت قلوبنا قوية فليس هناك ما نخشاه يا هارما كيس

فقلت : عليك وحدك أن تحكمى . وإذا لم يكن حكمك صادقاً . فستحل عليك اللعنة بلا ريب

ــ حسنا يا هارما كيس . خـذ رأس فرعون وسآخذ انا . ! يا لله ! ما أشد وحشة المـكان ! لقد خيل إلى انى رأيت شبحاً فى الظلام يتقدم نحوى ولم يلبث أن اختفى ! ! ألم تر شـيئا ؟!

ــ كلا يا كليوباترا . .ولـكنى أرجح انه روح منقرع المقدس التى تحوم دائما حول هيـكلها . هلمى بنا اذن . فشـد مايسرنى أن أغادر هـذا المـكان

فوقفت كأنما تتأهب للخروج ثم استدارت وأردفت :

ــ انه لم يك شـيئا . . ولـكنه العقـل الذى يجسم الخيـالات فى بيت « الفزع » كلا . يجب أن ألقى نظرة على الزمردات . حتى ولو كان فى ذلك حتفى

* * *

صعدنا كلانا فوق أبى الهول . وأخرجنا جثمان فرعون المقدس ووضعناه

على الارض وأخذت من كليوباترا الخنجر وقطعت به الأربطة وزهور اللوتس فسقط صولجان فرعون وكان مصنوعا من خالص الذهب وبطرفه رمانة من الزمرد

حملقت كليوباترا فى الصولجان مشدوهة . . ثم عاودنا مهمتنا المقيتة . .

كادت تخنقنا حرارة المكان ورائحة العقاقير . . ثم حللنا آخر لفة من القماش حول الجسم

رفعت الجثة فألفيتها ثقيلة فهمست :

— ان الجواهر بداخل الجثمان . والآن اذا كان قلبك يطاوعك فشق طريقا الى داخل ذلك الهيكل الذى كان من قبل فرعون مصر

فتناولت الخنجر من يدى. ورفعت وجهها الجميل . وعيناها الزرقاوان يشع منهما الوجل .. ثم ضغطت على ناجذيها بشدة كأنما تلتمس العزم . وغاص خنجر الملكة الحالية فى قلب من كان ملكا منذ ثلاثة آلاف سنة .

ولم تكد تفعل ذلك حتى سمعت تأوها صادراً من المكان الذى تركنا الخصى فيه . فوثبنا واقفين ، وأرهفنا السمع . ولكننا لم نسمع شيئا . ورأينا المصباح ما زال يرسل ضوءه من خلال الفتحة من أعلى . . فقلت :

— لا شىء . دعينا ننته من مهمتنا

* * *

جاست يد كليوباترا خلال صدر فرعون . . واستخرجت منه زمردات نادرة لم تقع على مثلها العين . وكلما وضعت يدها كلما جاد لها صدر فرعون بما يبهر النظر حتى بلغت الزمردات ١٤٨ غدا وفى النهاية وجدت جوهرتين نفيستين سيأتى ذكرهما .

تكدست الجواهر أمامنا . وعقل الخوف لساننا مرة أخرى فلم نستطع أن نتبس ببنت شفة . . فأومأت الى كليوباترا وتعاونا على حمل هيكل فرعون وتسلقنا أبا الهول ، ووضعنا الجثمان فى التابوت . ومن فوقه الاكفان . . ثم الغطاء .

حملت ما استطعت حمله من ذلك الكنز بين طيات ثيابى . . والباقى دسته

كليوباترا فى صدرها . . ثم القينا نظرة أخيرة على المكان . . وغادرنا المدفن

توقفنا عند البئر . . وناديت الخصى الموجود فى أعلا . . وخيل الى أن جواب ندائى كان ضحكة ساخرة . . فتملكنى الخوف مرة أخرى وخشيت ان نحن تأخرنا أن يغمى على كليوباترا . . فامسكت بالحبل وتسلقت عليه حتى الممر . . ولكنى لم أر للخصى أثرا . ثم لفت كليوباترا الحبل حول وسطها واجتذبتها الى أعلى بمشقة . . ثم جلسنا نلتقط أنفاسنا اللاهثة .

وبعد لحظات تناولت المصباح . وحاولنا اختراق الظلام بأعيننا بحثا عن الخصى . وفجأة وقع بصرنا على ما كنت أتوقعه . فقد رأيناه مستندا الى الصخرة ويداه مبسوطتان كما لو كان يدفع عنه شرا . وعيناه جاحظتان وفمه مفتوح . . وقد تمثل الفزع على وجهه بأجلى معانيه . . وكانت جميع الدلائل تدل على أنه فارق الحياة

ثم رأينا — ويا لهول مارأينا — ذلك الخفاش الابيض الضخم الذى خرج علينا من جوف المقبرة حين هممنا بالهبوط اليها . . وقد أمسك بذقن الخصى وعيناه تشعان ناراً . . وهو يتأرجح جيئة وذهوبا .

استبد بنا الرعب . ووقفنا نحملق فى ذلك المنظر البغيض ، وسرعان مافرد الطائر أجنحته وأقبل صوبنا . . وأخذ يروح بهما على وجه كليوباترا . ثم أرسل صرخة كصرخة امرأه غاضبة . وانفلت صوب القبر الذى انتهكت حرمته ثم اختفى فى جوف البئر

استندت على الجدار خشية السقوط . بينا هوت كليوباترا الى الأرض وغطت رأسها بيديها ، وصرخت صرخة تجاوبت أصداؤها بين الصخور . . فصحت بها : انهضى . . انهضى ودعينا نغادر هذا المكان . والا قضى علينا .

فنهضت علي قدميها وهى تترنح . ولن أنسى ماحييت نظرة الرعب الهائلة التى ارتسمت فى عينيها فى تلك اللحظة .

أخذنا نجتاز المكان بغرفه ودهاليزه حتى انتهينا إلى السلم الأخير . وهنا سقط المصباح وكادت تسقط كليوباترا معه . لولا مبادرتى إلى نجدتها . . وفى محاولتى هذه . . سقط مصباحى كذلك . فساد الظلام على الأثر .

صحت بها مشجعا :

— تجلدى والا ضعنا . . وان كانت الجواهر تثقل كاهلك فالقيها عنك

فقالت لاهثة : كلا .. لن يكون ذلك . ولن يكون ما قاسيته دون ثمرة سأموت وهى معى

اذذاك لمست شجاعة تلك المرأة . التى تعلقت بى وأخذت ترتقى الدرج رغم الظلام الدامس .. والفزع الذى يخيم على المكان .. الى أن رأينا أخيرا أشعة القمر من خلال الفتحة .. وما أن وصلنا إلىأعلى حتى سقطت كليوباترا على الأرض بلا حراك !

ضغطت على الحجر بيدين مرتجفتين .. فاستدار وسد الثغرة . ثم قفزت وانطلقت إلى كليوباترا فالفيتها صفراء الوجه حتى خلت أنها ماتت . . ولكنى تحسست القلب فوجدته ينبض .

وكان الأعياء قد بلغ منى مبلغه . . فجلست بجوارها على الرمال . لاستجمع قواى

الفصل الثانى عشر

تحية شارميون

أخيرا رفعت نفسى . ووضعت رأس ملكة مصر على ركبتى ورحت أعيد اليها الحياة .. ألا ما أجمل تلك المرأة حتى فى ثيابها المشعثة وشعرها الطويل يتماوج على صدرها .. تلك المرأة التى ستبقى قصة جمالها وخطيئتها الى مابعد زوال الهرم الرابض فوقنا .

تطلعت إلى وجهها الجميل . شاعرا أن قلبى بين يديها .. وأحسست أن حبى قد ازداد بسبب تلك الخيانة التى خضت غمارها فى سبيل الوصول اليها وبسبب المخاوف التى واجهتها سويا

لقد تملكنى الخوف وأعيانى النصب . . فهف قلبى إلى قلبها يلتمس الراحة . . لقد أقسمت أن تتزوج منى . . وستتمكن بفضل الكنز الذى أخرجناه من تطهير البلاد من الأعداء .

أخذت يدها بين يدى . . وأيقظتها بقبلة في ثغرها .. فافاقت وندت عن صدرها تنهدة الخوف .. وحملقت فيّ بعينين واسعتين وقالت :

— أهذا أنت ؟. لقد انقذتنى من ذلك المكان المفزع !.

ثم القت بذراعيها حول عنقى ، واجتذبتنى اليها . . وطبعت على وجهى قبلة ثم قالت :

— هيا أيها الحبيب . . دعنا نمض .. اننى عطشى .. وجد متعبة . . ولو ان اللآلىء تدفىء صدرى . . آه ! لم يسبق لى أن اكتسبت ثروة بمثل تلك المشقة ! ! تعال ايها الحبيب نفر من هذا الفزع ! . تعال ! أين يمكننا أن نجد الماء ؟. انى لا أضن على نفسى بجوهرة لمن يأتينى بقدح من الماء

— سنجد الماء فى الترعة المجاورة للارض المزروعة قرب هيكل (هورمخو) . اسدلى نقابك جيدا . وحاذرى من أن تظهرى تلك الجواهر للأعين .

فاسدلت النقاب على وجهها .. وسرنا حتى وصلنا أخيرا إلى معبد الاله « هورمخو » . . وكانت الشمس قد أرسلت أولى أشعتها الفضية وأنارت جوانب الوادى .. وهنا تجلى « رع » (اله الشمس) بكل بهائه وجلاله ! !

هبطنا المنحدر حتى جاورنا الترعة . . ومنها ارتوينا . . وغسلنا أيدينا وجباهنا ثم واصلنا السير بجوار شاطىء النيل حيث كان القارب فى انتظارنا .

وقضينا أربعة أيام للوصول الى الاسكندرية لأن الريح كانت ضدنا . .

ألا . . ما كان أسعد تلك الأيام !

كانت كليوباترا بادىء ذى بدء واجمة يثقل صدرها ما عانته فى جوف الهرم .. ولكنها ما لبثت أن رجعت الى نفسها . . وكانت أبداً دائمة التقلب فهى تارة مرحة . . وطورا عالمة . . وحينا مدنفة . . وأحيانا باردة !

كانت متقلبة كالريح . . عميقة كالسماء

ما كان أسعد تلك الليالى الأربع . . فيها جلسنا نتكلم عن الحب . . والزواج . . ووضعنا الخطط الحربية للدفاع ضد الرومان . . وكانت كل مقترحاتى تقابل بالموافقة وبابتسامة عذبة فاتنة

وا أسفاه . . لقد مر ذلك الوقت مر السحاب !

لقد انقضت تلك الليالى بعذوبتها وأحلامها . . ووجـدنا أنفسنا أخيرا نواجه أسوار القصر البغيضة .

* * *

قابلت شارميون مصادفة بعد عودتى فابتدرتنى قائلة :

— أين كنت تتجول مع كليوباترا ياهارما كيس .؟ ألغرض جـديد من أغراض الخيانة ؟! . أم كانت سياحة حب وغرام ؟

فاجبتها بحزم :

— لقد ذهبت مع كليوباترا لبعض الشؤون السرية المتعلقة بالدولة

— حقا ! ان الذين يشتغلون فى الظلام فانما لاغراض شريرة ، والطيور الخبيثة لا تطير الا ليلا !. اذا كنت حكما ياهارما كيس ـ وهذا ما لا أخاله ـ فالأجدر بك أن لا تظهر فى مصر علانية

استبد بى الغضب ولم أستطع احتمال تأنيبها فقلت :

— ألا يمـكن أن تخاطبينى بغير تلك اللهجـة الممقوتة ! ألا فاعلمى اننى قد ذهبت حيث لا تجرؤين على الذهاب وقـد جمعنا الوسائل لحفظ مصر من يد أنطوني

— حقا ! ما أغباك ، كان الاجدر بك أن توفر على نفسك المشقـة ! ! لان انطونى سيتولى على مصر وأنفك فى الرغام .

— قد يستولى على مصر رغم أنفى . . ولـكن رغم أنف كليوباترا . فلا فأجابتنى بابتسامة مريرة :

— كلا . ولـكنه بمساعدة كليوباترا سيتمكن من ذلك . وعندما تبحر الملـكة فى نهر سدنوس فهى لابد مجتذبة قلب انطونيوس اليها . . وسـتأتى به الى الاسكندرية فاتحا !

— هذا افك ! . لن تذهب الملـكة الى طرسـوس ! . ولن يأتي انطونى الى الاسكندرية ! .

فضحكت ضحكة قصيرة وأجابت :

— أهذه أفكارك ! . حسنا . فكر كما يحلو لك ! . ولكنك سترى بعيني رأساك فى غضون أيام ثلاثة كيف هزأت بك !. الى اللقاء! اذهب وحلق فى سماء الحب . فالحب — ولا شك — عذب لذيذ ! !

ثم خلفتنى وصدرى يكاد ينشق من فرط الغضب

***

لم أر كليوباترا سحابة ذلك اليوم . ولكنى رأيتها فى اليوم التالى وكانت مهمومة منقبضة الصدر .

تكلمت معها بشأن الدفاع عن مصر فتململت قائلة بغضب :

— لماذا تتعبنى ؟ ! . ألا ترى انى غارقة وسط متاعبى ! ؟ ! غدا بعد أن يتلقى دليوس جوابى . نستطيع أن نتكلم فى مثل هذه الشئون

— بعد أن يتلقى دليوس جوابك ؟ . ألا تعلمين ان شارميون قد أنبأتنى أمس ان جوابك سيكون : « اذهب بسلام . سآتى الى انطونى » ؟ ! !

فوثبت كليوباترا على قدمها وأجابت غاضبة :

— ان شارميون لا تعرف شيئا من أسرارى . وإذا أباحت لنفسها الكلام مرة أخرى فسيكون نصيبها الطرد من بلاطى ! . ولو ان رأسها يحتوى من الحكمة والذكاء أكثر مما يحتويه رؤوس جميع مستشارى

ألا تعلم أنى بعت أمس جانباً من الجواهر لبعض أغنياء اليهود بالاسكندرية بثمن مرتفع ؟ . نعم . . بعت الحجر الواحد بأربعة آلاف جنيه ؟ . . آه . انى متعبة .. إن ذكرى تلك الليلة المرعبة مازالت تمضنى ! !

فتحولت للانصراف . . غير أننى ترددت قليلا وقلت :

— عفوا يا كليوباترا . . وماذا بخصوص زواجنا ؟

— زواجنا ! ؟ ألسنا فى الواقع ونفس الأمر . متزوجين ؟

— نعم . . ولكن ليس علنا ! . لقد وعدتنى يا كليوباترا

— نعم وعدتك يا هارما كيس . وغداً بعد أن اتخلص من دليوس سأبر بوعدى . . وسأدعوك سيد كليوباترا أمام البلاط . . هل أنت بذلك راض ؟

ثم مدت إلى يدها لأقبلها وهى تنظر إلى نظرات غريبة حرن في إدراك كنهها ..

« * »

اجتمع البلاط فى اليوم التالى قبل الظهر بساعة . . وقد ذهبت بقلب واجف لأستمع إلى جواب كليوباترا الى دليوس . . . ولكى أسمع كذلك اعلان تنصيبى ملكا على مصر . .

وعندما دخلت شارميون لتأخذ مكانها فى البلاط ألقت علىّ نظرة سريعة . يشع منها بريق الفوز والظفر ..

ثم نفخ فى البوق وظهرت كليوباترا بجلالها وعظمتها . . والتاج المرصع يتألق فوق رأسها ، والزمردة التى استولت عليها من قلب فرعون تزين صدرها ويشع منها بريق يخطف البصر

بيد أن وجهها كان مكفهراً دا كناً . . ثم جلست ببطء وخاطبت رئيس التشريفات باليونانية قائلة :

— ادع السفير ليسمع جوابنا

فتح الباب على مصراعيه ودخل دليوس يتبعه رتل من الفرسان يلبسون الدروع الذهبية ، وكان يمشى مشية الهر المنتفخ الأوداج ، ثم وقف أخيرا أمام العرش وقال بصوت رقيق :

ـ أيتها الملكة العظيمة الحسناء ، لقد جئت لاتلقى جوابك على رسالة النبيل انطونى ، لأنى سأبحر غدا للقائه فى قيليقية وانى استميح مولاتى العذر على جرأتى حين أقول فكرى جيدا فى الكلمات التى ستقولينها قبل أن تخرج من شفتيك الجميلتين ، ففيها إسعادك وإسعاد شعبك ، كما فيها تحطيمك ، وتحطيم عرشك ، وملكك

ثم أحنى رأسه وعقد ذراعيه فوق صدره ووقف فى انتظار الجواب

لبثت كليوباترا هنيهة لاتحير جوابا ، صامتة كأبى الهول ، متطلعة بنظرات شاردة عبر القاعة

ثم أجابت بصوت موسيقى عذب . بينما وقفت صامتا واجف القلب

لسماع الرد :

— أيها النبيل دليوس ، لقد قلبنا الأمر على وجوهه ،فرأينا ان الكلمات التى حملتها الينا عبر البحر لهى كلمات جافة نابية ما كانت تليق أن تلقى على مسامع ملكة مصر !! ولقد أحصينا الجيش والأساطيل والأموال وخرجنا منها بنتيجة وهى انه اذا كان انطونى قويا فليس لمصر أن تخشى قوته ! ؟

ثم أعقبت ذلك فترة سكون وسرت فى القاعة همهمة الاستحسان واستطردت : أيها النبيل دليوس ، اننا أقوياء بحصوننا ، أقوياء بقلوب رجالنا البواسل ، ولكننا ابرياء من التهم التى وصلت الى مسامع انطونى والتى أرسل بردها بغلظة وخشونة علي مسامعنا ، ولذا فليس فى نيتنا قط السفر الى قيليقية للاجابة عنها .

ارتفعت همهمة الاستحسان مرة أخرى . بينا كان قلبى ينبض بشدة زهوا وفخاراً . ثم قطع دليوس حبل الصمت قائلا :

— أيتها الملكة المبجلة . إذن ستكون كلمتى إلى انطونى هى « الحرب »

فاجابت كليوباترا :

— كلا .. ستكون السلام . اصغ إلى . لقد قلت إننى لن أبحر لمقابلته للرد على التهم . ولكن (وهنا ابتسمت لأول مرة) سنذهب طوعا . ورضا وفى الحال ـ لنعلن صداقتنا وحبنا للسلام على شواطىء نهر سدنوس

شدهت . وأخذت منى الدهشة كل مأخذ . أيمكن أن يكون ما اسمعه حقيقيا ؟ !

طار صوابى . فرفعت صوتى قائلا : أيتها الملكة . تذكرى !

فاستدارت إلى كلبؤة مهتاجة وقالت :

— صه . أيها العبد ! من أمرك بأن تعكر صفو مجلسنا . اهتم أنت بشؤونك الفلكية . واترك امور العالم لحكامه

رجعت إلى الوراء خجلا . بينا ارتسمت على شفتى شارميون ابتسامة الظفر والتشفى . عليها ظل من الشفقة على سقوطى .

والتفتت كليوباترا إلى دليوس واستطردت :

— إذهب إلى سيدك وقل له إننا سنكون فى أثرك وسنكون عنده قبل أن يجد متسعا من الوقت لتنظيم استقبالنا . إلى اللقاء . ستجد فى سفينتك شيئا يدل على جودنا

فانحنى دليوس ثلاثا . وانسحب . بينما ظل المجلس ينتظر كلمة الملكة ووقفت أنا كذلك فى الانتظار متسائلا عما إذا كانت ستوفى بقسمها وتعلن زواجنا الملكى . ولكنها لم تنبس ببنت شفة بل وقفت مقطبة الجبين . ثم لم تلبث أن زايلت العرش وعبرت القاعة يتبعها الحرس

نظر إلى رجال البلاط بعيون هازئة . فرحة لسقوطى . ولكنى لم أعر. نظراتهم التفاتا بل وقفت يتنازعنى اليأس القاتل وأنا أرى الآمال التى بنيتها تنهار

الفصل الثالث عشر

ضربة رينوس

لم يبق فى القاعة سواى . . فتحولت ابغى الخروج . . ولكن أحد الخصيان ربت بخشونة على منكبى ودعانى لمقابلة الملكة . .

يالقسوة القدر . . هذا العبد الذى لم يك يتمنى منذ ساعة فقط إلا أن يجثو راكعاً تحت قدمى ، يتنمرلى الآن ويعاملنى بلغظة واحتقار !!

ويل للعظيم حين يسقط ! !

استدرت على عقبى بوحشية لمجابهة العبد الذى مالبث أن جبن وتبعنى كالكلب

دلفت الى حجرة المرمر . . وسمح لى الحراس بالدخول . . فوجدت كليوباترا جالسة وسط القاعة قرب النافورة ورفقتها شارميون والوصيفات فلما دخلت امرتهن كليوباترا بالانصراف

وبعد لحظة كنا وحيدين فى الغرفة .. فوقفت أمامها وجهاً لوجه رفعت انظارها الىّ للمرة الأولى وهتفت :

— ابق حيث أنت .. لاتقترب منى ياهارما كيس ، اننى لا أثق بك . .

اذ ما يدريني انك لاتخبئ لى خنجراً آخر . . والآن ماذا تريد أن تقول . . وبأى حق تجاسرت على قطع حديثى مع الرومانى ؟ !

أحسست بالدم يغلى حاراً فى عروقى . . وبعاصفة هوجاء تجتاح هدوئى وتملكنى غضب شديد . . فصحت :

— اجيبينى يا كليوباترا . . اين قسمك الذى اقسمته على قلب منقرع الحى الابدى ؟ ! اين تحديك للرومانى . . واين قسمك حين منيتنى ان تعلنى زواجك بى على رؤوس الاشهاد ؟

وهنا اختنق صوتى فلم استطع اتمام الحديث

اجابتنى بسخرية لاذعة :

— حسنا ! ! هل يلائم هرما كيس الآن ان يتكلم عن العهود . وهو . . ألم يحنث فى عهوده قط ! ؟ انت يا كاهن ايزيس الطاهر ! ! أيها الصديق الوفى ! الذى لم يخن اصدقاءه قط ! ! أيها الرجل الحازم الشريف المستقيم الذى لم يبع مبدأه وأمته . .وقضيته فى سبيل حب امرأة زائل ؟.

— لن أجيب على تأنيبك يا كليوباترا فانى حقيق به ، ولو أننى لا أستحقه منك . أنت ستذهبين الآن فى أبهى حللك لمقابلة أنطونى . . ستقيمون الولائم .. وتنغمسون فى الفجور . انك على وشك أن تبددى الكنز الذى انتزعته من جسم منقرع . ذلك الكنز الذى كان ذخرا لسد حاجات مصر . ولكنك تتبعت أهواءك وستجلبين على مصر العار . . كيف لم تبرى أنت باقسامك ! انت يامن أحببتك . . ووثقت فيك ؟! لقد خدعتنى بنذالة ! . ألم تقسمى لى الليلة الماضية أن تتخذى منى زوجا !. والآن تعيرينى وتجلبين على العار .. حتى أمام ذلك الرومانى !

— أتزوجك ! أأنزل عن حريتى طائعة مختارة واقبل الذل والاستعباد كلا . هذا لن يكون . اننى أحب ياهارما كيس ولكنى لا أتزوج .

فلم أتمالك أن صحت محتدما :

— كليوباترا . لقد أقسمت أن تحمى مصر . . وها أنت على وشك تسليمها الى الرومان — لقد أقسمت أن تتخذى من الكنوز التى أفشيت

لك سرها عونا على رفعة مصر وها أنت على وشك أن تتخذيها كوسائل لجلب العار عليها ! .

لقد أقسمت على الزواج منى .. وها أنت تسخرين منى وترفضيننى .

اذن فلتسقط على رأسك لعنة منقرع .. دعينى أذهب اذن أيتها « العار » أيتها « الكذبة » التى تدب على قدمين . ! دعينى أختف ولا أرى وجهك مرة أخرى .

فنهضت غاضبة وصاحت :

— أدعك تذهب لتثير ضدى المتاعب وتنسج حولى وحول عرشى الشباك ؟ ! . كلا ياهارما كيس . ستذهب معى لزيارة انطونى فى قيليقيه .. وهناك قد أنظر فى أمر اطلاق سراحك

وقبل أن أحير جوابا ضربت الناقوس الفضى الموجود بجوارها فدخلت شارميون مع الوصيفات من أحد الأبواب ومن الباب الآخر دخلت فرقة من الجنود وأربعة من حرس الملكة الأشداء . فصاحت قائلة :

— اقبضوا على هذا الخائن ! !

فادى رئيس الحرس برينوس التحية . وتقدم نحوى شاهراً سيفه

ولكنى كنت قد بلغت أقصى حالات اليأس ولم أعد أبالى بشىء . فانقضضت عليه وعالجته بضربة شديدة جعلته يسقط على الأرض فاقد الوعى . واستللت سيفه وواجهت رفيقه وهويت به على درعه بجمع قوتى فاخطأه وفصل الرأس عن الجسد . فسقط صريعا .. وعندما انقض على الثالث عاجلته بذباب حسامى فاخترق جسده ولحق برفيقه . فانقض على الأخير وهو يصيح بملء حنجرته : « تارانس ! » فلم أمهله وأقبلت عليه بدورى ودمى يلتهب فى عروقى . فصرخت الوصيفات من هول الموقف . ولكن كليوباترا وقفت صامتة تراقب تلك المعركة غير المتكافئة

ضربته بكل قوتى . فاصابت الضربة الدرع وحطمت سيفى .. وتركتنى أعزل . فصاح الحارس صيحة النصر وهوى بالسيف على أم رأسى . ولكنى اتقيته بدرعى .. فأعقبها باخرى واتقيتها كذلك . فرفع يده للمرة الثالثة ..

فوجدت انها حال غير مجدية . فقذفت بالترس فى وجهه . فارتد الى الوراء وهو يترنح . فامسكت به قبل أن يسترد توازنه

التحمنا جسما لجسم . فى معركة عنيفة رهيبة . كان سلاحها القوة . الجثمانية وأخيرا تمكنت بفضل قوتى أن أرفعه بين يدى والقى به على الأرض فدكت أضلاعه ولم يستطع أن ينطق بكلمة .

ولكنى لم استطع التماسك فسقطت فوقه .. وهنا كان الكابتن برينوس قد أفاق فاقبل من خلفى . . وضربنى بسيف أحد القتلى على رأسى ومنكبى ولكن الضربة فقدت شدتها لأننى كنت ممدداً على الأرض .. ولأن قلنسوتى وشعرى الكثيف قد خففا من حدتها كذلك . . فلم أمت . . ولكنى . . جرحت جرحا بليغا ..

حينئذ تقدم الخصيان الجبناء كقطيع من الماشية شاهرين المدى ابتغاء تمزيقى .. ولكن برينوس كان قد كف عن الضرب حين رآنى ملقى على الارض .

حينئذ تقدمت شارميون .. وحالت بينى وبينهم كما تقدم برينوس ودفعهم بيده بعيداً ثم التفت الى الملكة وقال بلهجته اللاتينية الخشنة :

— ابقى على حياته ايتها الملكة .. بحق جوبيتر انه رجل شجاع . . لقد هويت كالثور . وثلاثة من رجالى سقطوا بتأثير ضرباته . . ابقى عليه ايتها الملكة الطيبة .. وهبيه لى . .

فصاحت شارميون وهى تهتز .. ووجهها شاحب : ابقى عليه . . ابقى عليه

فاقتربت كليوباترا .. وتطلعت إلى الموتى.. ثم الىّ . انا عشيقها من يومين فقط . فالتقت نظراتنا وصحت :

— كلا .. لا تبقى على . والويل للمغلوب

فاصطبغت وجنتاها بحمرة .. اظنها حمرة الخجل

فضحكت ضحكة قصيرة وهتفت :

— أنت تحبين هذا الرجل يا شارميون ؟. حتى القيت بجسمك الرقيق بينه وبين الخصيان .. تلك الكلاب التي لا وطن لها

فاجابت الفتاة بحدة : كلا . ولـكنى لم استطع أن ارى مثل هذا الرجل الشجاع يذهب غنيمة باردة لتلك الـكلاب القذرة ! !

فقالت كليوباترا :

— نعم . . إنه لشجاع حقاً . . ولم أر حربا بمثـل تلك الشدة حتى بين العاب الرومان ، حسناً . سأبقى على حياته ولو أنه يعـد منى ضعفاً . . ضعفاً نسائياً . . خذوه إلى حجرته . . واحرسوه إلى أن يشفى أو يموت

.وهنا أصبت باغماء . . وغبت عن الوجود

* * *

أحلام . . أحلام لا نهاية لهـا . . وهى أبداً متغيرة . . وكنت أسمع فى آخر تلك الأحلام : « امح اسم هارما كيس ابن الارض من سجل الحياة » فيجيبه صوت آخر : « لم يحن الحين بعد . . مازال فى الوقت متسع للتـكفير . لا تمح اسم هارما كيس ابن الارض من سجل الحياة . »

أفقت فوجدت نفسى فى غرفتى فى برج القصر . . ضعيفاً خائر القوى وفجأة سمعت حفيف ثوب ثم خطوات خفيفة سريعة . . عرفتها جيداً . . اذ كانت خطوات كليوباترا .

دلفت الملـكة الى الغرفة واقتربت منى . . فانتابنى شعور متبـاين من الحب والـكراهية . . وقامت فى نفسى ثورة هائلة

ومالت كليوباترا فوقى الى أن مست شفتاها جبينى وهمست :

— أيها الرجـل المسـكين .

أيها الرجـل الضعيف الذي يجود بأنفاسه الأخيرة . . لقد عاملك القدر بقسوة . . انك أعظم من أن تـكون

ألعوبة فى يد امرأ : مثلى .. كان يجب أن يكون لك الفوز فى النهاية . ولكن الكهنة الذين لقنوك علم الآلهة وحكمتها . . لم يعلموك معرفة الجنس البشرى ولم يحصنوك ضد انون الطبيعة . . انك تحبنى من كل قلبك ومن كل نفسك . . ليتنى ستطيع أن أحبك كما تحبنى . . ولكن قلبى كالمدينة الحصينة من الصعب التغلب عليه .. آه ! ! من لى بشهر . . بل بيوم . . بل بساعة . . انسى فيها الملك وأعباء السياسة وأستطيع أن أكون فيها امرأة مغرمة . . استودعك الله يا هارما كيس . . . اذهب والحق بقيصر الذى خدعته كما خدعتك . . ولكن من يدرى . . ربما شاء القدر أن يخدعنى فى النهاية . . الى اللقاء يا هارما كيس .

وعندما همت بالذهاب . سمعت حفيف ثوب امرأة أخرى فقالت :

— أهذه أنت يا شارميون . ان الرجل يموت رغم سهرك عليه

فأجابت الفتاة وفى صوتها رنة حزن :

— نعم أيتها الملكة . هكذا يقول الاطباء . لقد قضى أربعين ساعة فى غيبوبة . والآن لا تكاد أذناى تسمعان دقات قلبه . وقد ذبلت عيناى من السهر واضمحل جسمى من الاعياء . . أتكون هذه نهاية عملى ! ! لقد أصابت ضربة برينوس اللعين الهدف . فان هارما كيس يموت

— ان الحب لا يعرف للمتاعب معنى يا شارميون . . ولا يحسب للآلام حسابا

— انني لا أحبه أيتها الملكة . كما برهنت لك من قبل . . أو يمكن أن أحب رجلا أراد اغتيالك . اننى أتولى تمريضه شفقة به فحسب

فضحكت كليوبترا وأجابت :

— ان الحب توأم الشفقة يا شارميون . مسكينة أنت أيتها الفتاة . ان الحب يكاد يصهرك . . وهو يتقاذفك كيف يشاء . فأنت أرق من نسيم الصباح عند ما يبتسم . وكالبحر الصاخب عند ما تنشب الغيرة أظفارها فى قلبك

ولكن لا عجب . فهكذا خلقنا . ولن يبقى لنا بعد المتاعب غير الدموع وتأنيب الضمير . والذكرى

الفصل الرابع عشر

لبثت هنيهة بعد انصراف كليوباترا استجمع قواى للكلام . . ولكنى شعرت بشارميون تقف الى جوارى وأحسست بدمعة حارة تسقط على وجهى وهمست :

— انك ذاهب يا هارما كيس .. ذاهب الى حيث لا استطيع اللحاق بك آه ! ! اننى لأتنازل عن حياتى بكل رضى فداء لحياتك .

ففتحت عينى ببطء وغمغمت بخفوت شديد :

— اكبتى أحزانك أيتها الصديقة العزيزة . إنى ما زلت حيا بعد . . . والواقع اننى أشعر كأنما حياة جديدة تتجمع فى صدرى .

فصرخت صرخة الفرح . ولم أر أجمل من ذلك التغيير الذى طرأ على وجهها الحزين . فالتمعت عيناها السوداوان وارتسمت على ثغرها ابتسامة عذبة . ثم تهالكت بجانب الفراش وصاحت :

— إنك حى . إنك حى . وأنا التى ظننت أنك ستفارق الحياة وشيكا آه . ماذا أقول ؟ ! ما أحمق قلب المرأة ! كلا . نم واسترح يا هارما كيس لا تنبس ببنت شفة .. أين الجرعة التى تركها الطبيب الاحمق ؟ . كلا . لا تتجرع شيئا . ولكن نم يا هارما كيس . نم . .

وعندما استيقظت وجدتها ما زالت حيث هى . ولكن أنوار الفجر كانت تطل من الكوة . وظلت جاثية بجانبى ويدها الباردة على جبينى وقد أسندت رأسها بذراعها . فهمست قائلا :

— هل نمت يا شارميون ؟

فاستيقظت فى التو وحملقت فى بعينين مسبلتين حنانا وقالت :

— نعم .. لقد نمت يا هارما كيس

— كم ساعة ؟ . — تسع ساعات

— وأنت قد أخذت مكانك بجانبي طوال هذه المدة ؟

— نعم . ولـكن ليس هذا شيئا . فقد نمت أنا أيضـا . إذ خشيت أن أوقظك إن أنا تحركت

— اذهبي وخذى قسطك من الراحة . إنه من دواعى خجلى أن افـكر فى هذا . اذهبي واستريحى يا شارميون

— لا تقلق نفسك . سأدعو أحد الارقاء ليسهر على خـدمتك . وإذا كنت بحاجة إلى شىء فاوقظنى . سأنام فى الغرفة الخارجية

وقد حاولت القيام .. ولـكنها كانت منهوكة القوى . فلم تلبث أن سقطت ممددة على الارض

لشد ما شعرت بالخجـل من نفسى حين رأيتها تسقط . وأنا لا أستطيع أن أمد لها يد المساعدة

وقالت الفتاة : إياك أن تتحرك . .

ثم حاولت القيام مرة أخرى ولـكنها سقطت أيضا ، فقالت :

— تباً لى . . لابد ان أكون نائمة ، سأرسل اليك الخادم الآن

ثم تحاملت على قدميها ونهضت . . وسارت فى طريقها تترنح ترنح الثمـل استغرقت فى النوم على الأثر لاننى كنت متعبا .. ولما استيقظت بعد الظهر التهمت الطعام الذى احضرته لى شارميون ، ثم هتفت قائلا :

— لقد أكلت .. إذن لم أمت بعد

— كلا .. انك ستعيش .. لقد حبوتك بعطفى وحنانى

— ان عطفك هو الذى رد الىّ الحياة

فأجابت بغير اكتراث : لاشىء . . وفوق كل ذلك فأنت ابن عمى . . وأنا أحب التمريض .. انه تجارة المرأة .. ولو كان مكانك خادم لما أوليته من عنايتي أقل مما أوليتك

— لقد كان الأجدر بك أن تدعينى أموت ياشارميون .. لأن حياتى لن تـكون إلا عاراً متصلا .. خبرينى متى ستبحر كليوباترا الى قيليقية ؟.

— بعد عشرين يوما .. وقد أعدت عدتها للرحيل فانفقت على زينتها مالم تسمع به اذن . . وفى الحقيقة لست أدرى من أين أتت بهذا المال كله . .

فأرسلت اينيا مرآ ولم أجب .. ثم سألتها :

— وهل ستذهبين كذلك ياشارميون ؟ .

— نعم .. وجميع البلاط كذلك .. وأنت أيضا ستذهب

— أنا ؟ ! كلا . . ولم ؟

— لأنك عبد لكليوباترا .. ويجب أن تسير مكبلا بسلاسل ذهبية خلف المركبة . ولأنها تخشى أن تتركك فى مصر

— شارميون . ! ألا من سبيل الى الفرار ؟

— الفرار . اناك رجل ضعيف . مريض، فكيف تفر ؟ ! وعلاوة على ذلك فانه مفروض عليك رقابة شديدة . وإذا هربت فالى أين تذهب ؟ لن تجد فى مصر إلا من يكن لك كل احتقار .

فتأوهت مرة أخرى من أعماقى . . وشعرت بدمعى يجرى على وجنتى فقالت شارميون بسرعة . وقد أشاحت بوجهها :

— لا تبك . . كن رجلا وتغلب على متاعبك . . لقد زرعت ويجب أن تحصد . . ولكن بعد الحصاد سترتفع المياه وتكتسح الجذور الفاسدة ثم تظهر البذور الجديدة .. وربما واتتك الفرصة فى قيليقيه حينما تكون قد استرددت قوتك . . هذا اذا كنت تحتمل العيش بعيدا عن ابتسامة كليوباترا . . وحينئذ يجب أن تعيس فى أرض سحيقة الى أن ينسى كل شىء والآن الى الملتقى . . سأحضر بين الحين والحين لزيارتك ولقضاء ماعسى أن تكون بحاجة اليه

ولما انصرفت شارميون .. تولى تمريضى طبيب وخادمتان . . وعندما برؤ الجرح استرددت قواى . . ولم تمض أربعة أيام حتى غادرت الفراش وبعد ثلاثة أخر تمكنت من السير فى الحديقة . . وبعد أسبوع استطعت أن أقرأ وأفكر .

وأخيرا جاءتنى شارميون بعد ظهر أحد الأيام وطلبت منى أن أعد العدة للابحار بعد يومين الى قيليقية

فكتبت الى كليوباترا أرجوها أن تسمح بتركى محتجا بضعف صحتى

ولـكنها أبت . . وصممت على ذهابى معها

وفى اليوم المعين حملت على محفة الى القارب وكان يصحبنى بريبنوس وبعض جنوده . . ولم يأتوا الا لحراستى.

أبحر الأسطول على اثر تلقى الاشارة فمررنا فى اليوم التـالى على سوريا ولبنان إلى أن وصلنا أخيراً إلى مصب نهر سدنوس

عادت إلى قواى بفضل نسيم البحر العليل .. وقد أصبحت كما كنت أولا لولا ذلك الخط الأبيض فى رأسى وهو أثر التحام الجرح

وبينا كنا جالسين منفردين أنا وبرينوس ذات أمسية .. وقعت عينه على ذلك الخط الابيض فاقسم بآلهته ايمانا مغلظة قائلا :

— لوأنك مت ياهارما كيس ، لما كان فى مكنتى أن أرفع رأسى بعد ذلك ! يالها من ضربة جبان ! ! اننى اخجل من نفسى كلما تذكرت اننى انا الذى طعنتك من الخلف وأنت ممدد على الأرض ! ! ألا تعلم أننى كنت آتى يوميا الاستفسار عنك ؟ قلت :

— لاترعج نفسك يابرينوس . . لقد اديت واجبك

— قد يكون واجبا .. ولـكن هناك من الواجبـات ما لايليق بالرجـل الشريف ان يؤديه حتى ولو كان بأمر ملـكة مصر . . ماهذا . . ايها الصبى ؟ ألست على وفاق مع ملـكتنا ؟لم يسجنونك هكذا فى مثل تلك الرحلة السارة؟ ألاتعلم اننا مكلفون بمراقبتك بشدة وان هربك قد ندفع حياتنا له ثمناً ؟ !

فاجبت :

— أجل . . اننى على غير وفاق مع الملـكة ياصديق . . ولـكن لاتسألنى المزيد.

— اذن . . فلابد أن فى المسـألة امرأة ؟ فماذا تقول ايهـا الصبى . ؟ اصغ إلى . .

لقد سئمت خدمة كليوباترا . . وملات العمل فى تلك الأراضى الحارة ذات الصحارى . . واللهو . دعنا اذن نستقل احدى السـفن ونذهب إلى الشمال . . . سأقودك إلى بلاد أفضل من مصر حيث البحيرات

والجبـال والغابات . والصنوبر ذو الرائحة الزكية . .وحيث تجد هناك فتاة تصلح لك زوجة — وهى ابنة أخى — فتاة قوية .. مديدة القامة .. ذات عينين زرقاوين وشعر طويل . . وذراعـين قد تسحقان أضلاعك اذا ما فكرت فى عناقك . فما تقول فى ذلك ؟. هيا . ودع الماضى جانبا . دعنا نذهب الى أرض الشمال الطيبة . وكن لى ولدا .

فكرت فى الأمر لحظة ولـكنى هززت رأسى فى أسف . لانه ولو أننى كنت جـد راغب فى الذهاب . إلا أننى كنت أعلم أن مصيرى مرتبط بمصر فقلت :

— لن يكون ذلك يابرينوس . لأن القدر قد ربط مصيرى بارض مصر برباط لا أستطيع منه فكاكا . ففى أرض مصر سأحيا . وسأموت .

فقال المحارب الشيخ :

— لك ماتريد يابنى . لقد كنت أرجو أن آزوجك واتخذك لى ولدا ولـكن تذكر دائما أن لك فى برينوس خير صـديق . وثمت شىء آخر . الزم دائما جانب الحذر من ملـكتك الجميـلة . لانه قد يأتى الوقت الذى تظن فيه انك قد علمت من أمرها أكثر مما يجب . وعند ذلك .. — ثم مر بيده على عنقه اشارة الى الذبح — والآن .طاب مساؤك . عليك بقدح من النبيذ واذهب الى فراشك . . لان الجهالة . .

(هنا بعض صفحات من أوراق البردى أصابها العطب فاصبح من المتعذر فك رموزها . والظاهر انها كانت وصف رحلة كليوباترا الى طرسوس)

ثم يأتى بعد ذلك مايلى :

لقد كان المظهر جميلا يأخـذ بالألباب . فمقدمة السفينة موشاة بالذهب ومجاذيفها من الفضة . وكانت كليوباترا مضطجعة تحت مظلة تتوهج بالخيوط الذهبية . . وعليها ثوب من الحرير الناصع البياض ومتمنطقة بحزام من ذهب ذى نقوش بديعة .

سرنا تحف بنا المهابة والعظمة . . وكلمـا وصلنا الى بلدة تجمع أهلها لتحيتنا قائلين « لقد أشرقت (الزهرة) من البحر واتت لزيارة باخوس »

اقتربنا من المدينة فازدحم الأهالى لتحيتنا واستقبالنا

وأقبل انطونيوس بطلعته الملـكية يحيط به قواده وما آن وقعت عيناه على كليوباترا حتى وقف مشدوها . وعندما نظرت اليـه تورد وجهها فنهشت الغيرة قلبى . . ورأت شارميون ذلك فأرخت عينيها . وابتسمت

ولم تنطق كليوباترا بكلمة بل مدت اليه يدها البضة لتقبيلهـا ثم قالت بصوتها الموسيقى العذب :

ـــ انظر أيها النبيل انطونى . . . لقـد دعوتنى . وهأنذا قد لبيت . .

فاجابها بصوت عميق . . وعيناه لاتزالان شاخصتين الى وجهها :

ـ ان ڤينيس «إله الحب» قد حضرت . لقد دعوت امرأه . ولـكن جاءتنى آلهة .

فضحكت وقالت بديهتها الحاضرة :

ـــ لتجد إلها يحبها على الأرض . . لندع المجاملات لحظة . . لأن فينيس جائعة ؟ . . أيها النبيل انطونى . . اعطنى يدك

ونفخ فى البوق . . وسارت كليوباترا ويدها فى يد انطونى بين صفين من الجموع الغفيرة . . الى المأدبة

(هنا بعض أوراق من البردى غير مقروءة)

الفصل الخامس عشر

عهد كليوباترا

وفى الليلة الثالثة أقامت كليوباترا مأدبة فاخرة فى صالة القصر الـكبير الذى خصص لاقامتها . . وكانت حفلة رائعة فاقت كل ماعداها .

وقد أمرت أن أقف خلف الوسادة التى اتـكأت عليها كليوباترا ، مع شارميون وباقى الوصيفات كعبد رقيق . . ولـكنى أقسمت لتـكونن هـذه آخر مرة احتمل فيها هذا العار . . فقد طفح الـكيل . . ففضلا عن علمى من شارميون بان كليوباترا ستصير عشيقة لانطونى . . فانها لم تـكن تعاملنى إلا كرق . . وكانت تجد لذة فى تعذيبى على هذه الصورة .

وعند انتهاء المأدبة تطلع انطونى الى ماحوله من أبهـة وجلال وهتف متسائلا :

— ألا خبرينى أيتها الحبيبة . هل تتحول رمال النيل فى يديك الى ذهب حتى صار فى استطاعتك أن تنفق على مأدبة ليـلة مايوازي فدية ملك ؟ ! من أين لك تلك الثروة ؟ .

وحينئذ تذكرت قبر منقرع المقدس وكنوزه التى بعثرت هباء .وتطلعت الى كليوباترا فرأيتها ترمقنى وكأنما قرأت خواطرى . . فعبست . ثم قالت :

— ماذا أيها النبيل أنطونى . . ان هذا لايعد شيئا مذكورا

ألا خبرنى كم تظن قيمة تلك الآنيـة الذهبية . . وما قدم فى المأدبة من لحوم وخمر ؟

— اظن انها تساوى حوالى الثمانية آلاف جنيه .!

— هذا تقدير يوازى النصف أيها النبيل انطونى . . ولـكنى سـأريك ماهو أعجب وأغرب . سأشرب فى جرعة واحدة . ما يوازى عشرة أمثال هذا المبلغ !

— هل يمكن هذا أيتها الملـكة الجميلة ؟ !

فضحكت . ثم أمرت أحد الخدم باحضار قليل من الخل الأبيض فى قدح ثم نزعت من أذنها إحدى تلك اللآلىء التى انتزعتهامن قلب فرعون. وبدون أن يخمن احد ما هى صانعة . ألقت بالجوهرة فى الخل . فساد صمت العجب وسرعان ماذابت اللؤلؤة فى الحامض القوى . . فتناولت كليوباترا الـكأس وشربتها حتى الثمالة

اذذاك صحت مـدفوعا بشىء لا أدرى كنهه :

— لقد حلت الساعة أيتها الملـكة ولعنة منقرع لابد آتية

فعلا وجه كليوباترا الشحوب . .

والتفتت الى مهتاجة . بينا تطلع الجميع الىّ فى عجب !. ثم صاحت قائلة :

— أيها العبد المنجم . إذا عدت لمثل هذا الكلام مرة أخرى فسأعاقبك ضربا بالسياط

فسأل انطونى :

— ماذا تعنى بقولها أيها العبد المنجم ؟ أفصح .. وزدنا ايضاحا .

فاجبت بخضوع :

— اننى خادم الآلهة ايها النبيل انطونى . . وما تريدنى الآلهة أن أقوله فانى أقوله ولكنى لست بمستطيع له تفسيراً

فقالت كليوباترا وقد نفد صبرها :

— دع العبد وشأنه ياسيدى . غدا نتخلص منه . اذهب ايها العبد

انحنيت وانصرفت . وانتظرت لحظة خارج الباب لا أدرى ماذا اصنع وبينا كنت واقفا . اذ شعرت بيد تلمسنى . واذا بها شارميون وقد انسلت من المأدبة إبان الهرج الذى حدث

لقد كانت شارميون دائما بجانبي فى وقت الشدة !

همست قائلة :

— اتبعنى . ان الخطر يحلق فوق رأسك

— إلى أين ؟

— إلى حجرتى . . ولا تخش لومة لائم . . فذلك هو الحال فى بلاط كليوباترا ! !

فتبعتها وصعدنا الدرج ودلفت إلى غرفة مظلمة على اليسار وجلسنا

هتفت شارميون :

— هل تعلم ماذا قالت كليوباترا بشأنك فى غرفة المائدة ؟

— كلا .. ماذا قالت ؟

— لقد أقسمت بحق سيرابيس أن تتخلص منك فى الغد . . وثق انها لن تنتظر اكثر من ذلك

— لا أكاد أصدق انها تقدم على قتلى !!

— لم لا تصدق ايها الأحمق ؟! هل منعت هي عنك الموت فى غرفة المرمر عندما كان الخصيان على وشك الفتك بك !.. سأريك مبلغ حمقك . صبرا . وسأجعلك ترى بعينى رأسك ..!!

وسرعان ما أطفأت المصباح . . وقادتنى إلى ركن الحجرة . . وفتحت بابا دلفنا منه إلى قاعة أخرى صغيرة .. ثم امرتنى بالتزام الصمت التام .

وفى هذه اللحظة سمعت أصواتا لا أدرى من أين هى صادرة !!. ثم دفعتنى إلى أحد جدران الغرفة رأيت فيه فتحات تطل على قاعة أخرى . وقع بصرى منها على كليوباترا مضطجعة على وسادتها الموشاة بالذهب . . وبجانبها انطونى ! وقد انهمكا فى الحديث .. كانت تقول له :

— خبرنى أيها النبيل انطونى . هل سرك ما رأيت فى مأديتنا المتواضعة ؟

— نعم يا سيدتى . . انى وايم الحق لم أر فى حياتى مأدبة لها مثل هـذه الفخامة والأبهة .. ولقد كنت ريحانة الحفلة . . فحمرة الخمر لم تك على شيء من حمرة خديك . . ورائحـة الورد لم يكن لها عبير شعرك . . ولم يك سحر يعادل سحر عينيك الجميلتين ..

— ماذا ؟! أأسمع مثل هذا الاطراء من انطونى ؟. وهو الذى وجه الينا بالأمس قوارص الـكلم ؟!

— لقد كانت وأيم الصدق حفلة بلغت غاية الروعة . . ولـكن لم تكن خالصة من شوائب الـكدر . . فقد أمضتنى كلمات ذلك المنجم النحس !

— لا تلق بالا إلى ما قال . . فقد أصيب بضربة على رأسه أخيرا سببت له خبلا

— ولـكننى لم أر عليه سيماء الخبل .. لقد أحست كأن صوته هو صوت القدر ! . . ورأيتـه ينظر اليك بعينين نفاذتين كعينى مدنف صب هجرته حبيبته . . أنى وحق باخوس بدأت أشعر بغيرة من هذا العبد ! .

— لن تأخذك منه غيرة بعد الآن . . فغداً . . فى الصباح . . يكون قد قضى ؟

والآن أيها النبيل أنطونى . . كن جليسى لفترة وجيزة واخلع عن

رأسك هذا التاج لأنه يسبب لى بعض الألم فى جبينى . . ولـكن كن رقيقا . ولا تؤذنى . !

نزع انطونى التاج . . وهزت كليوبترا رأسها فانسـدل شعرها ولفت غدائره جسمها الفاتن البض

ثم هتف أنطونى :

— أيتها الأميرة الملـكية . . خذى تاجك ثانية من يدى . . لن أسلبه منك ، ولـكنى سأثبته على جبينك الوضاء .

— ماذا تعنى أيها الأمير ؟

— ماذا أعنى ؟! . انك تعلمين قبل غيرك ما فى الاتهامات السياسية التى وجهت اليـك من صحة . . تلك الاتهامات التى كانت كفيلة بنزع التاج عن رأس أى ملك بالغة ما بلغت قوته . . ولـكن الأمر يختلف بالنسبة اليك . . فالطبيعة قد وهبتك جمالا .. وجادت عليك بملاحة لم تجد بها على امرأة قبلك ولاجل هذا الجمال الساحر وتلك الملاحة الفاتنة قد عفوت عن كل شىء .

— ما أنبل ما نطقت به شفتاك .. أى فاتح العالم ! اذا كنت قد اخطأت فى الماضى فلم يك ذلك إلا لأننى لم أكن قد عرفت انطونى بعد .. اذ من يعرف أنطونى ويخطىء حياله ؟ ! أنطونى معبود النساء وفاتح مغاليق قلوبهن كما تتفتح الزهور تحت حرارة الشمس . !

اى انطونى .. ثبت التاج على جبينى . . وسأقبله كهدية منك . . وسأعتز به وأحافظ عليه .. لهذا السبب

سـأكون به ملـكة مصر .. وأنت امـبراطور روما وأمـير مصر المقدس !! .

وضـع انطونى التاج على جدائلها الذهبيـة . . ووقف يلتهمها بعينيـه الزاغبتين النهمتين . . ثم احتواها بين ذراعيه . . وقبلها ثلاثا

تخلصت من قبضته برفق وهى تبتسم . . ابتسـامة رقيقة . . وبينا هى تنسحب اذ سقط الثعبان الذهبى المقدس عن جبينها . . دون أن يشعرا به فى غمرة غرامهما

رأيت هذا النذير . . وأدركت ماسوف تكون نتائجه

ثم هتف انطونى :

— ألا تستطيعين أن تحبينى يا كليوباترا وتكونى لى الوفية المخلصة ؟

— انى لم أشعر بان حياتى شيئاً حتى هذه الليلة السعيدة التى تذوقت فيها الحب الحقيق . . خذنى بين ذراعيك ودعنا نقسم كلانا قسم الحب العظيم . . أى انطونى . . من الآن . . وإلى الأبد . . سأكون لك الوفاء بعينه . . ولن أكون إلا لك . . ولك وحدك . .

لم يعد يعوزنى الدليل للتأكد من غدر كليوباترا بعد ذلك . . فتناولت شارميون يدى واجتذبتنى إلى الناحية الأخرى وقالت :

— هل رأيت اليها ؟

— نعم . . لقد تفتحت عيناى . .

الفصل السادس عشر

اعتراف شارميون

جلست لحظة مطرق الرأس . . وقد شعرت فى اعماق قلبى بمرارة الذل والعار . . تلك اذن هى النهاية . ! الأجل هذا حنثت بايمانى . . وافشيت لها سر الأهرام . . وفقدت تاجى . . وشرفى . . وربما أملى فى السماء . !

هل يوجد فى هذا العالم رجل قد أغرقته لجة الأحزان كما أغرقتنى . . . لكن ماذا كان يسعنى أن أفعل

وفى غمرة ذلك الحزن المبرح .. شعرت بأن قلبى يوشك على الانفجار . ثم انثالت الدموع من عينى غزاراً . . وبكيت أحر بكاء ! !

اقتربت منى شارميون . . وكانت هى الأخرى تنتحب . . وقالت :

— لا تبك يا هارما كيس . . اننى لا أحتمل أن أراك منتحبا . . . أكنت تفضل ألا أحذرك ؟ . لقد سمعت مافاهت به تلك المرأة المتنمرة الفاجرة .. ستسلمك غداً إلى أيدى القتلة .!!

— هذا حسن

— كلا . . ليس حسناً يا هارما كيس . . لاتمكنها من جنى ثمرة النصر الأخيرة . . لقد فقدت كل شىء إلا الحياة . . ومع الحياة يعيش الأمل وبالأمل قد تسنح الفرصة للانتقام . ؟ !

فقفزت من فوق المقعد وهتفت :

— الانتقام . . نعم . . لم أفكر فيه من قبل ؟ ! نعم ما ألذ أن ينتقم الانسان لنفسه

— نعم . . حلو هو الانتقام . . يا هارما كيس ! ! ولو أنه كالسهم الذى يصيب راميه حين اطلاقه . ! ! يجب أن تهرب قبل انبثاق الفجر . . . وهذه خطتى . اصغ الى :

غداً قبل الفجر ستبحر سفينه تجارية راجعة إلى الاسكندرية . . . وسأحضر لك ملابس تاجر سورى وأزودك بخطاب توصية إلى الربان . . وسيكون برينوس فى الحراسة هذه الليلة . . وبرينوس صديقى ، وصديقك أيضا . فما قولك ؟

فأجبت بضجر :

— حسناً . .

وجلست منتظراً . . مكدود الذهن . والواقع أنه لولا تلك الرغبة الملحة فى الانتقام . لطاش صوابى .

أخيراً سمعت صوت وقع أقدامها فى الخارج ودخلت بخطوات متثاقلة وقالت :

— هاهو الرداء . . وقد حصلت لك على كلمة السر من برينوس وهى « أنطونى » وهوذا الخطاب إلى الربان . . والآن سأنتظر بالخارج ريثما تستبدل ثيابك

مزقت الثياب التى كنت أرتديها . . وبصقت عليها ثم ألقيتها فوق الأرض ووطئتها بقدمى . . وارتديت الثوب السورى . وعاونتنى شارميون على تغيير ملامحى . حتى غدت هى نفسها لا تكاد تعرفنى بهيئتى الجديدة

ثم ناولتنى كيسا من النقود وقالت :

— خذ هذا . لأنك ستحتاج فى رحلتك الى النقود

— لا أستطيع أن آخذ من مالك يا شارميون . !

— كلا . خذه . لقد أعطانية « سيبا » للانفاق منه على قضيتنا . . وإذا احتجت أنا الى شىء من النقود فسآخذ من سيدى العتيد انطونى

ثم عاونتنى على اعدد المعدات اللازمة للسفر . قلت :

— لقد حان وقت الرحيل . على ما أعتقد

— كلا . صبرا يا هارما كيس . احتمل وجودى معك ساعة أخرى فقد لا نلتقى بعد ذلك أبدا . انى أرجو عفوك ياهارما كيس اذ قد ألقى على مسامعك كلمات شديدة الوطأة قبل رحيلك

— قولى ما تريدين . فلن يكون للكلمات علىّ بعد ذلك من تأثير . بالغة ما بلغت مرارتها !

فوقفت أمامى ويداها على صدرها . . ونور المصباح يضىء محياها المشرق ثم تكلمت أخيرا بما يشبه الهمس :

— عسير علىّ أن أدعك تذهب يا هارما كيس دون أن تعرف الحقيقة لقد كنت أنا يا هارما كيس التى أفشيت سرك

فقفزت واقفا . . وشرر الغضب يتطاير من عينى . وأوشكت أن أصب لعناتى على رأسها . ولكنها أمسكتنى من يدى . وهتفت :

— اجلس . ريثما تستمع الى بقية القصة وعندها لك أن تفعل بى ما ما تريد . اصغ الى . منذ أن وقع بصرى عليك . وقد نفذ حبك الى قلبى وملك على تفكيرى ومشاعرى . ولكنك لم تكترث بى . وأبديت نحوى برودا واعراضا . بل ما هو أشد من ذلك وانكى . فانك لم تعتبرنى الا كآلة فى يدك تستخدمها لبلوغ مآربك . بينما كان كل اهتمامك . واعزازك موجها الى كليوباترا . طاش صوابى واستبد بى الغضت وتملكتنى روح شريرة لا أدرى كنهها . وشعرت بتلك الروح تدفعنى الى الجريمة . . فذهبت — يالخجلى وعارى — الى كليوباترا . وأفشيت لها سرك . وخنت قضيتنا المقدسة وقلت لها انى قد عثرت على ورقة مكتوبة سقطت منك . وقرأت ما بها .

أخذت الهث . ولـكنى ظللت واجمـا . متطلعا الى الفتاة بعينين ملؤهما الحزن والاسى . فاستطردت :

— دعنى أقص عليك جريمتى كلها يا هارما كيس . وليأخذ العدل بعد ذلك مجراه . !

كانت كليوباترا قد بدأت تحبك . . وفكرت جديا فى أمر اتخاذك زوجا لها . . وا كراما لهذا الحب صفحت عمن اشتركوا معك فى المؤامرة . ولقد كان فى نيتها ان تبر بوعدها وان تجعلك زوجا لها .. ولـكن حدث عندما جاء دليوس لتلقى الجواب . ان طلبت منى المشورة فى الأمر . هل تعلن العـداء لانطونى . وتتزوج منك . أم تطرح هذه المسألة ظهريا. وتذهب الى انطونى ؟ وهنا ـ لا بد ان تدرك مبلغ شناعة جرمى ـ نصحتها ان تذهب الى انطوني لانى تكهنت انه لا بد واقع فى شرك غرامها . . لقد دفعتنى غيرتى العمياء الى ارتكاب هـذا الجرم على شناعته . و آثرته على ان اراك بين احضان امرأة اخرى

والآن ليس لدى ما اقوله ياهارما كيس . سوى ان حبي القـاهر لك قد دفعنى الى تحطيمك . فحطمتك . وحطمت مصر . وحطمت نفسى كذلك والموت هو الجزاء الوفاق لى على جريمتى . فاقتلنى ياهارما كيس . انى اتقبل الموت بسرور من حد سيفك . وساقبل نصل الحسام وانت تذبحنى به

ثم خرت على الارض راكعة و كشفت عن صـدرها حيث استطيع أغماد خنجرى . ولـكنى صحت فيها قائلا :

— ايتها الفـاجرة . انهضى . لن اقتلك . من انا حتى احاسبك على جريمتك . بينا جريمتى لا يشفع فيها تـكفير

— كلا . . اقتلنى يا هارما كيس . . . فوزرى فوق الاحتمال . . . اقتلنى والا قتلت نفسى .

— لن أقتلك ياشارميون .. ولن أسمح لك بقتل نفسك . لقد زرعت . ويجب أن تحصدى .. عيشى . . والتقطى من عام الى عام ثمرة جرمك المرّة. لتقلق الأحلام نومك . . ولينتظرك غضب الآلهة فى أمنتى !

— لاتتكلم هكذا ياهارما كيس . فكلماتك أقطع من السيف . . . ولكن اصغ الى . لقد كنت فى أوج قوتك . والسلطة كلها فى يدك ، فرفضتنى ونبذتنى ، والآن هاأنت طريد منبوذ . لاحول لك ولا قوة . . ولكنى ما زلت جميلة . وما زلت أعبدك . فدعنى أهرب معك . . اتخذني شقيقة . أو خادمة . أو حتى أمة لك . امنحني الفرصة لكى أتطلع الى وجهك وأقاسمك همك وشجنك . . سأحتمل كل شىء حتى الموت مادمت الى جانبك .

— كلا . . أيتها المرأة ، لا أستطيع أن أروض نفسى على رؤيتك ورؤية فمك الذى باح بسرى وخاننى . . كلا . . . ابق فى بلاط كليوباترا . . فربما احتجت يوما الى خدماتك . ولكن اقسمى لى الا تخونينى مرة أخرى ! !

— أقسم ياهارما كيس . . ولتحل على لعنة أشد وقراً من التى أحتملها الآن ان أنا فكرت فى خيانتك .

— هذا حسن . . والآن ياشارميون التى أحبتنى وسحقنى حبها . الى الملتقى .

حدقت الفتاة فى وجهى . . ومدت ذراعيها كأنما لتمسك بى . . ثم غلبها الهم والشجن . . فسقطت فى مكانها على أرض الغرفة .

أخذت معداتي واجتزت الغرفة صوب الباب . ثم القيت عليها نظرة أخيرة وقد تعفر جبينها بالتراب .

القسم الثالث

انتقام هارما كيس

الفصل الاول

الفرار

غادرت القصر قبل الفجر بساعة . . وقد خيمت السكينة على المدينة . . فاقتربت من البوابة متجها صوب الحارس .. وكان ملتفا بعباءة ثقيلة . . وقال

صوت عرفت فيه صوت رينوس : من القادم ؟

— تاجر يا سيدى . . قد جاء ببعض الهدايا من الاسكندريه لاحدى وصيفات الملكة والآن يريد الرحيل

— وهل تستقبل وصيفات الملكة ضيوفهن إلى مثل تلك الساعة المتأخرة . ولكن كان القوم فى حفلة . . كلمة السر يا سيدى التاجر ؟.

— « انطونى » يا سيدى

وكان الحارس يمشى جيئة وذهابا طول الوقت الذى احتجزنى فيه ثم انحرف إلى اليمين ليفسح لى سبيل المرور من البوابة . . ثم همس بسرعة وهو ينحنى :

— إلى الملتقى يا هارما كيس . . تذكر رينوس الذى خاطر برأسه ليخلصك . إلى الملتقى أيها الصبى . . لشد ما كنت أرجو أن نبحر سويا الى الشمال

— إلى الملتقى يا رينوس .. ايها الرجل الأمين

وقد تناهي إلى علمى بعد ذلك . . انه فى اليوم الذى تلا رحيلى تصايح القوم لانهم لم يجدونى برغم تفتيشهم الدقيق فى كل مكان . . وقد ادى لى رينوس خدمة عظيمة لأنه أقسم انه فى أثناء حراسته .. فى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل . . رآنى واقفا فوق السطح . . وأنشر ردائى الذى سرعان ما تحول الى أجنحة وطرت به إلى السماء . . تاركا اياه مشدوها

وقد قابل رجال البلاط هذ القصة بآذان مفتوحة . . . مصدقين ماقيل نظراً لما كنت اتمتع به من فنون السحر . . وقد وصلت هذه القصة إلى مصر كذلك ، وكان لها الفضل فى تنقية اسمى إلى حد ما لاعتقاد العامة بانى أعمل بارادة الآلهة . . وأن الآلهة هى التى رفعتنى الى السماء . . . لذلك مافتئوا يرددون : « عند ما يعود هارما كيس ستحرر مصر » .

صدق الجميع تلك القصة اذن ، ماعدا كليوباترا التى ساورتها الشكوك وأرسلت مركباً خاصاً للبحث عن التاجر السورى .

* * *

عند ماوصلت الى السفينة وجدتها على وشك الاقلاع . . فأعطيت الكتاب للربان الذى نظر إلى نظرات غريبة ولم يقل شيئا .

عبرنا النهر حتى مصبه . . ودخلنا الى البحر تساعدنا ريح مواتية . . ولكن قبل المساء هبت عاصفة شديدة , . خاف البحارة سوء مغبتها . . واستمرت الليل بأكمله . . ومكثت أنا ساكناً . . ملتفاً فى عباءتى . . غير مكترث لشىء . . ولأنه لم تظهر على علامات الخوف . . اعتقد النوتية اننى ساحر . وفكروا فى القائي الى البحر . ولكن الربان منعهم من ذلك

هدأت الريح عند الفجر . . ولكنها عادت الى شدتها عند الظهيرة ودفعت السفينة صوب صخور جزيرة قبرص . فاستولى على البحارة الذعر . . واستبد بهم الفزع . . وأقسم أحدهم ليرمينى قربانا لآلهة البحار . وفى غمرة الخوف المستولية على الربان . لم يقل شيئا

هم البحارة بالقائى . . فتحديتهم قائلا : « القونى اذا أردتم . . ولكنكم ستهلكون جميعاً »

لم آبه بذلك البتة . . بعد أن لم تعد لى فى الحياة رغبة . . وبرغم خوفى من الموت ومقابلة أمى المقدسة « ايزيس » . الا أننى كنت قد عانيت مشقة ومرارة فوق كل احتمال

أمسك بى البحارة كالوحوش وألقونى وسط الأمواج الغاضبة ..فصليت لايزيس . وتهيأت للموت .

ولكن الموت لم يكن مقدراً لى بعد ، لأنى صعدت الى سطح الماء وألفيت لوحا من الخشب عائما . فتعلقت به . . وتطلعت الى الوراء فرأيت النوتية قد تجمعوا فوق السطح لرؤيتى وأنا اغرق. وحينما رأوا وجهى الطبيعى لأن الماء كان قد أزال المساحيق . . صرخوا من الذعر . .وارتدوا على اعقابهم وجلين

وهبت العاصفة فجأة . واستبدت بالسفينة . ولم تزل بها حتى أغرقتها بمن فيها . كما أغرقت السفينة التى أرسلتها كليوباترا للبحث عن التاجر السورى

وبذلك .. فقد القوم آثارى .. واعتقدوا أنى من الها لكين !

قدت نفسى صوب الشاطىء . وكانت العاصفة ما تزال على أشدها . . ولكن الخوف لم يعرف إلى قلبى سبيلا . ثم طغى على حب العيش مرة أخرى وظلت الأمواج تتقاذفنى .. حتى حطمت لوح الخشب . وغصت الى الأعماق !

***

وعندما فتحت عينى بعد ذلك رأيتنى فى غرفة فى منزل ما . فسألت بصوت خافت :

— كيف أتيت الى هنا ؟

فاجابنى صوت خشن بالاغريقية :

— أتى بك « بوسيدون » أيها الغريب . لقد لفظتك الأمواج والتقطك أحد الصيادين . . يجب أن تستريح قليلا . لأن ساقك اليسرى قد كسرت

فجاهدت لتحريك قدمى . ولكنى لم أستطع

ثم هتف الرجل :

— من أنت وما اسمك ؟.

— اننى تاجر مصرى . وقد تحطمت سفينتى بفعل العاصفة . واسمى أليبوس .

وقد اخترت هذا الإسم صدفة . وعرفت به فيما بعد

مكثت بين ظهرانى القوم حولا كاملا . حتى جبر كسرى . ولكنى وجدت نفسي فى نهايتها قد صرت أعرج .

واشتغلت معهم فى صيد السمك والفلاحة . . وكان القوم يحترمونى . . ويرهبوننى . لاعتقادهم أننى ساحر قذف به البحر

وذات ليلة عالجت النوم بلا جدوى . واستولى على ارق لاأدرى له كنها . وإذا بى أشعر برغبة ملحة تملأ قلبى .. للرحيل

***

وفى اليوم الثالث من رحيلى .. وصلت الى « الى سلاميس » .. ومكثت بها أياما ثلاثة حتى وجدت سفينة ذاهبة الى الاسكندرية . . وفى اليوم الخامس وصلنا الى تلك المدينة البغيضة . !

سرت بعد ذلك فى النيل . . وقد سمعت من حديث القوم أن كليوباترا عادت الى مصر مع أنطونى وانهما يعيشان عيشة الترف . . وكان النوتية كلما أعملوا المجاذيف يرددون أغنية شائعة عن كليوباترا وأنطونى . . وغرامهما

مكثت واجما . . لا أشارك القوم حديثهم . . ولا نشيدهم . . حتى باتوا أيضا يخشوننى ويرهبون جانبى . . فادركت أن اللعنة قد حلت علىّ لاننى صرت مبغوضا من الجميع

وفى اليوم السادس بلغنا « أبوثيس » . . وقد سر البحارة لمغادرتى اياهم فى تلك البلدة .

أخذت طريقى بين الحقول بقلب كسير . . وقد قابلت وجوها ليست غريبة عنى .. ولكن أحداً لم يعرفنى .. لتنكرى .. وللعرج الذى أصبت به

وعند غروب الشمس وصلت الى باب المعبد . . ثم بدأت الافكار تساورنى . . لو كان أبى أمينمحعت حيا . . لاشاح بوجهه عنى . . لعمرى لن أجرؤ على الذهاب إلى حضرته .

جلست هنيهة مستطلعا . . فلم أجد أحدا يخرج من المكان أو يدخل اليه ! ثم رأيت العشب ناميا على الحجر !. ماذا ؟ هل المكان مهجور ؟ أو هل مات أبى ؟ .

لم أستطع احتمال الشك أكثر من ذلك . . فدلفت الى بهو الأعمدة وتطلعت حولى .. ولكن لا حس ولا حركة . . ولا شىء يدل على الحياة

نفذت إلى الحجرة ذات الستة والثلاثين عمودا والتى توجت فيها أميرا على البلاد . . ولم تكن بافضل من بهو الأعمدة : سكون فى سكون . وصمت أشبه بصمت القبور

انطلقت أخيرا الى غرفة أبى . . فرأيته جالساً فى ثيابه الكهنوتية . . وقد خلت بادىء الأمر أنه ميت . . لأنى لم أر فى عينيه ما يدل على أنه مبصر

كان وجهه قد نحل . . وسرت التجاعيد والغضون اليه . .
وزادها الشجن والحزن عمقا وغورا
وقفت بلا حراك وأنا أشعر بالعينين الكفيفتين تحومان حولى
فلم أنبس ببنت شفة . . بل فكرت فى الانزواء . .
ولم أكد أنحول قاصداً الخروج .. حتى هتف أبى فى صوت عميق
— تعال هنا . . يامن كنت ولدى . . أنت الآن خائن . . تعال هنا أى هارما كيس . . بل من كانت مصر تبنى عليك آمالها . . ألأجل هذا أخرجتك من جوف « نوت » لكى تكون على مصر لعنة وعاراً ؟ ! .
فتنهدت متوجعاً وأجبت :
— لا تكلمنى هكذا يا أبى . . ألا ترى أنى أعانى أشد الآلام . . ألم أقع أنا أيضا فى شرك الخيانة . . ونبذت نبذ النواة ! كن رحيما بى . . يا أبى !!.
— أيها الخائن . . لتمت فى أحزانك . . ليكن العار نصيبك . . .
وجهنم مصيرك
ثم نهض عن مقعده وهو يترنح . . وأخذ يضرب الهواء بعصاه . . ثم أرسل صرخة حادة وسقط على الارض . . والدم يتدفق من فمه . .
فهرعت اليه وحملته . . وكان يحتضر . .
راح يغمغم :
— لقد كان ابنى . . وكان قلبى مفعما بالآمال . . والآن . . لكم وددت لو أنه مات ! !
ثم غص صوته . . وأخيرا همس :
— أى هارما كيس . . هل أنت هنا ؟
— نعم يا أبتى
— استغفر يا هارما كيس . . استغفر . . مازال وقت التكفير متسعا . هناك بعض الذهب . . قد خبأته . . ستحدثك « أتوّا » عنه . . آه . . ماهذه الآلام . . استودعك الآلهة . .
ثم اختلج جسمه بين ذراعى . . وفارق الحياة

الفصل الثانى

مجىء « أتوّا »

جثوت على أرض الغرفة . . أحملق فى جثمان أبى المسجى . . الذى عاش ليلعننى . . بينا زحفت الظلمة وتجمعت حولى . . وساد على المكان سكون موحش . . .

ما أشد ما أشعر به من بؤس وكرب ! . ومرة أخرى فكرت فى الموت .

وكنت أحمل مدية بين ثنايا ثيابى . . فاردت اغمادها فى صدرى . . لأرسل روحى حرة طليقة ! !

حرة . ! نعم حرة لتواجه غضب الآلهة وانتقامها الشديد ! . ولكن . .

و أسفاه .. لست اجرؤ على الموت ! . انه لاهون على نفسى ان أحتمل المتاعب على الأرض . . من أن أواجه الفزع الابدى . الذى هو مصير كل خاطئ .

فى أمنتى المظلمة

تمددت على الأرض . . وبكيت بدموع حرى .. حتى نضب معين الدموع

ومرة أخرى أمسيت فى الظلام الموحش .. لا أسمع الا صدى احزانى .. وشجنى ! !

فكرت فى الهرب من هذا المكان الشديد الوحشة . . ولكن إلى أين الفرار ؟ ؟ أنا الذى ليس له أن يسند رأسه ! .

جثوت مرت أخرى . . وتصبب العرق بارداً على جبينى . . وعندما استبد بى اليأس . . ركعت وصليت بحرارة إلى الآلهة « ايزيس » . . تلك التى لم اجرؤ على الصلاة اليها مدة طويلة . !

وبعد أن فرغت من صلاتى . . نهضت واقفا . . ومددت ذراعى . . وتجرأت على القاء « كلمة الخوف » وسرعان ماحصلت على الجواب .. اذ سمعت رنين الصولجان يبدد السكون . . ويعلن مجىء « ذات العظمة »

ثم رأيت فى زاوية الغرفة منظر القمر . . بقرنين ذهبيين . . وبينهما سحابة قاتمة . . يلتف حولها ثعبان نارى . .

مادت الأرض تحت قدمى . . وخررت على الأرض ساجداً . .

وأخيراً .. سمعت صوتاً حلو النغم صادراً من السحاب :

— أى هارما كيس . . يامن كنت خادمى . . وولدى . . لقد سمت صلاتك . . وسمعت دعوتك لى التى اجتذبتنى من « اللا نهاية » . . لن يربط بيننا الحب المقدس بعد الآن ياهارما كيس . . لأنك أخرجتنى من حسابك ولكنى أتيت أحمل اليك الخوف . . والفزع . . والانتقام ! !

— اضربى ضربتك ايتها الآلهة المبجلة اذن .. انتقمى منى .. فلست مستطيع بعد على تحمل وقر الذنوب . !

— وإذا كنت لا تستطيع حمل متاعبك على الأرض . . فكيف تقدر على حمل العذاب الابدى على كتفيك . عندما تأتى الى مملكة الموت ملوثا

بالادران . والخطيئة ؟ ! كلا لن أضربك ياهارماكيس . . وأيضا لن أريد متاعبك ، ولو أنك دنست اسمى وذكراى فى مصر . . لقـد أخطأت .. وستلقى العقاب الشديد

ولـكن طريق الندم والاستغفار مازال مفتوحا أمامك . . وقد خطوت فيه أولى خطواتك .. فسر فيـه . وكل من الخـبز المرير . . الى ان ينتهى أجلك .

— اليس هناك قبس من أمل . أيتها الآلهة المقدسة !

— كلا .. لا شىء ينسخ ما حدث .. ولن تستعيد مصر حريتها بعد الآن الا ان هدمت معابدها واختلطت برمال الصحراء . وحلت بها ديانات جديدة

— واأسفاه .. لقد قضى علىّ

— نعم قضى عليك .. ولـكن شاءت عدالتى أن أعطيك فرصة لهدم من هدمتك . فعنـدما تعطى لك العلامة . اذهب الى كليوباترا . ونفذ فيها عدل السماء .

والآن.. كلمة أخيرة لك ياهارماكيس .. لقد كان يربط بيننا رباط الحب المقدس .. فتب واستغفر فربما أمكن فى النهاية أن تأتى الى .. وعندها لن يحول بينى وبين رفقتك حائل . سواء كنت فى « النجوم » أو فى « أمنتى » فى الحياة أو فى الموت !.

لاتدعنى مرة أخرى الا إذا كمل استغفارك . . والآن . الى الملتقى !

وما أن انطقت آخر كلمة من كلماتها العذبة . حتى دخل الثعبان الذهبى قلب السحابة . التى ابتدأت تتلاشى شيئا فشيئا . ثم سمعت رنين الصولجان ضعيفا خافتا . ثم ساد السكون

أخفيت وجهى بين طيات ثيـابى . . وكانت ذراعى لا تزال مبسوطة تلمس جثة أبى الذى لعنتى . ولـكنى أحسست بالأمل يدب الى صدرى ، . فتنفست الصعداء .. اذن فلم أفقد كل شىء بعد !

وانهكت قواى تلك الحوادث .. فاستغرقت فى سبات عميق

وعنـدما استيقظت من نومى . رأيت خيوطا من النور تنفذ من كوة فى

السقف وترسل أشعتها على وجه ابى الميت .

قفزت واقفا و تذكرت كل ما حدث . . ثم تناهى الى سمعى صوت « اتوّا » الزوجة العجوز . . وهي تغمغم :

— ما هذا الظلام الذى يخيم على المكان ؟ ! . لقد ذهب بناة هذا المعبد المقدسون .. والأسفاه !

ثم دلفت الى الغرفة وباحدى يديها عصا . . وبالأخرى سلة . . ورمقت المكان بعينها السوداوين الحادتين ولكنها لم تميز شيئا . . بسبب الظلال التى امتدت الى الغرفة

لم يتغير وجهها كثيرا عن ذى قبل . . سوى بعض التجعدات التى سرت الى جبينها .. وبعض الشعيرات البيضاء التى وخطت غدائرها القصيرة

غمغمت قائلة :

— أى أوزوريس . . المجد والعظمة لاسمك .. ما هذا ؟ ! لم هو ممدد على الأرض ؟ هل مات ؟ ! . أيها الأمير . . أيها الأب المقدس . يا امينمحعت استيقظ وانهض . يالنحس الطالع . . لقد قضى . ؟ ؟

ثم أرسلت صرخة مدوية تجاوبت اصداؤها فى المكان .

فانسللت من الغرفة المجاورة وهتفت :

— صه أيتها المرأة . !

فصاحت قائلة :

— من أنت ؟ . أيها الرجل الشرير .. هل قتلت هذا الرجل المقدس ؟! فلتحل عليك لعنة الآلهة .!

— انظرى الى يا « اتوّا » .

— أنظر اليك أيها الأفاق الخائن . انك ارتكبت أشنع جرم . لقد مات امينمحعت .. وهارماكيس الخائن لا يعلم له مقر . ولقد أمسيت ولا أهل لى و لا ولد ! اقتلنى أنا أيضا . . أيها الشرير

— اصمتى أيتها الحمقاء . . ألا تعرفيننى ؟ ؟

— وهل لي أن أعرف كل نوتي أفاق ؟ ! . ولكن . ما هذه الملامح ؟

انك أنت . . أى ولدى العزيز . هل أتيت لتشيع البهجة والسرور فى نفسى وأنا التى ظننتك ميتا . ؟ ! ولـكن لا . . لقد نسيت . . انك خائن . . وقاتل ها هو ذا امنيمحعت المقدس يرقد على الأرض . وقد قتله هارما كيس الخائن اذهب . . اليك عنى . !

— هدئى من روعك أيتها المـرأة . إنى لم اقتله . ولـكنه مات . وا أسفاه . بين ذراعى

— نعم . مات وهو يلعنك يا هارما كيس ! ! . . أيتها الآلهة المقدسة . لقـد عشت طويلا . وناء عاتق بوقر المتاعب . ولـكن ما أراه الآن اثقلها واشدها وقراً

— أيتها العجوز . لا تزجرينى . ألا ترين الى شقائى . ؟ !

— نعم . نعم . لقد نسيت . وما هو جرمك ؟ . امرأة دائماً المرأة . قديماً . والى النهاية ! لقـد رباك الـكهنة تربية دينية فقط . فتغلبت عليك المرأة . تلك سنة الطبيعة . تعال يا هـارما كيس . دعنى اقبلك . لا تقسو امرأة على رجل لانه احب واحدة من بنات جنسها ! .

ولـكن هناك نقطة سيئة . الا تعلم ان هذه المرأة استولت على المعابد . . وطردت منها الـكهنة . وابطلت عبادة الآلهة . انها لم تبق على غير امنيمحعت ولـكنه قضى . أجدر به ان يمضى الى احضان اوزوريس من ان يحمل فوق منـكبيه متاعب وآلام ينوء بها اولو القوة .

والآن . اصغ الى . انه لم يخلفك خاوى الوفاض ياهارما كيس . بل ادخر لك مبلغا كبيرا من الذهب عندما علم بفشل المؤامرة . ساخبرك عن مـكانه . انه حقك بالوراثة .

ـ لا تتكلمى عن الثروة يا« اتوّا » . خبرينى أين يمكننى ان اذهب واخفى عارى وخجلى ؟ ! .

ـ هذا حق وصدق ! لم يعد بوسعك ان تقيم هنا . لانهم اذا عـثروا بك لم يبقوا عليك . . ساخفيك فى مـكان ما . وعندما تنتهى مراسيم الجنازة . . سنفر معا وستختفى الى ان تنسى خطيئاتك . . تعال يا هارما كيس . تعال .

الفصل الثالث

مقابر طيبة

اقمت بمخبأ «اتوّا» العجوز ثمانين يوما الى ان انهى المحنطون من عملهم.
وصارت الجثة معدة للدفن

زحفت من مخبئى لأقدم قربانا على روح ابى الميت . واضع زهر اللوتس على صدره .. ثم رجعت والأسى يملا جوانحى

وفى اليوم التـالى . . رأيت من مخبئى كهنة معبـد أوزوريس يتقدمون ليضعوا التابوت فى قارب فى البحيرة المقدسة . . وشهدت المحاكمة . واعلانهم كيف كان ابى أعـدل النـاس .. ثم وضعوه بجوار أمى فى مكان الراحـة بجوار أوزوريس المقدس

وبعد أن تمت كل هـذه الاجراءات . . أخرجت كنوز أبى من مخبئهـا ووضعتها فى مكان أمين .. ثم فررت متنكراً . مع « اتوّا » . إلى طيبة حيث التجأت إلى مقابر آبائى .. بين التلال المتناثرة .

وفى احدى الليالى خرجت أجوس خلال المقابر .. الى أن عثرت فى النهاية على قبر محتجب بين الصخور .. دفن فيه رمسيس المقدس

وفى الليلة التالية .. رجعت مع « اتوا » . ورحنا نتفقد القبر .. فاتينا إلى الغرفة العظيمة حيث يوجد تابوت الجرانيت .. ورأيت النقوش على الجدران ثم طفت بالحجرات الأخرى . . وقرأت ما فيهـا من نقوش بديعة . . تتحدث عن عظمة أصحابها ومجدهم الأثيل

وهنا .. بين هذه الجدران .. اتخذت لى مخبأ .. مدة ثمانى سنوات .

قضيت تلك الفترة متعبداً . نادما مستغفرا . وكنت أخرج عند الغسق انجول . حتى تأخذ عينى الظلمة الدائمة .

وأخيراً شعرت اننى اقترب من الآلهة .. لان الصلاة .. والندم .. وتلك العزلة اليائسة .. قد طهرتنى من أدران الخطيئـة

وسرعان ما سرت اشـاعة فى المدينـة . . عن أن شخصاً حكيما يدعى

أوليمبوس قد اتخذ له مقاما بين القبور فى طيبة .. وله قدرة على شفاء المرضى ومخاطبة أرواح الآلهـة . . وسرعان ما هرع إلى النـاس زرافات ووحدانا يبغون البرء من أسقامهم . وكنت قد تعلمت شيئا من خواص العقاقير فشفيتهم وانهالت على النقود والأعطية . حتى لم يعد « باتوّا » حاجة للخروج للبحث عن طعام لنا .

طبقت شهرتى الآفاق حتى أتى الناس لزيارتى من منف الى الاسكندرية وقد علمت منهم ان انطونى قد هجر كليوباترا . وتزوج من اكتافيا

وفى السنة التالية . . أرسلت اتوّا متنكرة الى الاسكندرية للبحث عن شارميون . . وإذ وجدتهـا ما زالت محافظة على العهد . . أخبرتها بمكان وجودى . .

ولما عادت اتوّا أنبأتنى أنها قد تمكنت من مقابلة شارميون . . وفى معرض الحديث معها . . ذكرت اسمى بلباقة . . فلم تتمالك شارميون من البكاء بصوت مرتفع . . فأدركت ولاءها لى . . وأخبرتها أنى مازلت على قيد الحياة . . فأرسلت الىّ تحيتها وبعض الهدايا . . وبعد أن كانت تبكى أسى وكمداً . . بكت فرحا ، وجذلا

وفى السنـة التى تلت . . أتانى الرسل من لدن كليوباترا حاملين الهدايا ومعها ملف مختوم ، ففضضته وتلوت فيه ما يلى :

« من كليوباترا الى العالم المصرى أوليمبوس الساكن بوادى الموت فى طيبة . . لقد وصلت الىّ شهرتك . أيها العالم أوليمبوس . خبرنى إذن — . وإذا كنت ما تتصف به حقا ، أغدقت عليك من الشرف والثروة ما لم يتمتع به أحـد قبلك فى مصر — كيف أتمكن من استعادة حب النبيـل أنطونى الذى سحرته اكتافيا الماكرة وحولته عنا ؟ »

رأيت فى هذه الرسالة أصبع شارميون ! !

استوحيت الحكمة فى تلك الليلة .. وكتبت ردى . . لهلاك كليوباترا وأنطونى معا . . كما يلى :

« من أوليمبوس المصرى الى الملكة كليوباترا

« اذهبي الى سوريا . . وسيرسل اليك من يقودك . . هناك ستكتسبين أنطونى . . وسيغمرك من الهدايا بما لم تحلمى به »

ثم صرفت الرسل ورددت معهم هدايا كليوباترا فآبوا والدهشة ملء أفئدتهم .

وقد جدت كليوباترا من غرامها دافعا للعمل بما جاء فى الرسالة . . وهناك تحققت نبوءتى إذ خلع عليها أنطونى كثيرا من الأراضى والأملاك

وبعد ان عادت من رحلتها أرسلت الى الهدايا والعطايا . . فلم أقبل منها شيئا . . وحينئذ أرسلت تدعونى اليها . . ولكنى لم ألب الدعوة . . وكثيراً مابعثت تستشيرنى هى وأنطونى . . فكنت اشير عليهما بما فيه هلاكهما . .

« * »

كرت السنون . وتتابعت الأعوام . وأنا أزداد حكمة ومعرفة . . وطارت شهرتى فى مصر . عظيمة . . داوية

انصرمت ثماني سنوات . . وقد تمكنت كليوباترا من حمل انطونى على طرد زوجته اكتافيه من قصره . . كما لو كانت إحدى الجوارى . .

لقد بلغ الحمق بانطونى مبلغه . واخطأته الحكمة . فانتهز اكتافيوس الفرصة وأعلن الحرب عليه

وذات يوم بينما كنت جالسا فى غرفة « عازفى القيثارة » فى قبر فرعون بطيبة تراءى لى شبح والدى . . متكئا على عكازه . . وهتف :

— انظر إلى الأمام ياولدى

نظرت إلى الأمام فرأيت بعين البصيرة البحر واسطولين متشابكين فى معركة أحدهما لاكتافيوس . . والثانى لكليوباترا وانطونى . ورأيت أسطول قيصر يحمل على أسطول انطونى حملة صادقة . وينتصر عليه .

تطلعت ثانية فرأيت كليوباترا جالسة فى سفينة ذهبية تراقب المعركة بعينين قلقتين . فارسلت عليها روحى . . وجعلتها تتخيل كأنما تسمع صوتى يدوى فى أذنها :

— الفرار ياكليوباترا . . الفرار وإلا هلكت

فتطلعت بانظارها فى ذهول .. واستولى عليها خوف شديد . . وأمرت النوتية أن ينشروا القــلاع . . ثم ولت مدبرة :

وارتفعت الاصوات من الأصدقاء والأعداء صائحة : « لقــد هربت كليوباترا» . ثم رأيت الدمار والهزيمة يحلان باسطول انطونى . . وافقت من سباتى .

وتراءى لى خيال أبى مرة أخرى بعد بضعة أيام . وهتف :

— لقــد حانت ساعة الانتقام ياولدى . . لقد تحطم اسطول انطونى فى البحر .. اذهب .. واعمل ما يوحى به اليك

وفى الصباح .. ذهبت الى مدخل البحر .. فرأيت رسل كليوباترا آتين عبر الوادى ومعهم الحرس الرومانى

فسألتهم بحدة :

— ماذا تريدون منى الآن ؟!

فاحنى الضابط رأسه وأجاب :

— هذه رسالة من الملــكة كليوباترا . . وانطونى العظيم . . إن الملــكة تأمرك بالحضور إلى الاسكندرية .. لقد أرسلت فى طلبك مراراً .. ولــكنك لم تلب . والآن هاهى تستدعيك وتطلب اليك الحضور على جناح السرعة . لأنها بحاجة شديدة إلى مشورتك

— واذا رفضت . ؟ — سنأخذك عنوة .. أى اوليبوس المقدس

فانفجرت ضاحكا وأجبته :

— عنوة ! أيها الأحمق . لا تتحدث إلى بتلك اللهجة الحادة والا قضيت عليك حيث أنت . ! الاتعلم أن عندى القوة على البطش . . كما عندى القوة على الشفاء فارتعدت فرائص الرجل وأجاب :

— اتوسل اليك أن تعفو عنى . . انى لم أقل الا ما أمرت به

— حسناً أيها الضابط . . لاتخف . . سأرافقك

ورحلت فى نفس اليوم مع اتوّا العجوز .. ولم تطأ قدماى قبر رمسيس المقدس بعد ذلك اليوم . . وقد حملت معى كنوز أبى امينمحت لأنى أردت

أن اظهر بالمظهر اللائق بمكانتى . ومنزلتى . وانا فى طريقى الى الاسكندرية وعندما وصلت . . انتهى الى ان انطونى قد تبع كليوباترا .. وفر من موقعة اكتيوم .. وان نهايته قد باتت قريبة

***

ووصلت أخيرا إلى الاسكندرية .. ونزلت بالقصر المعدّ لى .

وفى ذات الليلة جاءتنى شارميون .. شارميون التى لم أرها طوال التسع سنوات الماضية .

الفصل الرابع

أوليمبوس فى حضرة كليوباترا

جلست فى غرفة الانتظار . . بثوبى الأسود . . وأخذت اتطلع الى الطنافس الغالية . . ومظاهر الترف . . بينا جلست اتوّا بجوار الباب وقد تقدمت بها السن .

ها قد أتيت الى الاسكندرية مرة أخرى . . ولكنى لن أفشل هذه المرة ! !

لكم تغيرت الظروف . لم يعد لى دور فى القصة الجديدة . سوى دور الحسام فى يد العدالة . لقد فقدت الأمل فى احياء مصر أو تحريرها .. وفى جلوسى على عرشى الشرعى . . كلا . لقد ضعت . . وضاعت مصر . !

طلبت من اتوّا المرآة لأنظر فيها الى وجهى . لكم تغيرت ! ! وجه مجعد فارقه الابتسام . وعينان غارتا فى محجريهما . . وجسم هدته الأشجان . والصلاة والاستغفار .

لم أكد أعرف نفسى أنا هارماكيس الذى كنت مليئا بالقوة والصحة والجمال . !

« * »

سمعت طرقا على الباب . فنهضت « اتوّا » وفتحته ودلفت الى الغرفة فتاة فى ثياب اغريقية .

كانت شارميون . . وكانت جميلة كعهدى بها . . ولكن محياها ينطق بالألم الدفين .

وجهت الى الكلام قائلة :

— أيها العجوز . أرجو أن ترشدنى الى العالم اوليبوس

فوقفت . ورفعت رأسى . وتطلعت اليها

فحملقت فى وجهى . . ثم أرسلت صرخة خافتة . وهتفت :

— أظنك لست أنت . !

— اننى هو . هارما كيس . الذى وقع قلبك الأحمق فى حبه يا شارميون ولكنى لست هارما كيس الذى أحببته . ولكنى اوليبوس . العالم المصرى الذى يضع نفسه تحت تصرفك

— كلمة واحدة ياهارما كيس . لن أعود بعدها الى ذكر الماضى . اننى لاعجب كيف لا تعرف قلب المرأة . مع ما أوتيت من الحكمة . اذا كان الحب يتغير مع تغير الشكل الخارجى للحبيب . فكيف يتبع المحب حبيبه الى آخر مرحلة من مراحل التغير — وهى القبر ! ؟ ألا فلتعلم أيها الطبيب العالم اننى من ذلك الفريق الذى اذا ما أحب دام غرامه ولم يتغير . وإذا لم استطع نيل قلب الحبيب . ذهبت الى مرقدى الأخير . وأنا عذراء .

لم احر جوابا .ولكنى احنيت رأسى .

ولاقرر الحقيقة اقول انه ولو ان هذه المرأة كانت سببا فى تحطيمى . . الا اننى كنت اشعر نحوها . من اعماق قلبي . بعاطفة عرفان الجميل . اذ اى رجل لا يقدر تلك الهبة النادرة . ذلك الشىء الكامل الذى لا يمكن ان يشترى بالذهب . وهو حب المرأة الثابت . الوطيد ؟ !

واستطردت شارميون :

— اشكرك لأنك لم تجب على قولى . لأن الكلمات القاسية التى كنت قد صببتها فى اذنى ما زالت تلذعنى فى قلبي حتى لم يبق فيه متسع لسهام جديدة من سهام احتقارك .

ثم وقفت ونظرت الى اعلا ومدت يديها كأنما لتدفع عنها شيئا غير منظور

وقالت :

ـ لن اكون مصدرا لاقلاق راحتك بحبي بعد الآن . اذ ساطرحه جانبا ولو انى لا استطيع ان انساه . يكفينى ان جاد على الدهر مرة أخرى برؤيتك قبل ان يضرب الموت غشاوته الابدية على عينى . هل تتذكر ، عندما طلبت منك ان تقتلنى ، انك ابيت ثم صببت على لعناتك . وطلبت لى الحياة لكى اقتطف ثمرة الجريمة عاما بعد عام ؟

— نعم . اذكر ذلك جيدا يا شارميون .

— لقد طفح كأس العقاب .. ألا تستطيع أن تقرأ ما سطر فى قلبى من آلام احتملتها باسمة ، صابرة ؟

— ولكنى ياشارميون إذا كان مابلغنى صحيحا فأنت الأولى بين نساء البلاط القوية المحبوبة . ألم يقل اكتافيوس انه لم يعلن الحرب على انطوني أو كليوباترا ولكن على شارميون وايراس ؟

— نعم ياهارما كيس . . ولكن فكر فى القسم الذى أقسمته لك . . وفى ارغامى على أن أخدم تلك المرأة التى أبغضها من أعماق قلبى . تلك المرأة التى سلبتك منى ، والتى بتأثيرها استبدت بى الغيرة فارتكبت ما ارتكبت وجررت العار عليك وعلى مصر . . هل تستطيع الجواهر والكنوز . . وتحبب الأمراء والنبلاء أن تجلب السعادة لامرأة مثلى أنا البائسة . . والتى لايقاس بؤس أكثر الساقطات ضعة ببؤسى . آه . هارما كيس ! . لكم بكيت . . ولكن عند ما كانت تدعونى الملكة الى خدمتها . كنت أنهض على قدمى وأمزق ثوب الحزن . وأتظاهر بالابتسام . . لقد كان نصيبك شاقا يا هارما كيس ، ولكنك كنت على الأقل حراً وكثيراً ما نفست عليك مكانك الهادىء فى ذلك الكهف السحيق .

— أرى ياشارميون انك مازلت محافظة على قسمك . وهذا حسن لأن ساعة الانتقام قد دنت .

— نعم . . انى عند قولى . . وفى كل تصرفاتى كنت أعمل لأجلك فى

الخفاء . لقد ذكيت الرغبة والغيرة فى صدرها . وزرعت فى قلبهـا الشر وفى قلبه الحماقة . وقد بلغ من سوء تدبيره ان هجر الجيش فى موقعة اكتيوم .. وكانت النتيجة أن سلم الضباط أنفسهم الى قيصر .

— وأين انطونى الآن . . اذن ؟

— لقد بنى لنفسه مسكنا فى جزيرة صغيرة عند « الثغر العظيم » . وهو يشكو قلة وفاء الناس الذين هجروه فى وقت شدته . . لقد أصابتـه حمى . . وتريدك الملـكة على أن تذهب اليه لتشفيه وتعيـده اليها . . ولـكنها تريدك أولا أن تذهب الى حضرتها . لاستشارتك .

فنهضت واقفا وقلت :

— اذن خذينى اليها

اخترقنا أبواب القصر . وعبرنا حجرة المرمر . . ووجـدت نفسى مرة أخرى أمام باب غرفه كليوباترا . . ودخلت شارميون تعلن قدومى .

ثم قادتنى اليها وهى تهمس فى اذنى ان أتشجع . . والا خدعت نفسى فان بصر كليوباترا مازال حديدا . . فاجبتها :

— مهما كانت حدة بصرها . . فلن تعرف فى العالم أوليمبوس . . الأمير هارما كيس . وأنت نفسك ياشارميون . ما كنت لتعرفينى لو لم أعلن لك نفسى . .

دخلت الى تلك الغرفة التى لم أنسها . . وأصـــغيت الى صوت مياه الناقورة . وتغريد البلبل . وهمهمة البحر

انحنيت أمام كليوباترا ثم وقفت أمامها منتصب القامـة . فالفيتها لاتزال تستمتع بجمالها وفتوتها . لم تعد يد الزمن عليها .. ولـكن الزمن الذى لم يستطع أن يؤثر فى ملاحتها . قد وسم محياها بميسم الحزن . والضجر .

انحنيت أمام تلك المرأة الملـكيـة . . التى كانت يوما . . غرامى . . ثم دمارى . . ولـكنها لم تعرفنى

تطلعت الى أعلا بملل ثم قالت بصوت متزن النبرات :

— ها قد أتيت أخيرا أيها الطبيب .. ماذا تدعى ! .. آه .. اولمبوس .. انه اسم يبعث على الرجاء . . لأن آلهة مصر قد هجرتنا . . فلنلتمس العون من اولمبوس .. ان هذا لعجب ؟ ! ان شيئا فيك يذكرنى بما لست أدرى ماهو .. خبرنى يا اولمبوس .. ألم نتقابل قبل الآن ؟ !

فأجبت بصوت مصطنع :

— لم تتلاق عيونا قبلا أيتها الملكة .. حتى هذه اللحظة التى لبيت فيها طلبك . . وأتيت لشفائك من أسقامك

— هذا أعجب العجب ! ! حتى صوتك .. انها ذكريات . . لا أستطيع استكناه حقيقتها .. قل لى .. اننا لم نتقابل وجها لوجه كما قررت . . ألا يمكن أن نكون قد تعارفنا فى حلم ؟ !

— نعم أيتها الملكة .. لقد تقابلنا فى الاحلام

— انك رجل غريب . . واذا كان ماسمعته حقا . . فان علمك غزير . . لقد اتبعت مشورتك عندما اشرت على بااللحاق بانطونى فى سوريا . . وقد حدث كل شىء كما تنبأت . . فى الواقع انك فى فنون التنبؤ ضليع . . لايضارعك أحد من جهلاء الاسكندرية . .

ثم تنهدت .. واستطردت :

— لقد كنت أعرف يوما رجلا مثلك .. يدعى هارماكيس .. ولكنه مات منذ زمن طويل . ولقد تمنيت ان ألحق به ، وانى لأشعر بالأسى من أجله أحيانا . .

ثم توقفت عن الكلام .. وملت برأسى على صدرى .. ووقفت ساكنا .. واستطردت :

— فسر لى هذا ياأولمبوس . . لقد حدث فى موقعة اكتيوم اللعينة . . عندما كانت المعركة على أشدها . والنصر قد ابتدأ يبسم لنا .. ان استولى على قلبى فزع مفاجىء . . وأظلمت الدنيا أمام ناظرى . . وسمعت صوتا — هو صوت هارماكيس الذى قضى منذ أمد طويل — يرن فى اذني « الفرار . . وإلا هلكت » .. ففررت . . وسرعان ماملك الخوف قلبى انطونى أيضا . .

فتبعني . . وهكذا خسرنا المعركة . . خبرني إذن . . أى إله جلب تلك اللعنة علينا ؟ !

— كلا أيتها الملكة . . لم يك هذا غضبا الهيا . . إذ متى كنت سببا فى اغضاب آلهة مصر ؟ هل سلبت مافى معابدهم ؟ . . هل خنت الأمانة المعلقة فى عنقك ؟ لم يحدث من هذا شيء . . إذن فليس هناك مايحنق الآلهة عليك . . ولكنه بحار من العقل طغى على نفسك الرقيقة . . وأمضك منظر الدماء والتقتيل . . فوليت الأدباز . . أما النبيل انطونى فهو لابد تابعك حيثما ذهبت . .

وبينا كنت أتكلم . . كانت كليوباترا ترتجف . . وقد اصفر وجهها . . وهى تتطلع الى محاولة أن تفهم معنى تفسيرى . . ثم قالت :

— أيها العالم اوليمبوس . . ان انطونى عليل . . وقد ذهب الحزن بعقله وتنكر لجميع الناس . . حتى لى أنا التى احتملت فى سبيله ما احتملت ! ! فأرجوك أن تصحب وصيفتى شارميون غداً . . عند بزوغ النهار . . وتستقلا زورقا إلى الحصن . . وتنبئه أنك آت بأخبار عن الجيش . . وعند ما يسمح لكما بالمثول . . خبريه ياشارميون بالأنباء التى حملها كانديوس . . لأن كانديوس لا يجرؤ على الذهاب . . ومتى ذهب عنه الحزن فحاول أى أوليمبوس أن تشفيه من الحمى بعقاقيرك القيمة وتشفى نفسه بكلماتك المعسولة . واجتذبه إلى مرة ثانية . . افعل هذا ياأوليمبوس ، وستعطى من الهدايا . . مايفوق العد . . انى ملكة وقادرة على مجازاة من ينفذ ارادتى أوفى الجزاء

— لا تخشى شيئا أيتها الملكة . . فسأفعل ما طلبت . ولست أبغى منك الجزاء

ثم انحنيت وذهبت . . وطلبت من اتوا أن تجهز لى جرعة خاصة

الفصل الخامس

مأدبة كليوباترا

جاءتنى شارميون قبيل الفجر . . وسرنا حتى مرفأ القصر الخاص . . واستقللنا قاربا انطلقنا به الى الجزيرة المقام عليها قصر تيمونيم الذى يقطنه

أنطونى . . ثم ذهب كلانا إلى باب القصر . . وقرعناه . . فأطل من كوة بالباب خصى عجوز سألنا بخشونة عما نريد . .

فأجابته شارميون :

— إن عملنا مع الامير أنطونى

— إذا كانت مهمتكما مع سيدى أنطونى فأولى بكما أن تعودا لأنه لن يقابل رجلا أو سيدة ! !

— ولكنه يجب أن يرانا لأننا نحمل له أخباراً . . اذهب وانبئه أن السيدة شارميون تريد أن تفضى اليه بأخبار عن الجيش

فمضى الرجل . . ثم عاد . وقال :

— إن سيدى أنطونى يريد أن يعلم ما إذا كانت. انباؤكما حسنة أو سيئة . . فان كانت سيئة . . فليست له بها حاجة . . وكفى بما عنده سوءاً

— ماذا ؟ ! . إنها حسنة وسيئة معا . . افتح أيها العبد .

ثم أسقطت كيسا من النقود من بين حواجز الكوة "

فالتقط كيس النقود . . وتمتم :

— حسنا . . حسنا . . إن الوقت سيء . . وقد يسير الى أسوأ . . . وإذا مات الاسد فمن يطعم بنات آوى ؟ ! اذهبا وانبئاه بأخباركما . . وياليتكما تستطيعان اجتذابه الى خارج « منزل التأوهات »

فاجتزنا الباب الى ممر ضيق . وتقدمنا حتى وصلنا الى ستار معلق كان بابا لغرفة باهتة الضوء . وقد تمدد فى اقصى الركن الايمن على وسادة من القش . شبح رجل .. وقد غطى وجهه بعباءته .

فتقدمت منه شارميون . وقالت :

— أيها النبيل انطونى . اكشف عن وجهك . واصغ الى . لانى احمل اليك انباء .

فرفع رأسه . وكان وجهه قد اذبلته الاحزان . وعيناه قد غارتا . وثوبه مشعثا . وكان أشبه بشحاذ بائس على باب أحد المعابد

وهكذا قضى حب كليوباترا على انطونى العظيم . الذى طنقت شهرته

الآفاق . والذى كان يطلق عليه « سيد نصف العالم »

تطلع الينا . ثم تمتم سائلا :

— ماذا تريدين منى أيتها السيدة ؟ . ومن هذا الرجل الذى اتى ليرقب انطونى الفاشل . المنبوذ

— هذا اوليمبوس أيها النبيل انطونى . الطبيب الحكيم . الضليع فى معرفة الطالع . والذى سمعت عنه كثيرا من قبل . وقد ارسلته كليوباترا التى لا تفكر الا فى خيرك . لكى يتولى علاجك

— وهل يستطيع طبيبك هذا ان يتولى علاج الاشجان . هل تستطيع عقاقيره أن تعيد الى سفنى . وشرفى . وطمأنينتى ؟ ! . كلا . بعداً لك ولطبيبك ! . ما هى اخبارك . اسرعى . هل تمكن كانديوس من هزيمة قيصر ؟ قولى لى هذا . اهبك اقطاعية . واذا انبأتنى أن ا كتافيوس مات . ملأت خزانتك بالمال . تكلمى . لشد ما اخشى ما تنطق به شفتاك ! اسرعى فلا طاقة لى على الانتظار .

— أيها النبيل انطونى . تشجع واصمد لما سوف انبئك به . ان كانديوس بالاسكندرية . وقد انتحى مكانا قصياً . لقد انتظر مع جيوشه سبعة ايام يترقب عودة انطونى لكى يقودهم الى النصر . وقد رفض العطايا التى ارسلها اليه قيصر . ولكن انطونى لم يأت ! . ثم سرت الاشاعة بان انطونى قد هرب مع كليوباترا . وحينئذ انسل صباطك . واحدا بعد واحد . وارتموا فى احضان قيصر . ثم تبعهم الجنود . وحتى حلفاؤك . هجروا الميدان جميعا . وذهبوا يخطبون ود قيصر ؛

فرفع انطونى يده عن جبينه . . وقال :

ألم تنتهى بعد من نعيبك . . أيتها البومة فى ثوب طاووس ؟ . تكلمى أيضاً .. قولى إن كليوباترا الفاتنة قد قضت نحبها . . اجمعى أخبارك المشؤومة كلها . . وصبيها على رأسى ! ..

— كلا ياسيدى .. لقد انتهيت

— نعم . . وأنا أيضاً انتهيت . . وهانذا أحتم حيانى

ثم استل حساما كان معلقاً فى غمده . . وحاول قتل نفسه لولا أن قفزت إلى الأمام وأمسكت بيده .. لأنه لو مات .. لابرمت كليوباترا صلحاً مع قيصر الذى كان يبغى موت انطونى . . أكثر مما يبغى تحطيم مصر

وصرخت شارميون قائلة :

— هل جننت ياأنطونى ؟ . هل أنت جبان حتى تنهى حياتك على هذه الصورة وتفر من الأحزان تاركا شريكتك تعانى الهم وحيدة ! ؟ .

— ولم لا أيتها المرأة .. انها لن تكون وحيدة . . هناك قيصر : . ان اكتافيوس يحب الجميلات من النساء . . وكليوباترا مازالت محتفظة بجمالها .. تعال الآن أى الحبوس . . لقد أمسكت يدى . . ومنعتنى من قتل نفسى . . فاسد إلى النصح أذن .. هل أخضع لقيصر .. وأمشى وراءه فى موكب النصر وسط شوارع روما ؟ !

— كلا ياسيدى . . لاتسلم . . لقد قضيت الليلة الماضية فى استقراء حظك فرأيت انه كلما اقترب نجمك من نجم اكتافيوس . . بهت واختفى . . وكلما ابتعد عن مدار فلكه .. التمع وأشرق .. إنك لم تفقد كل شىء بعد .. مازال بيدك جزء . . ومادام فى يدك جزء . . فمن السهل استعادة الكل . . ان قيصر لم يقترب بعد من ابواب الأسكندرية . . ومن الميسور ايقافه . . ان عقلك المحموم قد الهب جسمك .. ومرضك لايمكنك من الحكم الصحيح ولكن انظر . . إن عندى لك جرعة من الدواء . . تعيدك صحيحاً معافى

— تقول جرعة دواء أيها الرجل ! . اغلب الظن انها سم زعاف . وانك قاتل استأجرتك ملكة مصر للقضاء على .. لأننى لم اعد ذانفع لها .. أن رأس انطونى لهو عربون السلام بينها وبين قيصر . . سأجرعها وحق باخوس . . حتى ولو كانت أكسير الفناء ! !

— كلا أيها النبيل انطونى . . انها ليست سما . . ولست أنا قاتلا . . وسأتذوقها أمامك اذا اردت

— اعطنيها أيها الطبيب . . إن الرجل اليائس هو دائما الشجاع . .

ما هذا . . ان جرعتك سحرية . . ان أحزانى قد تبددت . . وزهرة

الأمل قد أينعت فى قلبى القاحل . . لقد عدت انطونى مرة أخرى . . ومرة اخرى أرى سيوف جنـدى تلمع تحت أشعة الشمس . . انى اسمع صيـــاحهم وترحيبهم . . أيها الأمل ! . . ايها الأمل . . .

فصاحت شارميون .

— نعم ما زال هناك امل يا سـيدى . . عد معنـا . . تعال الى ذراعى كليوباترا المحبوبتين . . انها ترقد طول ليلها على وسادتها الذهبية . . وسط الظلمة المدلهمة وتئن وتتأوه وتردد اسمك : « انطونى . . انطونى »

— سآتى . . سآتى .. يا لخجلى .. أنا الذى جرؤت على الشك فى أمرها أيها الخادم . احضر لى ماء . . والثوب الارجوانى . . لأنى سأذهب فى التو واللحظة

وهـكذا اجتذبنا انطونى الى كليوباترا .. حتى يـكون هلاك الاثنين معا أمرا محققا

سرنا معا عبر غرفة المرمر . . ودلفنا الى حجرة كليوباترا . . حيث كانت مضطجعة وغدائرها تغطى وجهها وصدرها . والدمع يسيل مدرارا من عينيها

وصاح انطونى :

— أى ملـكة مصر . . هأنذا تحت قدميك . .

فهبت كليوبترا من وسادتها . وقالت :

— أهذا أنت أيها الحبيب ! اذن فسيسير كل شى فى مجراه الحسن . . اقترب . . فستنسيك ذراعاى همومك . وتبدل اتراحك افراحا . أى أنطونى ما دام الحب لدينا . . فلدينا كل شىء . !

ثم ارتمت على صدره وأخذت تقبله بشغف وجنون . ! !

جاءتنى شارميون فى نفس اليوم وطلبت منى أن أجهز سما من أقوى أنواع السموم . . فخشيت أن تتعجل به كليوباترا نهاية انطونى .. ولـكن شارميون افهمتنى انه مطلوب لغرض آخر

تعاونت مع أتوّا على تجهيز السم . . وبعد الظهر رأيت شارميون مرة

أخرى تحمل باقة من الورود . وطلبت منى أن أغرسها فى السم ! ! .

وفى ذات الليلة أقيم حفل كبير . وأخذت مكانى بجانب انطونى، الذى كان جالسا بجوار كليوباترا . . وعلى رأسه أكليل الورود

جرى الخمر فى المأدبة بغير حساب . . حتى ابتهج المجبان . . . وقد شاع السرور فى قلبيهما . . فبدأت تحدثه عن خططها . . وانهما اذا لم يتمكنا من هزيمة قيصر. فسيهربان بكنوزهما الى الخليج العربى حتى لا يستطيع اكتافيوس ان يتعقبهما باساطيله . ثم يبحثا عن مأوى لهما فى الهند . . بعيدين عن متناول يد الأعداء . . ! !

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . . لأن العرب أغرقوا السفن . . بتحريض من يهود الاسكندرية الذين كانوا يمقتون كليوباترا . . وكان ذلك بتدبير منى . .

وبعد أن فرغا من بث أحلامهما . . دعته لتناول كأس من الخمر . نخب نجاح مشروعهما . . وقبل أن يشرب طلبت منه أن يغمس فيه اكليل الورود ، حتى يمتزج عذوبة الزهر برحيق الخمر .. ففعل

وبينا هو على وشك ازدراد محتويات الكأس اذا بها تصرخ فيه فجأة لتمنعه من احتسائها . فوضع الكأس مشدوها متعجبا

ثم صاحت فى الرجل الواقف بجوارها :

— أوديسيوس . . اقترب هنا أيها الخادم الأمين . . هل ترى هذا الرجل أيها النبيل انطونى .. لقد كان لى معوانا فى أيام محنتى . فيجب اذن ان يكافأ حسب اخلاصه . . ومن يدك أنت . . اعطه الكأس الذهبية ودعه يشرب نخب نجاحنا .

فاعطاه انطونى الكأس وهو مازال مشدوها . وتناولها الرجل بيد مرتجفة . . ووجه شاحب . . ولكنه جرع مافيها

حينذاك نهضت كليوباترا عن مقعدها . ونظرت الى الرجل بعينين ناريتين وصاحت :

— اشرب أيها العبد !. حسنا . لقد شربت أخيرا . ماذابك ياأوديسيوس

الطيب . . هل أنت مريض ؟ ! . لاريب ان تلك الخمر مثل ماء الغيرة عند اليهود . . التى تقتل الخائن . وتقوى الأمين ! ! . ليأت بعضكم ويفتش غرفة هذا الرجل . . انى موقنة انه خائن .

كان الرجل واقفا ويداه على رأسه . . وقد ابتدأ يرتجف . ثم هوى على الأرض وهو يئن من الألم .

أخذت يداه تتحسسان صدره .. كأنما ليخفف عنه تأثير النيران المتأججة ثم انقلبت سحنته . . وعلا الزبد شدقيه . ثم تطلع الى كليوباترا بابتسامة قاسية .

فقالت له :

— أيها الخائن . . هل الموت لديذ ؟

— أيتها الفاجرة . لقد سممتنى .. ولكنك ستهلكين بنفس الكأس .

ثم صاح والقى بنفسه عليها .. ولكنها انحرفت عن طريقه بخفة النمر .. فلم يتمكن الا من إمساك معطفها فسقط على الأرض . وأخذ يتدحرج . . إلى أن سكنت حركته .

وبعد أن سحب الحراس جثته الى الخارج . . قال انطونى :

— ماذا تعنين بذلك يا كليوباترا . . إن الرجل قد شرب كأسى . . فما معنى تلك اللعبة ؟

— انها تخدم غرضين أيها النبيل انطونى .. لقد كان فى زعم الرجل ان يهرب الليلة إلى اكتافيوس . . حاملا معه كنوزنا .. فأعرته جناحين ليطير بهما وشيكا . . وأما الغرض الثانى . . فهو أنك كنت تخشانى . . وتخاف أن أدس لك السم .. اجل .. لقد كان هذا ما تعتقده .. وانى به عالمة . . فانظر الآن أيها النبيل انطونى . أما كان من السهل أن تشرب كأسك فتمسى فى عداد الأموات لو كان بي فى ذلك رغبة ؟ ! . إذن أى أنطونى . . يجب أن تثق بى من الآن فصاعداً . . وانه لأهون على نفسى أن أوردها موارد الهلكة .. من أن أمس شعرة من رأسك .. تعالوا أيها الرسل . ماذا وجدتم

— أيتها الملكة المبجلة ... لقد وجدنا كل شىء مجهزاً للفرار . ووجدنا

الكنز مخبأ فى المتاع

فابتسمت الملكة ابتسامة حزينة وقالت :

– هل سمعت ؟ ! وأنتم أيها الخدم الأمناء . . ليكن لكم مما حدث عظة وعبرة .. ولتعلموا أن كليوباترا شديدة البطش والعقاب .

فساد على القوم وحوم حتى انطونى .. فانه لم ينبس ببنت شفة

الفصل السادس

سموم كليوباترا

مذ عاد أنطونى من قصر تيمونيم . ساد ذلك السكون الذى يسبق هبوب العاصفة .. إذ عاد انطونى وكليوباترا سيرتهما الأولى فانغمسا فى الترف والملذات .. حتى فقدا قوتهما المعنوية . . وقد أرسلا الرسل الى قيصر ابتغاء الصلح .. ولكنهم عادوا مخذولين . وأخيرا قر رأيهما على الدفاع عن الاسكندرية . . فجيشت الجيوش وبنيت السفن . . واجتمعت قوة كبيرة لصد قيصر

حينئذ . تكاتمت مع شارميون لاتمام انتقامى . وقد أوحيت الى كليوباترا أن تبقى على انطونى مرحه وسروره . فاخذا يغترفان من الخمر .. حتى قضت على روحه ونشاطه . . وكنت اتبعها بجرعاتى التى تجعل روحه تسبح فى عالم الاحلام والسعادة والقوة .. ثم يستيقظ على ما يحيط به من ضر وبأساء ..

اصبحت جرعاتى لازمة لأنطونى . . فامسى لا يستطيع النوم بدونها . . وهكذا قيدت ارادته الضعيفة بارادتى . واستمررت ملازما له . ولكليوباترا التى كانت لا تفتأ تسألنى النصح .. وكنت اتنبأ لها النبوءات الكاذبة

وفضلا عن ذلك . فقد نسجت شباكا أخرى . . فان شهرتى طبقت آفاق مصر . . فاستدعانى الناس لشفائهم من اسقامهم .. ولاسدائهم النصح فيما يختص بالحالة السياسية لعلمهم أنى مشير انطونى وكليوباترا . . فاخذت أفرغ فى آذان القوم كلمات الشك . ففقدوا نحو سيدتهم كل اخلاص وولاء .

وكانت كليوباترا كذلك قد ارسلتني إلى منف لاستمالة الكهنة والحكام في مصر العليا إلى جانبها للدفاع عن الاسكندرية .. فخاطبتهم بحكمة . وباسرار عميقة .. وحدثتهم بكلمات تحتمل معنيين .. فعجبوا من أمري واستفسروا عني سراً .. فأريتهم علامة الأخوة .. ورجوتهم الا يسألوا اكثر من ذلك ونصحتهم بان يسعوا إلى مسالمة قيصر .. اذ بذلك تعود عبادة الآلهة المقدسة في ارض مصر .. فاستمدوا النصح كذلك من ابيس المقدس .. ثم اتفقوا على أن يعلنوا مساعدة كليوباترا جهراً .. ويرسلوا السفراء إلى قيصر سراً .!

أخذ الوقت يمر .. وكل يوم كانت كليوباترا تجد أن اصدقاءها قد تناقص عددهم عن ذي قبل . ولكنها ما زالت مستمسكة بانطوني .. لشغفها الشديد به . . ولو انه قد وصل إلى علمي أن اكتافيوس قد وعدها بملك مصر لها ولأولادها من بعدها . . على شريطة أن تقتل انطوني . . أو تخون سره . . ولكن قلبها ــ اذا كانت ذات قلب ــ لم يطاوعها . . وعلاوة على ذلك فان مشورتي كانت ضد نصيحة اكتافيوس . خيفة أن ترتمي كليوباترا في احضانه بعد موت انطوني فتتغلب على العاصفة .. وتبقى في مكانها

لشد ما امضني ذلك . . لأن انطوني ــ برغم ضعفه ــ ما زال شجاعا . . وعظيما . . وكنت أشعر في اعماق نفسي بما يعتمل في قلبه من شجن وبؤس ولا يدري بمدى حزن البائس الا بائس مثله .. ألم تسلبنا نفس المرأة . الملك والاصدقاء .. والشرف !؟.

ولكن الشفقة لا محل لها في السياسة . ولن تتحول قدماي عن طريق الانتقام المرسوم !

لقد اصبحت النهاية وشيكة . . اذ سقطت بلوزيوم في يد قيصر . فذهبت مع شارميون لابلاغ النبأ الى انطوني وكليوباترا . وكانا قد اضطجعا بغية الراحة . والهرب من حر الهجير . فصاحت بهم شارميون :

ــ افيقا . فليس هذا وقت النوم . لقد سلم سلوكيوس بلوزيوم الى قيصر . وهو الآن في طريقه الى الاسكندرية

فقفز انطوني واقفا . وهو يسب ويلعن . وأمسك بكليوباترا من ذراعها

وضاح :

— اقسم بحق الآلهة انك خنتنى . ولـكنك ستدفعين الثمن .

ثم استل سيفه واقترب منها . فصاحت :

— امسك يدك يا انطونى . هـــذا كذب . . انى لا اعـلم شيئا

ثم قفزت نحوه . وتعلقت بعنقه باكية منتحبة .

ابتسمت شارميون . لانها هى التى كانت قـد اشارت على سلوكيوس سراً بالتسليم . زاعمة انه لن تقوم حرب بالاسكندرية

أما كليوباترا فقد جمعت كل كنوزها من الجواهر والزمرد . الذى تبقى لها مما أخذ من قبر منقرع وأخفته فى قبر الجرانيت المقام بجوار معبد ايزيس . ووضعته على فراش من كتان . حتى إذا حان الحين احرقته . حتى لا يقع بين يدى اكتافيوس الشره . المحب للمال

وعند ما اتى قيصر بخيـله و رجله الى الاسكندرية . ذهبت الى القصر حيث استدعتنى كليـوباترا . فوجـدتها فى حجرة المـرمر . مرتدية لباسها الملـكى بعينين متقدتين . وبجـوارها ايراس وشارميون . وامامها حراسها ممددون على الارض . بعضهم يتلوى من الألم . والبعض قد فارق الحياة . وصاحت قائلة :

ـ التحية لاوليمبوس . هوذا منظر محبب إلى قلب الطبيب . هؤلاء رجال بعضهم قد استقبل الموت . والبعض الآخر يعانى سكراته . !

— ماذا فعلت .. أيتها الملـكة ؟!

— انى اجرب العدالة فى هؤلاء المجرمين الخونة . حتى اعـلم طرائق الموت . لقد جربت ست انواع مختلفة من السموم فى هؤلاء العبيد . انظر . البعض يتلوى . والبعض يجن . والبعض يستقبل الظلمة . والبعض يتحشرج . ويبكى طالبا الرحمة . !

ثم اقتربت منى وهتفت :

— أى أوليمبوس . . انه برغم كل نبوءاتك . . فان المنتهى وشيك . .

يجب ألا يتغلب علينـا قيصر . . وإلا ضعت أنا وسيدى أنطونى . . لذا صحت عزيمتى على أنه مادامت اللعبة قد انتهت . . فلأغادر العالم كما يليق بملكة . . ولهذا السبب جربت هاته السموم فى عبيـدى . . لأرى أيهـا الأصلح . . . ولـكنى لم أر واحـداً منها يروق لى . . لأن بعضها يسبب آلاما مبرحة . . . والبعض الآخر لايعجل بالمنية فيجب إذن أن تجهز لى جرعة موافقة . . تسلب روحى سريعاً . وبدون الم .

أحسست بشعور النصر يملا شغاف قلبى . . لأننى بيـدى ساحطم هـذه المرأة . . وأنفذ فيها عدالة الآلهة . . وأخيراً هتفت قائلا :

— صحيح ما فهت به يا كليوباترا . . فالموت يشفيك من أسقامك . . وستغوصين فى بحر من النوم لاتستيقظين منه على هـذه الأرض . . لا تخشى الموت يا سيـدتى . فالموت أملك . . وستذهبين ولا ريب نقيـة طاهرة . . وتمثلين أمام مجلس الآلهة الرهيب بلا عيب ولا دنس

فارتجفت أوصالها وقالت

— ولـكنى خبرنى . . أيهـا الرجل الغامض . . ماذا يحدث إذا لم يكن القلب نقيـا . . ولـكن لا . انى لا أخشى الآلهة . . لأنه إذا كانت آلهة الجحيم من الرجال . فسأكون بينهم ملـكة أيضا ؟ !

وبينما هى تتكلم . . إذ تناهى إلى أسماعنا ضجة عظيمة وصيـاح الفرح آتية من بوابات القصر

فنهضت واقفة عن وسادتها وقالت :

— ما هذا ؟ !

فارتفعت الصيحات :

— انطونى . . انطونى .. لقد كان النصر حليفه

فاستدارت بسرعة . . وجرت . . وشعرها يتماوج فى الهواء . . وتبعتها عن كثب حتى بوابات القصر الخارجية . . حيث قابلت أنطونى . . وكان مشرق الوجه . . زاهياً فى حلته الرومانية . . وما أن رآها حتى قفز عن الجواد . . واحتواها بين ذراعيه . وضمها إلى صدره . فصاحت :

— ماذا حدث . . هل سقط قيصر ؟

— كلا ياعزيزتى . . لم تك السقطة حاسمة . . ولكننا حملنا على الفرسان . . ورددناهم على أعقابهم . . وكما كانت البداية . . فهكذا ستكون النهاية . . لقد تحديت قيصر . . وإذا قبل التحدى . . فسيرى العالم أينا الفارس المغوار . ؟

وفى وسط تلك الضجة . . صاح الناس قائلين :

— رسول من قيصر

دخل الرسول . وانحنى أمام انطونى ، وأعطاه كتاب قيصر . . ثم أدى التحية وانصرف

فض انطونى الخطاب . وقرأ مايلى بصوت مرتفع :

« من قيصر الى انطونى

تحية . . وبعد . فهاك جوابى على تحديك .. ألم يجد انطونى وسيلة للموت أفضل من حد حسام قيصر ! ! . الى الملتقى »

وهنا كف الناس عن الصياح . . والتحية .

* * *

عم الظلام . . وقبيل منتصف الليل أقام انطونى مأدبة لقواده . حضرها الكثيرون . وكنت بين الحاضرين .

ولما اكتمل الجمع . وقف انطونى حاسر الرأس . وقال :

« أيها الأصدقاء الذين مازلتم على ولائى . . وكثيرا ماقدتكم الى النصر .. اصغوا إلى .. سنخوض غمار الحرب وقد نلقى الفوز . أو تحيق بنا الهزيمة .. وما أريده منكم هو أن تخلصوا لى . . وتحافظوا على شرفكم . . أنتم يافخر الرجال .

سنكتوى بنار المعركة غدا .. وسيكون حظنا معلقا فى الميزان . ولكن كم من معركة خضناها كانت أشد هلاكا وأروع ! وقد خرجنا منها لنحصى خسائر الاعداء ! . هل هناك مانخشاه ؟ اذا تخلى عنا حلفاؤنا فما زالت

جيوشنا فى مثل قوة جيش قيصر .

نعم صيحوا واهتفوا . . فانى أحب تلك الموسيقى العسكرية

اذا أخطأتنا الحظ أيها الشجعان . فسيموت انطونى كما يموت الجندى ويخلفكم لتبكوا على جدثه . . ويخلف لكم أيضا كنوزه التى تعرفون مخأها خذوها أيها الأصدقاء الأوفياء لذكرى انطونى . واقتسموها بينكم بالعدل والقسطاس . !

كلا . . لاتبكوا . . لانه لايليق بالرجال البكاء . . وكلنا الى الموت صائر . . ولكنى اذا لاقيت حتفى فانى أعهد اليكم بأولادى . . ارعوهم بعنايتكم الرفيقة وربما كفيتموهم شر العوز . .

كفى الآن . . أيها الجنود . غدا سنأخذ مخناق قيصر . فى البر والبحر اقسموا الآن على الاخلاص لى الى النهاية . »

فصاحوا جميعا فى صوت واحد :

— نقسم . . أيها النبيل انطونى . . نقسم .

— هذا حسن ان نجمى آخذ فى التألق . وغدا سيتلألأ فى كبد السماء وربما أطفأ نجم قيصر . . إلى الملتقى . .

ثم تحول ليخرج . . فتدافع الرجال عليه . . وأخذوا يديه يقبلونهما . . لقد أثرت فيهم كلماته اعما تأثير . . حتى راح بعضهم يبكى كالأطفال . . حتى انطونى . . لم يتمالك أشجانه . . فرأيت الدموع تجرى على وجنتيه وتسيل على صدره . . .

اشتد بى الحرج لما رأيت ذلك . . لأنى ايقنت انه اذا استمسك هؤلاء الرجال بالعروة الوثقى والتفوا حول انطونى . فستكون النهاية فوز كليوباترا ولو اننى لا أحمل ضغنا لانطونى . . الا انه يجب أن يسقط . . لانه بسقوطه يجذب معه تلك المرأة التى التفت حوله كالنبات السام

وقفت فى الظلال . . أرقب وجوه هؤلاء القواد حين يتكلمون .

قال قائد الاسطول :

ـ لقد اتفقنا . ولنقسم جميعا على الاخلاص لانطونى إلى النهاية المرسومة له

فصاحوا جميعا :

— نعم . نعم

فهتفت من وراء الظلال :

— نعم . . نعم . . تمسكوا به . . وموتوا

فالتفتوا الى بوحشية . . وأمسكوا بى . وقال أحدهم :

— من هذا ؟ .

وصاح آخر :

— انه اوليبوس . . الكلب ذو الوجه الداكن . . اوليبوس الساحر

وصاح آخر :

— اوليبوس الخائن . . سأضع حدا له ولسحره ! .

ثم استل سيفه . . فقلت بنبرات رزينة بطيئة :

— اصمتوا لحظة . . وحاذروا أن تمسوا خادم الآلهة بسوء . . انى لست خائنا . . ولكنى أقول لكم اهربوا . . اهربوا الى قيصر . . انى أخدم انطونى وكليوباترا . . وأخدمهما بصدق وإخلاص . . ولكنى فوق كل شىء أخدم الآلهة المقدسة . . وقد أتانى الآلهة ان انطونيو وكليوباترا مقضى عليهما بالهلاك . . وان قيصر سينتصر . . اذن . . ولأنى أجلكم أيها السادة النبلاء . . افكر بخوف وخشية فى زوجاتكم . . وقد ترملن . . وأولادكم . . وقد تيتموا . . فاذا تمسكتم بانطونى فستصيرون عبيدا . . لهذا أقول لكم . . اهربوا الى قيصر . . وانقذوا أنفسكم . . انى أتكلم بما أمرتنى به الآلهة

فصاح أحدهم :

— الآلهة . . أية آلهة . . اذبحوا هذا الخائن . . وضعوا حدا لكلامه المنحوس !

وصاح آخر :

— فليرنا علامة من الآلهة .. أو ليمت .. انى لا أثق به

فصحت قائلا :

— ابتعدوا أيها الحمقى . . اتركوا ذراعى .. وسأريكم العلامه

ولا بد أن يكونوا قد رأوا فى وجهى ما يخيفهم .. لأنهم سرعان ماتركوا ذراعى وانتحوا ناحية . .

رفعت يدى إلى أعلى . . واستجمعت قوة روحى فى أعمـاق الفضاء حتى اتصلت روحى بروح امى إيزيس. ولـكنى لم أجرؤ على القاء كلمة القوة . . وسرعان ماساد سكون رهيب .. وأخـيرا سمع رنين الصولجان المقدس على مبعدة . . وكان قبل ضعيفا . . ولـكنه ازداد قوة حتى شق اجواز الفضاء وملأ الـكون رهبة !

ثم رأينـا شبحا مقنعا سابحا فى السماء . . ثم تلاشى الرنين . . وابتلعت الظلمة الشبح الرهيب

فصاح أحدهم :

— انه باخوس .. الذى كتب على انطونى الضياع .

ولـكنى كنت أعلم أنه لم يكن باخوس الاله الـكاذب ولـكنها ايزيس المقدسة التى هجرت مصر . . ذاهبة إلى أطراف المعمورة . .

أخفيت وجهى فى راحتى .. وتمتمت بالصلاة . وعندما رفعت رأسى . . وجدت أن الجمع قد مضى .. وخلفونى وحيداً

الفصل السابع

نهاية انطونى

وعنـد فجر الغد . . أتى أنطونى وأصدر أمره لأسطوله بالتقدم وملاقاة اسطول قيصر . وأمر الفرسان بالاشتباك مع خيالة قيصر . فتقدم الاسطول فى خط مثلث . ورفعت سفن انطونى مجاذيفها بالتحية .. ثم انضمت الى سفن قيصر .. وابحرت معها !.

وذهب فرسانه قدما لملاقاة جيش قيصر . وحين تقابلا أغمدا السيوف ومروا إلى معسكر قيصر . . وخلفوا أنطونى يكاد يجن من فرط الأسى .!

صرخ انطونى فى فيالقه ان اثبتوا .. وانتظروا الهجوم . . ولـكنهم لم

يقفوا سوى هنيهة يسيره .. ثم امعنوا فى الهرب .

ولـكن انطونى تمكن من القبض على أحـدهم — وهو عين الرجل الذى حاول قتله فى الليلة الماضيّة — ثم طرحه أرضا . . وترجل عن جواده وشهر سيفه محاولا قتل الرجل . !

رفع انطونى سيفه فوق هامته .. بينا غطى الرجل وجهه بيديه .. منتظرا الموت .. ولـكن انطونى أسقط الحسام .. وأمر الرجل بالنهوض . وقال :

— اذهب . . اذهب الى قيصر . واسع وراء النجاح .. لقد احببتك من قبل . . فلماذا أوردك موارد المهلـكة . . أنت وحدك بين جموع الخونة ؟ ! .

فنهض الرجل ، وتطلع حوله فى يأس . . ثم طغى عليه العار . فمزق الدرع عن صدره . . وبادر نفسه بطعنة .. فغاص الحسام فى قلبه . وخر على الأرض صريعاً .. يتخبط

حملق انطونى فى الرجل .. ولـكنه لم ينطق بكلمة

وكانت جموع قيصر تتقدم فى تلك الأثناء .. بدون أن تجد أدنى مقاومة من جيش انطونى . . وأخيراً صرخ ايروس . . خادم انطونى الوفى . . وهو الوحيد الذى بقى بجانبه :

— اهرب أى سيدى انطونى .. قبل أن يأخذك قيصر أسيراً !

فاستدار انطونى وأركن إلى الفرار . . وهو يئن انين الموجع . . وقد رافقته فى طريقه .. خفاطبنى قائلا :

— اذهب أى اوليميوس . اذهب إلى الملـكة وقل لها : « انطونى يرسل تحياته إلى كليوباترا التى خانته »

فذهبت الى المقبرة التى اتخذتها كليوباترا مقاما مع كنوزها .. بينـا هرع انطونى الى القصر . .

وعندما بلغت المقبرة طرقت بابها . . فاطلت شارميون من النافذة . . ثم فتحت الباب . . وسألتنى هامسة :

— ما وراءك يا هارما كيس؟

— ان النهاية تقترب وشيكا يا شارميون .. ان انطونى قد فر . .

وعندما مثلت بين يدى كليوباترا .. صاحت قائلة :

— تكلم ايها الرجل ؟.

— ان انطوني قد فر . وقد هربت قواته كذلك . وقيصر على الأبواب وانطونى العظيم يرسل تحياته الى كليوباترا .. التى خانته ونكثت عهده .

— هذا افتراء . انني لم أخنه . اذهب اليه يا أوليمبوس على جناح السرعة واحمل اليه ردى :

« إلى انطونى .. كليوباترا التى لم تنكث لك عهداً . . ترسل اليك تحياتها الأخيرة وهى على حافة القبر .. »

وذهبت فوجدت انطونى فى حجرة المرمر .. وهو يذرعها جيئة وذهابا رافعا رأسه نحو السماء .. ولم يك معه غير خادمه ايروس .. فقلت :

— ايها السيد انطوني . ان كليوباترا تقرئك التحية . . وقد قتلت نفسها بيديها . .

فغمغم قائلا :

— ماتت . ماتت . ! . هل مات هيكل العظمة والجمال . وأصبح طعاما للدود ؟ ! اية امرأة كانت ؟ ! انى ما زلت أشعر بالحنين اليها . هل ستفوقنى المرأة قوة . فتنطلق الى حيث أخشى الذهاب ! ! . لقد كنت لى محبا يا ايروس منذ الصغر . هل تذكر كيف التقطتك من الصحراء جائعا . فأبدلت بيؤسك نعيما وبفقرك ثراء . تعال الآن وسدد دينك . استل سيفك وانه به متاعب انطونى واشجانه

— كلا يا سيدى . لا أستطيع . كيف أجرؤ على الاجهاز على انطونى المقدس ؟ .

— لا تعترض يا ايروس . افعل ما أمرتك به . وإلا فاذهب واتركنى وحيداً ولا تدعنى أر وجهك مرة أخرى . أيها الخادم الذى يعوزه الاخلاص

فلم يسع ايروس غير أن يشهر سيفه . . وركع انطونى أمامه . . عارى الصدر ، وعيناه تتطلعان الى السماء .

ولكن ايروس لم يلبث ان صاح قائلا :

— لا أجرؤ . هذا أكثر مما استطيع احتماله .

ثم أغمد السيف فى قلبه هو . . خر على الارض صريعا .

وحينئذ نهض انطونى . . وحملق فيه ثم هتف :

— أى ايروس . . لقد تصرفت بنبل . . انك لأعظم منى .. وقد لقنتنى درساً

ثم انحنى . وقبله . ونهض واقفا . وجذب السيف من قلب ايروس وأغمده فى أحشائه . . فسقط علي الوسادة يتلوى . ويتألم .

ثم صاح :

— أى اوليبوس . ان هذا الألم لمما يفوق الاحتمال . ضع حداً لآلامى المبرحة يا اليبوس .

تحركت فى نفسى عوامل الشفقة . . فاقتربت واستللت السيف من احشائه . . وأوقفت النزيف . . ثم ناديت أحد هؤلاء الذين تجمعوا لرؤية انطونى وهو يموت . وطلبت منه أن يدعو اتوّا

وسرعان ما أتت العجوز . ومعها الجرعات والعقاقير . فأعطيت منها لانطونى . وطلبت من أتوا أن تسرع بأقصى ما تستطيع الى المقبرة . وتنبىء كليوباترا بجلية الخبر

فمضت . وعادت بعد هنيهة تقول ان الملكة لم تمت بعد . . وهى تدعو انطونى لكى يلفظ أنفاسه الأخيرة . بين ذراعيها

عادت الى انطونى بعض القوة . عند سماعه هذا الكلام وتحامل على نفسه ولكنه لم يستطع السير . فحمله بعض الرجال بمشقة الى حيث كانت حبيبته

ولكن كليوباترا التى كانت تخشى الخيانة . لم تفتح الباب لدخولنا ولكنها دلت حبلا من النافذة . وربطناه تحت ابطى انطونى . . ثم جرت كليوباترا الحبل . بمعاونة شارميون وايراس . وهى تبكى احر بكاء . !

أخذ جسم انطونى يتأرجح فى الهواء . . وهو يئن أنينا موجعاً . . والدم يقطر من جرحه الكبير . وقد أوشك أن يسقط على الأرض مرتين . . ولكن الحب . . واليأس . . قد أوليا كليوباترا قوة . . حتى استطاعت فى

النهاية أن تدخله من النافذة . . بينا كانت الجموع المحتشدة — ماعدای وشارميون — تبكى بدمع هتون .

ولما أدخل انطونى . . تدلى الحبل مرة أخرى فتسلقت الى المقبرة بمعاونة شارميون . وهناك وجدت انطونى . . ملقى على وسادة كليوباترا الذهبيه وصدره عار . . ووجهه مبلل بالدموع . . بينا ركعت كليوباترا بجانبه وأخذت تقبله . . وتمسح جروحه بردائها . وشعرها .

ولأقرر الحقيقة — ولا أخفى شيئا من عارى — أقول ان عقارب الغيرة قد تحركت فى قلبي . . ناهشة لاذعة . .

تأوهت كليوباترا . . ثم غمغمت :

— أى انطونى . . ياحبيبي وزوجى وإلهى . . أى انطونى القاسى . هل يطاوعك قلبك على أن تموت وتخلفنى وحيدة أعانى ذل العار ؟ ! سألحق بك الى القبر وشيكا . . افق ياحبيبي . . افق .

رفع انطونى رأسه . وطلب قليلا من النبيذ فاعطيته جرعة مزجتها بشىء من عقاقيرى لتخفف من ألمه الشديد

ولما جرع مافى الكأس . . دعا كليوباترا الى الاضطجاع بجانبه واحاطة عنقه بذراعيها .

نسى أنطونى آلامه وأوصابه . . وأظهر رجولته . فأخذ يسدى الى كليوباترا خطة نجاتها وأمنها . . ولكنها لم تشأ أن تستمع اليه . وهتفت :

— ان الوقت قصير ، فلنتكلم عن حبنا . . ألا تذكر تلك الليلة التى طوقتنى فيها بذراعيك ودعوتنى « أيتها الحسناء » ؟ . ألا ماأسعدها من ليلة ! .

— نعم أذكرها جيداً أيتها الجميلة وقد عشت على ذكراها . . وهل تذكرين ليلة تجرعت الجوهرة فى النبيذ ! . وعندها صاح المنجم « لقد حلت لعنة منقرع » ! . لقد أمضتنى الكلمات . وما زالت تطن فى أذني ! ! .

— لقدمات هذا الرجل منذ أمد طويل أيها الحبيب .

— اذا كان قد مات . . فانا قريب منه ! . ماذا كان يعنى بذلك ! !

— لقد مات هذا الرجل اللعين . . وانقضى . . هيا قبلنى . فان وجهك قد شحب . ونهايتك تقترب وشيكا .

فتعانقا . . . وتلاقت شفاههما فى قبلة طويلة كعروسين حديثى عهد بالزواج . .

وهنا ارتسمت على وجهه سطور الموت . فهتف :

— الوداع . ياحبيبتى . الوداع . إنى أموت . .

ثم سقط رأسه إلى الخلف

فرفعت كليوباترا نفسها عن المقعد . وتطلعت اليه مشدوهة . ثم أرسلت صرخة داوية . وسقطت على الأرض . فاقدة الوعى !.

« * »

لم يكن انطونى قد مات بعد . ولكنه فقد القدرة على الكلام . فاقتربت منه وركعت . متظاهرا بمعالجته . وهمست فى أذنه :

— أى أنطونى . ان كليوباترا كانت لى كل شىء ! . قبل أن تتحول اليك . انا هارماكيبس . المنجم . الذى كان واقفا خلف الوسادة فى طرسوس وقد كنت أكبر عامل على هلاكك .

« مت يا أنطونى . فقد حلت لعنة منقرع »

فرفع نفسه قليلا . وحملق فى وجهى . ولكنه لم يستطع أن يتفوه بكلمة ثم أسلم الروح

* * *

عملت على إعادة كليوباترا إلى وعيها . لأننى لم أرد أن تموت فى تلك اللحظة . ونقلت جثمان انطونى . بعد استئذان قيصر . . واخذت فى تحنيطه بمساعدة أتوّا ثم حمل بامر كليوباترا فى موكب فخم إلى الضريح الذى أعدته لذلك . وقد كان رحيبا بحيث يسع تابوتا آخر إلى جانب تابوت أنطونى وذلك تحقيقا لرغبة كليوباترا . التى أرادت ألا تفارقه حتى بعد الموت

وبعد وقت قصير جاءنى نبيل رومانى يدعى كورنيليوس دولابلا . كان يخدم قيصر . وكان قد تأثر بجمال من أسرت بجمالها القلوب . ورثى لاشجانها

وانبأنى ان اكتافيوس قد اعتزم أن يأخـذ معه كلوباترا وأولادها إلى روما . وطلب منى بوصفى طبيبها ولى حق الدخول عليها . ان ابلغها تحذيره

ذهبت . فوجدتها جالسة . شبه ذاهلة . وأمامها الرداء الذى مسحت به جروح أنطونى . وهي لا تتحول عنه بعينيها

واذ دخلت عليها . رفعت عينيها وأشارت الى البقع الباهتة . وهتفت :

— انظر كيف بهت لونها يا اوليمبوس . . مع أنه لم يمت إلا من وقت قريب ! . والآن ما وراءك ؟. انى اقرأ فى عينيك أنباء سيئة !.

— انها لكذلك فى الواقع . أيتها الملكة . . فقد تناهي إلى علمى أن قيصر سيبعث بك فى اليوم الثالث أنت وأولادك إلى روما . . لكى تسيرى فى ركابه فى موكب النصر إلى الكابيتول . !

فوثبت واقفة وصاحت :

— لن يكون هذا أبدا .. هل أسير مكبلة بالأغلال فى موكب النصر ؟ ماذا أفعل ؟ خبرينى ياشارميون . . ماذا أستطيع أن أفعل .؟

فاجابت شارميون بهدوء :

— فى استطاعتك الموت ياسيدتى .

— نعم . . لقد نطقت بالصواب . . انني نسيت . . هل لديك جرعة لى ياأوليمبوس ؟

— كلا .. ولكن اذا كانت الملكة تريد . جهزتها لها فى صباح الغد . جرعة قوية . . سريعة التأثير

— جهزها لى فى صباح الغد اذن . . ياسيد الموت .

فاحنيت رأسى . . وانسحبت . . ومكثت طوال تلك الليلة مع أتوّا نعمل فى اعداد الجرعة المميتة . . وكانت بيضاء . . كأكثر الماء نقاوة !

وهتفت أتوّا بصوتها المرتعش :

— جرعه لأجل ملكة . . عندما تستقر خمسون نقطة من هذا العقار فى جوفها تكون قد انتقمت لنفسك من كليوباترا ياهارما كيس . . لشد ما يبتهج قلبي عندما أرى محطمتك . . قد تحطمت

فاجبتها . . وقد تذكرت قول شارميون :

— ان الانتقام سهم طالما أصاب راميه .

الفصل الثامن

موت كليوباترا

وفى اليوم التالى . . أذن قيصر لكليوباترا بزيارة قبر انطونى . . فذهبت وقبلت التابوت . . ووضعت عليه زهر اللوتس . . ثم قفلت راجعة . . واغتسلت . . وتعطرت ولبست أفخر ما عندها من ثياب . . وتناولنا العشاء معها . . أنا وشارميون وايراس

وبينا نتناول العشاء . . انتعشت روحها . . وراحت تضحك وتطرب كأن لم يحدث شىء .. وتروى لنا القصص عن المآدب التى كانت تشترك فيها مع انطونى

لم أرها فى حياتى بمثل ذلك الجمال . . الذى رأيته فى تلك الليلة المشؤومة ليلة الانتقام ! !

ولقد جرها الحديث عن المآدب الى تلك المأدبة التى أقيمت فى طرسوس والتى شربت فيها اللؤلؤة . . ثم قالت :

— إنه لمن العجب حقا أن يفكر أنطونى فى آخر لحظاته فى تلك الليلة .. وفى قول هارما كيس ! . . أتذكرين هارما كيس المصرى يا شارميون ؟ ؟

فأجابت شارميون ببطء :

— بالتأكيد أذكره يا سيدتى الملكة

فأردت أن أعرف ما إذا كانت تتألم لذكراى . . فسألتها :

— ومن يكون هارما كيس هذا ؟

— سأحدثك بأمره . . انها لقصة عجيبة . . والآن قد انتهى كل شىء فلا بأس من سردها عليكم

ثم بدأت فى القاء قصتى من أولها . . ولم تترك فيها شاردة أو واردة . . فذكرت أصلى .. ونسبى . . والمؤامرة التى كان يراد منها تنصيبى ملكا . .

وكيف وقعت فى شرك غرامها . . وكيف بحت لهـا بسر الـكنز الدفين فى قلب الاهرام . . وتلك الليلة الليلاء التى قضيناها فى قبر منقرع . . واللآلىء التى استحوذت عليها . . ثم رغبتها فى الزواج . . وكيف عارضت شارميون الفـكرة بتأثير غيرتها القاسية . . وكيف دفعت بها فى أحضان أنطونى .

وهنا توقفت عن الـكلام لحظة . . رأيت فيها شـارميون . وقد غطت وجهها بيديها . . وجرت الدموع على وجنتيها . . وسألت كليوباترا :

— وأين هارما كيس الآن أيتهـا الملـكة ؟

— لابد أن يكون فى أمنتى . . ينشد السلام مع ايزيس .

ثم استطردت فى سرد قصهـا . . حتي أتت على ليـــلة العشاء فى طرسوس . . وكيف وقعت فى غرام أنطونى .. وكيف أرادت قتلى فى تلك الليلة .. لولا فرارى . . ثم ذكرت قصة الضابط بريتوس . . وعدم تصديقها إياها . . وانها ترجح اننى قضيت عنـد صخور شـاطىء قبرص . . ولا تعلم كيف قضيت . ثم قالت :

— قد تستطيع شارميون أن تحدثنا كيف قضى

— لا أستطيع أن أحدثك بشىء أيتها الملـكة .. لقد قضى هارما كيس وانتهى

— انه أحسن بموته . . بحسبي انه كان رجلا شريرا . . ومن الخطر الاشتراك معـه فى عمل . . لقد خدم أغراضى . . ولـكنى لم أحبـه . . انما كنت أخافه . . وحتى الآن فانى أخشاه . . لقد خيل الى اننى سمعت صوته يدعونى الى الهرب من موقعة اكتيوم .. شـكراً للآلهة على أنه مات وعلى أنى لن أراه بعد الآن . ! !

ولـكنى استجمعت قواى . . وبأساليبي السحرية التى أحذقهـا أرسلت ظلا من روحى على روح كليوباترا . . وجعلتها تشعر بوجود هارما كيس فقالت :

— ماهذا ؟ . وحق سرابيس انى خائفة . انى أشعر بوجود هارما كيس هنا . . ان ذكراه تطغى على .

فاجبتها :

— نعم أيتها الملكة . . اذا كان قد مات فان روحه لم تمت وهى تتبعك أينما حللت . لاسيما فى مثل هذا الوقت وقد قربت نهايتك . ولا بد انها تحوم حولك لترحب بروحك عند ذهابها . .

— لاتتكلم هكذا ياأوليمبوس . فانى راغبة عن رؤية هارماكيس . . فان الحساب بيننا عسير .

لقد ساعدت قصة هذا الاحمق على تمضية الوقت . والآن .. غنى لى ياشارميون بعض أغانيك العذبة .

فاجابت شارميون :

— ليس الوقت وقت غناء ياسيدتى .

على أنها مع هذا تناولت قيثارتها . . وأنشدت أغنية عذبة حزينة . أثارت الشجون وجعلت دموع ايراس تنثال على خديها . ودموع كليوباترا تترقرق فى عينيها المتقدتين . ولكنى لم أبك . . فان دموعى قد جفت . . ونضب معينها . .

وقالت كليوباترا :

— انها لأغنية ثقيلة ياشارميون . . ولكن الظرف كما قلت ليس مناسبا للغناء . . رددها مرة أخرى بعد مماتى ياشارميون . . والآن بعداً للموسيقى الى الأبد . . خذ هذه الورقة ياأوليمبوس واكتب ماسوف أقول :

« من كليوباترا الى اكتافيوس

« تحية . . وبعد . فتلك هى حال الحياة . . لقد حلت أخيرا الساعة التى لانستطيع فيها تحمل الأعباء . . والأجدر ارسال الروح الى عالم النسيان . . لقد انتصرت ياقيصر . . فانعم بالاشلاء . . ولكن لاتظن ان كليوباترا تسير فى ركابك فى موكب النصر . . ولكنها ذاهبة للحاق بمن سبقوها الى غير رجعة . . لقد كانت كليوباترا عظيمة فى حياتها . . وستكون كذلك الى النهاية ! . .

ان العبيد هم الذين يعيشون ليتحملوا نتيجة أخطائهم . ولكن الأمراء

يجتازون الأبواب . . ويذهبون الى مساكن الموت الملكية . . وما ترجوه كليوباترا من قيصر . . هو أن يسمح بدفن جثتها بجوار جثة انطونى . . . الى الملتقى » .

وبعد أن فرغت من رسالتها . ختمتها . . وطلبت الى ان ابحث عن رسول ليحملها الى قيصر فارسلتها مع أحد الجنود الذين كانوا يتولون الحراسة عند المقبرة .

ولما عدت وجدت بالغرفة ثلاث نساء . . واقفات فى سكون . . كليوباترا وقد تعلقت بذراع إيراس . . وشارميون واقفة عن كثب ترقبهما

فقلت :

— إذا كنت حقا تريدين وضع حد لحياتك أيتها الملكة فقد حان الحين لان قيصر لن يبطىء فى ارسال رده على رسالتك

ثم أخرجت القارورة التى تحتوى الجرعة المجهزة . . ووضعتها على المنضدة فامسكت بها . . وتطلعت اليها . . وهتفت :

— انها تبدو كالماء القراح . . لا شائبة فيها . . ومع ذلك ففيها هلاكى الا ما أعجب هذا ؟ !.

— أيتها الملكة ، ان هذه الجرعة تكفى لقتل عشرة أشخاص . . فلا حاجة بك الى تناولها كلها

فغمغت :

— اننى خائفة . ! هل أنت واثق بانها ستقضى على فى التو واللحظة ؟ لقد رأيت كثيرين يموتون بالسم . . ولكنى لم أر أحدا يموت بغير ألم

— لا تخافى ياسيدتى . . لقد أفرغت فيها كل ما أعلم من أنواع السموم القتالة . . وان كنت خائفة فما عليك إلا أن تلقى بها . . لتعيشى . وهناك . . فى روما . . قد تجدين السعادة . . حيث تسيرين فى موكب قيصر . . وحيث تختلط ضحكات النساء برنين السلاسل الذهبية . !

— كلا . . سأموت ياأوليمبوس . . ألا يوجد من يدلنى على الطريق ؟

فتقدمت ايراس وقالت :

— اعطنى جرعة أيها الطبيب . . سأمهد الطريق لمليكتى .

— حسنا . . وعلى رأسك تقع التبعة

ثم صبيت شيئا من المزيج فى كأس ذهبية

فانبعثت ايراس واقفة . . ثم انحنت أمام كليوباترا . . وتقدمت الى الأمام وقبلتها فى جبينها ثم قبلت شارميون كذلك . . وتناولت الكأس وتجرعت ما فيها دفعة واحدة . . ثم سقطت فى الحال . ميتة !

وساد سكون عميق . . سرعان ما قطعت حبله قائلا :

— هاقد رأيت أيتها الملكة مدى مفعوله وسرعته

— نعم ياأوليمبوس . . انه لسيد العقاقير . . هيا . . اننى عطشى . . املأ الكأس .. اذ لا يليق أن تنتظرنى ايراس طويلا .!

سكبت من جديد كمية منه فى الكأس . . ولكنى مزجته فى هذة المرة بقليل من الماء حتى يتأخر تأثيره . . ولكى تعرفنى قبل أن تموت .

تناولت كليوباترا الكأس .. ورفعت عينيها الجميلتين الى السماء . وصاحت بصوت مرتفع :

— يا آلهة مصر . يامن هجرتمونى وتخليتم عنى .. لن أردد لكم صلاة . فقد صمت آذانكم عن سماع صوتى . وعميت عيونكم عن رؤية أحزانى وأشجانى .. ولذا فانى أتوسل إلى الصديق الباقى لى . وهو الموت . اقترب منى أيها الموت . . ياملك الملوك . يامن تسوى بين الأمير . . والعبد . خذنى حيث لا أسمع زفيف الريح . . ولا هدير الأمواج . وحيث لا حروب ولا جيوش قيصر !. خذنى إلى مملكة جديدة . . وتوجنى ملكة للسلام . انك سيدى أيها الموت .. اذهى أيتها الحياة .. تعال ياأنطونى !

ثم نظرت إلى السماء .. وشربت الكأس . . ثم القت بها على الأرض

* * *

لقد خلت أخيراً ساعة انتقامى . . وانتقام آلهة مصر الغضبى . . وحلول لعنة منقرع !.

وصرخت كليوباترا قائلة :

ـــ ما هـذا . إننى أشعر ببرودة أوصالى . ولـكنى لا أموت ! . أيها الطبيب الشرير . لقد خدعتنى

ـــ مهلا ياكليوباترا فستموتين فى التو واللحظة . . وتواجهين غضب الآلهة . . لقـد حلت لعنة منقرع . . انظرى الى أيتها المرأة . انظرى إلى الوجه المجعد .. والى الاحزان التى تدب على قدمين . انظرى . . انظرى .. من أنا ؟

فتطلعت إلى بوحشية . وطوحت ذراعيها . وقالت :

ـــ لقد عرفتك أخـيرا . . وحق الآلهة أنك هارماكيس . هارماكيس قام من بين الأموات ! .

ـــ نعم هارماكيس الذى قام من قبره . ليجتذبك إلى الموت . والحزن الدائم . انظرى أى كليوباترا . لقـد حطمتك . كما حطمتنى . . انى كنت مصدر فزعك الدائم . فملأت قلبك بالخوف فى النوم .. وكففت يد المصريين عن مساعدتك . وبيدى أخيراً تموتين . انى آلة للانتقام منك .

تعـالى يا شارميون . يامن شاركتنى فى مؤامراتى . ثم خنتنى . وندمت . انك شريكتى فى النصر . تعالى وانظرى الى تلك الباغية حيث تموت !.

فتأوهت كليوباترا من قلب يتمزق أسى . وارتمت على الوسادة الذهبية . وقالت :

ـــ حتى أنت أيضا ياشارميون !.

ثم جـست لحظة . وقد أتقـدت روحها . وبدت فى جلالها وعظمتها . . قبل أن تموت .

ثم ترنحت على الفراش . . ومدت ذراعيهـا . . وصبت علىّ لعناتهـا . . وصاحت :

ـــ آه . . من لى بساعة واحـدة . . وأنا أدبر لك ولشريكتك التى لم ترع الجميل . . أو تحفظ الود . . ميتة لاتدور بخلد كما

ثم مزقت الثوب عن صدرها . . وقالت :

ـــ انظر الى ذلك الصدر الفاتن .. الذى كنت تتوسده فى الليالى الماضية

والى هاتين الذراعين اللتين كانتـا تلتفان حولك . . اطرد عن نفسك ذكراهما . . إن كنت تستطيع . . انني أقرأ فى عينيك أنك لن تقدر . . انني مهما احتملت من تعذيب فلن يعدل الحنق الذى يعتمل فى قلبك . .

أى هارماكيس . . أيها العبد الحقير . . انني فى هزيمتى . . منتصرة . . انني أبصق عليك . . وأتحـداك . . انني أموت . . ولـكن حبى الذى ملك شغاف قلبك لن يموت . . ؟ !

أى أنطونى . . تعال الىّ . . تعالى الى ذراعى العزيزتين . . . سنلتقى وشيكا ياعزيزى .. وسنسبح معـاً فى اللانهاية . . تعال يا أنطونى . . وامنحنى السلام .

خارت قواى تحت تأثير احتقارها . . . و أسفاه . . . لقـد سقط سيف الانتقام على رأسى أيضا . . انني لم أحبها كما أحببتها فى تلك اللحظة . . لقـد تعذب قلبى بالغيرة اللاذعة . . ولـكنى وددت لو أنها لاتموت . . ! ! ثم صحت :

— تقولين السلام . . أى سلام تبغين . . أى أوزوريس المقدس . . . فك قيود الجحيم عمن سأدعوهم من عالم الموت . . تعال يابطليحوس يامن سممتك أختك كليوباترا . . تعال يا ارسنوى يامن قتلتك اختـك كليوباترا داخل الهيكل . . تعال ياسيبـا . . يامن لاقيت من ضروب التعذيب والايلام على يدى كليوباترا .. ما أوردك موارد الهلـكة . . تعال يامنقرع المقدس . . تعالوا جميعا وحيوا القاتلة

وبينا كنت أتكلم . . كانت شارميون متعلقة بثيابى وهى جد خائفة . بينما أخذت كليوباترا تترنح . . وهى تنظر الى بعينين غائرتين منطفئتين

وأخيراً جاء الجواب على صوت ندائى . . إذ سرعان ما فتح باب القـاعة ونفذ منه الخفاش الابيض الذى رأيناه ممسكا بذقن الخصى فى جوف الهرم . . فدار فى الغرفة ثلاثا . . ثم حام حول جثة ايراس الميتة . . وطار حيث المرأة التى تموت . . وجثم على صدرها . . وأمسك بالزمردة التى كانت قد اجتذبتها من قلب منقرع . . ثم صرخ ثلاثا . . ورفرف بأجنحتـه . . ثم حلق فى

الغرفة . . واندفع الى الخارج

ثم ما لبث أن احتل الغرفة اشباح الموتى الذين دعوتهم . . فهتفت :

ـ انظرى اى كليوباترا .. هذا هو السلام الذين تنشدين . . والآن موتي . .

فصاحت شارميون :

— نعم . . انظرى .. ثم موتي . . يامن استلبت منى الشرف ومن مصر ملكها ..

تطلعت كليوباترا الى الاشباح برهة . . ثم تقلص وجهها بتأثير الفزع واصفرت عيناها . . وتحشرج صوتها ، ثم سقطت جثة هامدة

***

هاقد ا كملت انتقامي . . منفذا رغبة الآلهة . . ولكنى كنت منقبض الصدر محزون الفؤاد . . بسبب ذلك الحب الضائع . . الذي سكبت دم قلبي على مذبحه .

الفصل التاسع

موت شارميون

أرخت شارميون قبضة يدها عن ذراعى . . التى كانت متعلقة بها بتأثير الرعب ثم هتفت بصوت أجش :

ـ ان انتقامك — أى هارما كيس الغامض — شنيع مؤلم . . أى كليوباترا الضائعة . . لقد كنت ملكة حقا . . برغم كل شرورك وآثامك تعال أيها الأمير . . وعاونى على نقل هـذا الجثمان الملكى . . لكى يعطى جوابا صامتا الى رسل قيصر . . بما يناسب عظمة آخر ملكة تربعت على عرش مصر .

لم أحر جوابا . . لأن قلبي كان مثقلا بالهم .. والضجر ، ولكنى مددت يدى فى سكون وعاونت شارميون على نقل الجثة الى الفراش الذهبى ، ووضعت شارميون التاج ذا الثعبان الذهبى . . على الجبين العاجى ، ومشطت شعرها الاسود الفاحم . . الذى لم يكن قد ظهر فيه بعد أى خيط من خيوط

الفضة . . وأغمضت العينين الجميلتين ، ولآخر مرة تغلق تلكما العينان . . ولا يشع منهما الجلال ، والحياة الحارة الدافقة ، ثم وضعت يديها على صدرها وقومت الركتين المثنيتين تحت ثوبها الموشى . . ولم تلك كليوباترا فى يوم من أيام حياتها . وجمالها ، لتتمتع بمثل ذلك الجلال والهيبة ، وقد حف بها جلال الموت وهيبته

السحبت من الغرفة . . بعد أن القينا نظرة أخيرة عليها . وعلى ايراس الراقدة تحت قدميها .

قالت شارميون :

— لقد انتهى كل شىء يا هارماكيس . وقد اكملنا انتقامنا . والآن هل فى نيتك أن تتبعهم فى الطريق التى سلكوها ؟

قالت ذلك وأشارت الى القارورة الموضوعة على المنضدة . . فاجبتها :

— كلا . اننى سأهرب . سأهرب الى نهاية اثقل وأشد وطاة .

— فليكن يا هارماكيس . وسأهرب أنا أيضا . سأطير . ولكن بأجنحة أسرع من أجنحتك . لقد انتهى دورى . أى حظ أشق وأسوأ من حظى ! .

لقد جلبت التعاسة على كل من أحبتهم . وهأنذا أموت أخيراً . غير محبوبة! .

لقد كفرت عن ذنبى لك . وذنوبى للآلهة الغضبى . وهأنذا أذهب فى الطريق التى استطيع أن اكفر فيها عن ذنبى لكليوباترا . فى الجحيم حيث هى . وحيث يجب أن أقاسمها المأوى ! . لذا سأشرب من نفس الكأس التى شربت منها هى وايراس

ثم أمسكت بالقارورة . وسكبت ما فيها من سم فى الكأس الذهبية . بيد ثابتة . لاترتعد . فاجبتها

— من رأى ياشارميون . انك تستطيعين العيش عدة سنوات أخر ، تنسين فيها آلامك

— نعم أستطيع . ولكنى لن أفعل . أأقضى أيامى هكذا . فريسة لمثل هذه الذكريات الممضة ؟ . أأستمر مصدراً للعار الحى . المتجدد . ليلة بعد ليلة اقضيها مسهدة ، يكتنفنى الأسى من كل جانب ؟ ! . أأعيش ممزقة القلب من

الحب الذى لا أستطيع نسيانه ؟ ! . أأحيا وحيـدة ، منبوذة كالشجرة التي كسرت أغصانها العاصفة ! . كلا . لن أفعل هذا يا هارما كيس ، اننى مت في الواقع منذ زمن طويل ، وما عشت إلا لخدمتك ، والآن وقد انتهت حاجتك الى ، فسـأذهب ، الوداع يا هارما كيس ، لن تكتحل عيناى بمرأى وجهك مرة أخرى ، لأنك لن تذهب حيث أذهب ، إذ أنك لا تحبنى ، ولـكنك تحب تلك المرأة الملـكية ، التى قيـدتك برباط غرامها حتى إبان موتها ! . انك لن تـكتسبها ، كما اني لن اكتسبك !. فما أقسى تصاريف القدر .!

اسمع يا هارما كيس ، انني أسألك منة واحدة . انا التى سأبقى ذكرى عار لك ، قل لى انك قد عفوت عنى ، واثبت لي تسـامحك بقبلة ، لاقبلة عاشق ولـكن قبلنى فى جبيني ، ثم دعنى أذهب بسلام .!

ثم اقتربت منى . . ويداها ممدودتان . . وشفتاها ترتعشان . . وحملقت في وجهي . . قلت :

— إنني أعفو يا شارميون . . كما أتمنى أن يعفى عني كذلك . . وبهذه القبلة الأولى والأخيرة . . أؤكد بيننا السلام

لم تجب بكلمة . . ولـكنها وقفت هنيهة . . تحملق في بعينين حزينتين . ثم رفعت الـكأس وهتفت :

— ايها الأمير الملـكي هارما كيس .. اننى بهذه الـكأس المميتة أشرب نخبك . . لشد ماوددت لو أني شربتهـا قبل أن أعرفك ! ! أي فرعون . . يامن ستحـكم فى عوالم أخرى من السلام .. وتقبض بيدك على صولجان أعظم من ذاك الذى سلبته متك . . وداعاً . . والى الأبد .

ثم جرعت محتويات الـكأس . وألقت بها على الأرض . . ووقفت لحظة تنظر بعينين واسعتـين إلى الموت القريب . . ثم خرت على الأرض . . صريعة

وقفت لحظة وحيـداً بين جموع الموتى . . واقتربت من كليوباترا . . وانتهزت الفرصة حيث لايرانا أحـد . . وجلست على الفراش . . ووضعت رأس كليوباترا على ركبتى . . كما فعلت ليلة اخراج الـكنز . . تحت ظلال الهرم . ثم قبلتها في جبينها البارد . وخرجت من منزل الموت .

لقد انتقمت . ولـكن قلبي كان كسيراً من اليأس .

« * »

وعند ما اجتزت البوابة الخارجية . . وذهبت أضرب فى أحشاء الظلام سمعت وقع أقدام رسل قيصر . . ذاهبين بالجواب .

انطلقت مسرعا الى منزلى حيث وجـدت أتوّا العجور بانتظارى عنـد البوابة فاقتادتنى إلى غرفة هادئة . . ثم سألت :

— هل انتهى كل شىء ؟ ! نعم . . ولم أسأل ؟ . وانا على علم بكل شىء

— نعم لقد سارت الأمور فى مجراها الممهد . . فمات الجميع .. كليوباترا وايراس . وشارميون . ولم يبق سواى ! .

فرفعت المرأة العجوز قامتها . . ثم هتفت :

— دعنى أنا أيضا أذهب بسـلام . . لقد تمت رغبتى على أعدائك . . وأعداء مصر . . لم تـكن حياتى الطويلة عبثـا ! لقد جمعت قطرات الموت وأسقيت منها أعداءك .. فسقطت «المتعجرفة» .. وذهبت « عار مصر » الى التراب . .

— اصمتى أيتها المرأة . . اصمتى . . لقد كتب على شفاههم السكون الأبدى ! ولا يجدر بنـا أن نتبع الموتى باللعنات . . هيا بنا الى ابوثيس . حيث يتم كل شىء . .

ـ اذهب انت يا هارما كيس . وأما أنا فلن أذهب . لقد عشت حتى اتممت غايتى . . والآن انى أحل عقده الحياة . واترك الروح طليقة ! ! .

الوداع يا هارما كيس . لقد أحببتـك طفلا . ويافعا . وما زالت نفسى تنطوى على حبك . ولـكنى لن أعيش بعد الآن فى هذا العالم لأقاسمك الهموم أى اوزوريس . خذى روحى ..

وارتجفت ركبتاها وسقطت على الأرض جسداً هامداً

لقد مضت . وذهب الجميع . وخلفونى وحيداً على الأرض . بلا صـديق يأسو جراح قلبي . .

* * *

ورحلت عن الاسكندرية . وفى اليوم الثامن وصلت الى مذبح ابوثيس المقدس وكان اليوم يوم عيد ايزيس . وقد اجتمع جميع كبار الـكهنة ليحيوا

رجوع الآلهة الى مكانها المقدس

وصلت الى المدينة فى اليوم السابع من أيام العيد . وألقيت بنفسى وسط الجموع الزاخرة . واشتركت مع القوم فى ترتيل الأغنية المقدسة التى تلقى فى مثل تلك المناسبات

وما أن كفت الموسيقى عن العزف . . حتى أتى كاهن رع الاكبر ورفع تمثال الاله الحى بين يديه أمام الجمع الحاشد . . فردد القوم صياح الفرح :

« اوزوريس . يا مبعث الآمال ! . اوزوريس . اوزوريس »

ثم مزقوا الثياب السوداء من فوق اردیتهم . واظهروا الاردية البيضاء علامة الفرح . ثم انطلقوا جميعا فى طريقهم . . بينا مكثت فى مكانى وحدى فى فناء المعبد

اقترب منى الكاهن . وسألنى عن حاجتى . . فأجبته بأننى آت من الاسكندرية لأمثل أمام مجمع الكهنة . . لأننى علمت انهم سيجتمعون لتلقى أنباء الاسكندرية

أمر الكهنة فمثلت فى حضرتهم . فى قاعة الأعمدة . حيث الظلام ما زال مخيما . . فذكرت تلك الليلة التى توّجت فيها . فى نفس القاعة . . فرعونا على مصر العليا والسفلى . . لقد كان كل شىء حيث تركته . وكان بين المجتمعين خمسة ممن اشتركوا فى المؤامرة الكبرى . وهم الذين أبقت كليوباترا على حياتهم . . ولم تمتد اليهم بعد . يد الزمن .

وقفت فى نفس البقعة التى كنت قد توّجت فيها . . والعار يكسونى . . والخجل يملأ نفسى ! !

وقال احدهم :

— ماذا ؟!. هذا هو الطبيب اوليمبوس الذى عاش فى مقابر طيبة . . والذى لازم كليوباترا فى المدة الأخيرة !! . هل حقا ايها الطبيب أن الملكة قتلت نفسها ؟!.

— نعم ايها المقدسون .. لقد ماتت كليوباترا . ولكن بيدى !

— بيدك ! كيف حدث ذلك ؟. مهما يكن . فقد ماتت البغى الشريرة !

— عفواً أيها السادة .. سأحدثكم عن كل شىء . . لأننى ماجئت هنا الا

لهـذا . قد يذكر بعضكم . أنهم منذ أحـد عشر عاما اجتمعوا سراً لتنصيب هارما كيس فرعون على مصر

— هذا صحيح .. ولـكن هل تعرف هذه الأشياء أنت يا أوليمبوس ؟ !

فلم أجب على سؤالهم . ولـكنى استطردت :

— من بين السبعة والثلاثين سيداً الذين اجتمعوا فى حفلة التتويج . . قضى اثنان وثلاثون . البعض مات كامينمحعت . والبعض ذبح مثل سيبا . . والباقى يعملون كعبيد فى المناجم .. أو يعيشون فى بقعة قصية خشيه الانتقام !

— انه لـكذلك ويا للاسف . . لقـد أفشى هارما كيس اللعـين سر المؤامرة وباع نفسه إلى كليوباترا . البغى .

— نعم ايها السادة . لقد باع هارما كيس الخائن نفسه لـكليوباترا . وأفشى الخطة كلها ..! ايها السادة المقدسون . انا هارما كيس !.

فحملق فىّ الـكهنـة مشدوهـين . . ووقف بعضهم . وهم يرمقونى غير مصدقين . ويتمتمون بكلمات مبهمة .. بينا جلس البعض الآخر ساكنا ثم استطردت قائلا :

— انا هو هارما كيس . أنا ذلك الخـائن . . الذي انغمس فى حمـأة الجريمه . لقـد خنت الآلهة . وخنت الوطن . وحنثت بايمانى ، لقـد نفذت انتقام الآلهة فيمن حطمتنى . وسلمت مصر للرومان . .

وهأنذا قد اتيت . . متسربلا رداء العـار . . لأعلن انني ذلك الخـائن الجبان !!.

فاجاب أحد الـكهنة :

— أو تدرى مصير من ينكث العهد . وينقض الايمان ؟

— انى به عليم . وأنا أطلب ذلك الجزاء الرهيب ! !

— حدثنا بالمزيد من قصتك . يا من كنت هارما كيس

فسردت عليهم قصتى بحذافيرها .. بصوت هادىء بارد . ولم أترك صغير ولا كبيرة . وأظهرت لهم عارى سافراً ، بغيضا . وكلما استطردت فى قصتى . عبست وجوههم وبدت فيها آى الشدة . فأيقنت ان لا رحمة ترجى . و أك ابغى الرحمة . ولم أك لاطلبها . لو كان من الميسور أن أمنحها .!

تشاوروا فى الأمر فيما بينهم . ثم قام أكبرهم سنا . وهو الشيخ الوقور

كاهن معبد حتشبسوت المقدس وقال :

— أى هارماكيس . لقد أثمت وارتكبت خطايا متشعبة . فعلى رأسك يقع وزر ضياع مصر ، ووقوعها فى أيدى الرومان .. لقد أهنت ايزيس اهانة مابعدها إهانة . وحنثت باقسامك . ولا يوجد لكل هذه الخطايا غير جزاء واحد معروف . . ولن يخفف من شدة حكمنا انك قتلتها وانتقمت منها . . أو اعترافك بانك أحط من وقتح بين هذه الجدران أو اكثرهم ضعة وعارا فلتنزل على رأسك لعنة منقرع . . أيها الكاهن المزيف . والوطنى الكاذب . أى فرعون . الذى أضاع عقله . . وارتدى رداء العار .

اذهب وانتظر النهاية المريرة لأمثالك ! . اذهب ولتمضك الذكريات . تذكر ما كنت يجب أن تكونه . وما أنت عليه الآن ! !

اذهب واطلب الرحمة من الآلهة التى كنت سببا فى ابطال عبادتها .

اذهب فقد تمنحك الآلهة الرحمة التى نأباها نحن عليك .

وأخذونى الى الخارج مطرق الرأس . ولم أجرؤ على التطلع اليهم ، لقد كان هذا العار الجديد آلم من سابقيه . وأشد وقرا ! ! .

الخاتمة

آخر ما كتبه الأمير المصرى هارماكيس

قادونى الى غرفة سجنى فى البرج . حيث جلست أنتظر تنفيذ الحكم .

لست أعلم متى يسقط سيف القدر علي رأسى . . لقد مر الاسبوع فى اثر اسبوع . والشهر بعد الشهر . وما زلت فى الانتظار .. انى علم انه سوف يسقط على رأسى . . ولكن متى . . لست أدرى .. ربما استيقظت فى ساعة هادئة . . فى منتصف احدى الليالى . . على صوت خطوات القتلة . أو ربما كان الموت أقرب الى من حبل الوريد ! وهنالك أحمل الى الصومعة السرية . كل الفزع ! ومن ثم ينتهى كل شىء . ألا أيها الموت رفقا بى .. وعجل !

لقد سطرت كل شىء . . لم أترك شاردة أو واردة . . انى أثمت . . ثم انتقمت وهأنذا أعد نفسى لمواجهة الفزع . والعذاب فى العالم الآخر

سأذهب ولكن ليس بلا أمل . . انى أحس بوجود ايزيس المقدسة بجانبى . . ولو أنى لن أراها . . ولن تستمع لصلاتي .

قد أظفر أخيرا بالعفو والمغفرة ، فاذا تحقق هذا الأمل فسيرفع عن عاتقى حمل الخطيئة . . وأغدو مرة أخرى طاهرا نقيا .. ثم أحمل الى حيث تهدأ روحي في أرض السلام ! .

أى أرض مصر العزيزة . . انني أراك في احلامي . . أرى أمة بعد امة . . ترفع رايتها على شواطئك . . وتلقى النيران على اهلك .. أرى ديانات عديدة وعبادات جديدة . . أرى معابدك وهياكلك المقدسة قد دكت فى التراب ! . .

وأرى أنا سا ـ لم يولدوا بعد ـ يتطلعون الى المقابر ويمتعون أنظارهم بما حوت من عظمة ، ثم يرى الجهال يهزأون باسرار . . وأرى حكمتك تضيع يضيع الماء فى رمال الصحراء .

وأخيرا . . أراك مرة أخرى ـ أى مصر العزيزة المقدسة ـ حرة قوية وقد عدت الى معرفة آلهتك المقدسة . . تعرفينهم باشكال أخرى وباسماء اخر . ولكنهم ما زالوا الآلهة المحبوبة .

* * *

لقد غربت الشمس فوق أبوتيس . . وأرسل رع خيوطه الحمراء فوق المعابد والهيا كل . . والحقول الخضراء .. والماء النمير . . كل شيء كما هو ، ولم يتغير . . آنا الذى تغيرت ، ومع ذلك فما زلت كما أنا . !

* * *

أى كليوباترا ، يامن حطمتنى ودمرتنى ، لشد ما أرغب فى أن أنزع صورتك من قلبي . . وذكراك من نفسى !. ان اشجانى لا تقاس بهذا الأسى الممض . . وهو انى ما زلت أحبك !.

أراني مضطرا أن أضم الثعبان الى صدري .. وأغذيه من دماء قلبي .

وما زالت تدوي في اذني ، ضحكات النصر . . والفشل .

اسمع شدو البلبل . . .

(هنا انقطعت الكتابة فجأة فى الملف الثالث من أوراق البردى .. وانه ليبدو أن الكاتب قد أزعجه من أقبلوا ليقودوه الى حيث يلقى مصيره الأخير)

(تمت)

كليوباترا

سرُدقين ... اكتشف في مُنعزل من صحراء ليبيا المقفرة، في مغارة خلف مدينة أبيرُوس ومعبدها ... يُظهرُ عظمة امرأة قرّر جمالها الفتّان وسحرها الذي يُسبي العُقول وينفذ إلى الأفئدة مصير الإمبراطوريّات في ذلك العصر ...

وينُقلنا هذا السّر المكتشف إلى عصر الفراعنة الذين حكموا مصر بشعائرهم وطُقوسهم ودسائسهم، وجبروتهم، وكليوباترا محطّمة العُروش إستطاعت أن تجرّ وراءها أعظم التّيجان، ولعبت بقُلوب الرّجال، تتعرضُ بدورها للإنتقام والموت.

الناشر:
التجارية المتحدة - بيروت
المكتبة العصرية - صيدا

0579493

ألمسيح العائم

(رواية)

قصة اجتماعية رائعة

للكاتبة الامريكية الكبيرة

ادنا فرير

الفصل الاول

كانت « بيزار » أو « كيم رافنل » تحمد حظها اذ اقتصر في سوئه على هـذا الاسم فلم يرزؤها باسـم اكثر اضجارا واثقل على اللسان ، كاسم «مسيسبى » وكثيرا ما كانت تقول عندما كبرت :

ـ يا لله .. اى اسم .. مسيسبى رافنل .. من كان يشعر فى نفسه برغبة فى الذهاب لمشاهدة ممثلة تحمل اسم « ميسى » ؟ .. أن «كيم» اسم سخيف ايضا ولكنه اخف وطاة ..

والواقع ان اسم كيم ال اليها من الاحـرف الاولى من اسماء الولايات الثلاث «كنتوكى» و «الينوس» و«ميسورى» وهى انولايات التى ولدت فى مياهها .

الولايات التى انقذتها اسماؤها من اسم « مسيسبى » الذى كانت امها مانوليا رافنل تعتزم اطلاقه عليها ، تيمنا بالنهر العظيم . الذى قضت معظم طفولتها على سطحه ، والـذى طالما سحرتها امواجه . وهمست فى اذنيها باعذب الاحاديث الحالمة .. والذى ولدت عليه «كيم» نفسها . عندما ثارت هائجته وتدفق يغرق البلدان القائمة على ضفته فى صبيحة احد ايام ابريل سنة ١٨٨٩ .

كان ذلك عند نقطة من السـاحل قريبة من القـاهرة الامريكية « كايرو » حيث تختلط مياه «المسيسبى» الصفراء بمياه « الاوهيو » الخضراء الداكنة .. وكانت امها مانوليا مستلقية على فراشها ترقب شواطىء الولايات الثـلاث ، وقد اسدل عليها الضباب ستاره .. شواطىء الينيوس وميسورى وكنتوكى .. ولكنها كانت ترقبها بعينين سارحتين وكانها تبحث خلفها عن افاقٍ خفية لا تتراءى لغير عينها .. وقد غارت وجنتاها ، وشحب وجهها . وبدا عليها الاعياء

لبث أن أستجمع شجاعته وقال
ـ معذرة ايتها المراة الطيبة ... معذرة يا مسز هوكس لا تدرى الملعقة ..
وتسللت اصابع النفساء من تحت الغطاء . فضغطت على اصابعه . فاذابت جليد الخوف عن قلبه . وصهرت عواطفه .. وابتسم وجهها ابتسامة من فهم وأدرك حقيقة مشاعرها .. ابتسامة الرفيق الصديق .. وعجب فى نفسه كيف تبعث الشجاعة فى نفسه . وهى الضعيفة الخائرة . وهو الرجل القوى .. ولكنها طبيعة مانوليا رافنل ! .. كانت لها قوة خفية تستطيع بها لو شاءت . ان تسيطر ـ وهى تبتسم ـ على امها وعلى ابيها الكابتن اندى هوكس وعلى زوجها جاياورد رافنل . وعلى جميع افراد الفرقة المقيمين على السفينة بل وعلى السفينة نفسها . التى كانت تتارجح فى تلك الاثناء بين طيات الامواج القاسية المهتاجة الهائجة الصاخبة ..
وكان ثمة سببان زجا بالسفينة الى موقفها الحالى .. المسيسبى الجائح .. ومانوليا رافنل التى واتاها المخاض فارسل القلق آلى نفوس كل من على السفينة . واسرع الكابتن اندى هوكس بنفسه الى الشاطىء يبحث عن طبيب ... وفيما كان انين مانوليا على اشده . والطبيب حائر يكدح الذهن ليذكر شيئا مما تلقاه أثناء دراسته عن مثل هذه الحالة . ارعى المسيسبى وأزبد . وارسل فيضانه قويا مكتسحا .. فاخر الفرقة عن المضى فى رحلتها لعرض رواياتها واستعراضاتها على المزارعين فى موسم الحصاد . وهى رحلة كانت تدر على الكابتن ذهبا براقا . رحلة تاهب لها الكابتن بكل ما اوتى من مال وجهد وحيلة وفكر . ثم جاء النهر المتنمر فهاج وثار وعطل عليه اغراضه .. وحرمه من الذهب الذى كان منتظرا .. ومن النجاح الذى كانت

تسهر الى منتصف الليل . وتقرأ القصص الغرامية المكشوفة التى تعثر عليها فى غرف النسوة اللائى يرافقن الفرقة التمثيلية . وتطوف بطرقات المدن التى ترسو عليها السفينة وحيدة دون كبير يقودها او يرشدها او يرعاها و « تغمز » وتقلب سحنتها وتغير من قسمات وجهها كما يفعل الزنوج . كل ذلك رغم الرقابة القاسية التى فرضتها عليها امها . التى كانت رغم كل شيء تحرص على ان تتمسك به نساء « الحريم » فى تركيا من اراء وعقائد وتصرفات و .. تعلق بالدين .. ومع انها عاشت على ظهر السفينة الموسم بعد الاخر : وفرضت سلطانها ما امكنها على كل شخص وعلى كل شيء على ظهرها . الا أنها كانت سرعان ما تختفى فى سوبعات المرح والعبث .. حتى اصبح مجرد ظهورها فى اى بقعة على سطح المركب . مبعث الرهبة فى القلوب ..

فهى ما كادت تتزوج من الكابتن آندريه هاردى — او اندى كما يدعى — وتنتقل الى سطح سفينته الاولى التى كانت تقوم بنقل البضائع والمسافرين فى النهر . حتى سعت الى فرض سيطرتها على الطاهى الزنجى الذى كان يعد نفسه ديكتاتورا مستقلا فى مطهاه بالطابق السفلى . لاحق لاحد فى التدخل فى شئونه .. وكانت بينهما مصادمات مضحكة مبكية . انتهت به ذات يوم الى ان يقذفها بالوعاء النحاسى آنذى يعد فيه « التقلية » فتطايرت اشلاء البصل وبقايا التوم . وقطرات المسلى على ثوبها فانطلقت الى سطح السفينة هاربة صارخة حتى ظن المسافرون .. وزوجها فى مقدمتهم ان الرجل قد قضم اذنا من أذنيها .. ولم يك ثمة شك فى وجوب ترك الطاهى الزنجى المسكين . فى اول ميناء رست عليها السفينة .. ومن تم . وطدت مسز هوكس دعائم سلطتها فى المطهى ..

وكانت فى حركة دائمة دائبة على ظهر السفينة .. تنتقل من مكان الى اخر . وتعكر على الخدم صفو فترات الراحة التى كانوا يختلسونها غرارا ليتجمعوا فى منأى عن الاعين يتهامسون عما راوا او سمعوا من أسرار الراكبين .. بل ولم يقتصر الامر على الخدم ورجال السفينة .. فكانت ترقب المسافرات فى ارتياب وشك . وترمق المسافرين فى ازدراء واحتقار .. فقد كان يمض نفسها المتدنئة أن تراهم مقبلين على اللعب والميسر ليل نهار . يعدونه خلال الرحلة كالطعام والشراب وغيرهما من لوازم الحياة ..

ولقد يرى احد السادة المسافرين ان واجب اللياقة يقتضيه اذا صادفها ان يتلطف اليها قائلا :

ـ ... لعلك مسرورة مستمتعة بهذه الرحلة المشوقة على ظهر سفينة زوجك الفخمة يا سيدتى ..

فتعبس اذ ترى فى لهجته من الرقة ما يصعد فى ذهنها الى مصاف الغزل والتقرب ونجيبه وفى لهجتها فتور . وعينها ترمقه بنظرة قاسية :

ـ ان السفينة فخمة حقا . ولكن هذا العبث الذى يقع على ظهرها طيلة الليل . وذلك الفراغ اللاهى الذى يستسلم اليه راكبوها فى النهار . بشيناها فى عين المرء . ويبعثان فى روح كل مسيحى صادق . نذيرا بان ثمة عقابا لن يلبث ان يحل بها قبل ان تصل الى نهاية رحلتها ..

ولقد عرف عنها المسافرون هذه الروح التقية الصارمة فكانوا يتندرون بها اذا ما امنوا غيابها عن مجالسهم .. اما فى وجودها . فما كان احد ليجسر ان يبدى ما قد يثير سخطها .. كان الكل يخشونها ! ..

ولعل تودد المسافرات الى زوجها الرشيق .. وحذقه فى توجيه الحديث اليهن فى رقة ومجاملة . زادا من اذكاء نار السخط فى اعماقها .. فلقد عاشت العمر قبل زواجها

لا تسمع كلمة غزل . ولا ترى من رجل تودداً . حتى لقد كانت تمر بها لحظات لا تكاد تصدق فيها انها اصبحت زوجة .. واما .. كانت محرومة من نعومة الحب وحلاوته المستعذبة .. فاصبحت تراه خطيئة . وتنظر اليه بعين انشك والاتهام ! ...

واذا كانت مانوليا قد نعمت على ظهر السفينة فى حدائتها بشىء من الحرية . فان القسط الاكبر منها كان يعود الى تغافل امها عنها . لانهماكها فى مراقبة المسافرات وفى ملاحظة ما طرأ على علاقتهن بزوجها من تطورات .. واذا كانت هذه المشاغل قد الهتها عن فتنة ابنهر . فان الصغيرة مانوليا لم تلبث ان وجدت نفسها ماخوذة بسحره وروعته منذ الرحلة الاولى التى استطاعت فيها ان تعى ما حولها حتى لقد كانت مسز هوكس تجتذبها عنوة عشرين مرة كل يوم . من حجرة القيادة . حيث تقع الدفة . او من بين دواليب الالات .. وهى تصرخ فى وجهها شاتمة . مؤنبة معنفة .. وكثيراً ما نصحتها فى لهجة من نماى ارادته .

ـ خير لك أن تنصتى الى احاديث السادة والسيدات من المسافرين والمسافرات بدلا من تلك الاحاديث التافهة السخيفة التى تسمعينها من العمال والبحارة . الذين تهرعين اليهم كلما سنحت لك الفرصة .. او .. اقطعى الوقت بقراءة كتابك . اين ذلك الكتاب الذى ابتعته لك كى تتسلى به خلال الرحلة .. اذهبى فاحضريه ..

ولكنها كانت تعود كل مرة ـ اذا قدر ان تعود ـ وهى تحمل كتابا من نوع اخر .. قصة من قصص القراصنة او العصابات القديمة سفاكة الدماء . او غيرها من القصص التى كانت تستعيرها من البحارة .. والتى كانت امها تنتزعها من يدها غضبا اذا وقعت عليها عيناها ..

وكانت تكره « صالون » السفينة الا فى الامسيات . حين

تنعكس اضواء مصابيح البترول على مراياه فترسل وميضا اخاذا . وتبدو السيدات فى ابحرار اللامعة . واللاىء البراقة . بينما تكسب ملابس السهرة الرجال روعة منظر وأناقة . ويم يك فى وسعها اذ ذاك أن تفر الى حجرة القيادة انزجاجية عى ظهر السفينة فى ظلمة الليل . فكانت تبحث عن الترفيه فى مشاهدة العوم والانصات الى احاديثهم او اغنياتهم . خشية أن ترسل الى فراشها غصبا اذا ما بدا عليها من الملل شىء ..

ولكن .. ما تكاد تنقضى الامسيات .. ويريحها النوم من ظلمة الليل ومثله .. وتقبل اخيراجيوش انهارباضوائها الساطعة . حتى تهرع الى سطح السفينة ، فتمسك بيد أبيها ويجرها خلفه فى حنو اينما ذهب وهو يشرف على بحارته ورجاله .. وكان يشجيها ضجيج الالات فتخاله اعذب من الانغام التى تسمعها فى الصالون ! .. وكم كانت تفتنها غرفة القيادة انزجاجية . التى تعلو عن غيرها فوق سطح السفينة . وقد تكسرت حواليها نصال الشمس فاحاطتها بهالة من البريق .. كانت ترى منها كل بقعة فى عرض النهر وعلى جانبيه .. وكانت ترقب خلال جدرانها البلورية الامواج القادمة عن بعد فى تن وانطواء .. وكانت تسال ماسك الدفة أو تسال أباها عن الاماكن التى ستمر بها السفينة فيما بعد وما قد يقابلها فى عرض النهر من انحناءات ، فيلذ لها ان تجد من يكشف لها هذه الاسرار التى تبدو لها غامضة مشوبة بالابهام .. فتنظر الى ماسك الدفة او الى أبيها كما لو كان كل منهما ساحرا عليما ، او راجما بالغيب كشفت امام عينيه الحجب ! .

وكان مستر بير . ماسك الدفة . يسمع لها فى بعض الاحيان . اذا ما مخرت السفينة عباب منطقة عميقة! غور او تدبر الدفة وهو واقف الى جوارها . او وأبوها واقف

خلفها يرقبها . فتحس نشوة ومتعة دونهما كل متعة ونشوة .. بل ولقد خبرت دقات النواقيس المختلفة على سطح المركب وادركت ما تعنيه كل دقة من اصطلاح اتفق عليه الملاحون .. واكثر من ذلك انها كانت تتيه زهوا حين تجد نفسها بين جدران حجرة القيادة التى حرم على اى فرد على ظهر السفينة ان يدخلها فترى انها أوتيت ما لم يؤته غيرها ممن يكبرونها من امتيازات !..

هكذا كانت فى ربيع طفولتها .. تستمتع بحياة باسمة لامعة .. لا ينغصها عليها سوى رقابة أمها وحرصها وشدتها .

وهكذا كان التعارف الاول.. بين مانوليا ونهر المسيسيبى

الفصل الثالث

على ان تلك السفينة التى ولدت عليها مانوليا. وقضت على ظهرها طفولتها . ما لبثت ان توارت وراء حجب الاهمال لتحل محلها من عناية الكابتن اندى هوكس سفينة العرض المسماه « مسرح زهرة القطن » ..

ذلك ان السفينة الاولى « كريدل بيل » كانت تقوم على خدمة المسافرين ونقل البضائع والعتاد على سطح المسيسبى ونهيراته وفروعه .. ولكن تقدم وسائل المواصلات فى البر ما لبث أن عطل عمل كريدل ومنيلاتها فجزع الكابتن اندى فما كان ليجيد حرفة غير الملاحة . وما كان يستطيع كسب عيشه الا بين طيات الامواج .. وما كان يعترف بالمنزل الذى اتخذته اسرته لتقيم فيه بضعة اشهر من كل عام فى « طيبه » الامريكية . ما كان ليعترف بهذا المنزل فقد كان منزله وبيته السفينة التى تمخر به عباب النهر .. وما كانت له من دنيا سوى دنيا المسيسبى .. النهر الذى كان يحبه ويخافه فى ان واحد ...

ولمح يكدح ذهنه . فما لبث ان اهتدى الى امر كان

خافيا عليه .. لا . بل كان يخشى التفكير فيه من قبل كان زميله « اولى بيجرام » العجوز ينتوى بيع سفينته « زهرة القطن » التى كان يستخدمها كمسرح عائم متنقل يعرض المسرحات والالعاب والموسيقى على سكان المدن والقرى الواقعة على جانبى النهر .. وكانت هذه السفينة تدر عليه ارباحا طائلة تكفى لان تغرى ايا من ابناء المسيسيبى ولكن اندى كان يعمل لمعارضة زوجته كل حساب .. كان يعرف ان روح التدين والتقوى ستدفعها لان تسفه رايه وكان يدرك أن روح الحزم والصرامة التى نشات عليها عندما كانت تعمل كمدرسة فى احدى مدارس الريف الالزامية قبل زواجهما . كفيلة بان تحمآها على ان ترى فى شرائه مسرحا عائما مايخدش الشرف والكرامة . ويخرج عن حدود الاحتشام .

وصح ما توقعه . فقد ثارت فى وجهه عندما اشار فى تردد وتهيبه الى ان بيجرام العجوز يعتزم بيع سفينته المسرحيه « زهرة القطن » . وانه يتمنى لو اشتراها ..

بيد ان ثورتها لم تثنه عن ان يعمل على تحقيق الفكرة التى قامت فى راسه .. كان ابن النهر . يدين للنهر بكل ما فيه . وبكل ما يملك . فلا يستطيع له فرآقا بعد اذ كسدت حركة النقل والملاحة النهرية .. وكان يؤمن بان السفن المسرحية العائمة تدر ارباحا اثرى من ورائها اشخاص يعرفهم تمام المعرفة . وان من العبث ان يترك الفرصة السانحة امامه . تمر دون ان ينتهزها ويفيد منها

وراح يعمل فى الخفاء ، ليل نهار ؛ ولا يجد من يفرج عنه ضغط مايعتمل فى صدره ، سوى الصغيرة مانوليا التى كانت تصغى الى كل همساته باذن واعية واهتمام وكانما كانت تفهم كل مايقول .. كانت تحب النهر آلذى ولدت على صدره . فكانت لذلك تطرب لكل حديث عنه ، وتتوق للعودة الى الحياة

فى تلك الدنيا العائمة على سطحه ؛ التى كانت تمثلها سفينة أبيها .. وتشعر بالملالة وتحس بكابة لهذه الحياة الجامدة التى تسير على وتيرة واحدة . على البر . لا تغير فيها ولا تبدل .. والتى تزيد من وطاتها . تلك الرقابة الثقيلة التى تفرضها عليها أمها ..

ولقد صادفت مانوليا فى تلك الاثناء حادثا اتسق فى ذاكرتها الصغيرة مع ماكانت تسمعه من أبيها عن السفينة الجديدة والقوم الذين يعيشون عليها «الممثلين» فقد استطاعت يوما أن تهرب من رقابة أمها حتى وصلت الى الباب الخارجى لدارهم فى «طيبة» فاذا بها تلتقى برجل وامرأتين يتسكعون أمام البيت وهم ياكلون شيئا من الفاكهة فى استخفاف . ويضحكون فى تبذل .. وكانت احدى المرأتين صغيرة . جميلة . فى لباس لم تر مانوليا ابدع منه .. أما الاخرى فكانت تكبر زميلتها سنا . وقد تبدت على وجهها ندب طويلة لم تدر مانوليا ماتاها وتراءت عيناها جامدتين غائرتين . ولباسها مشعثا غير معنى به .. كما كان حال لباس الرجل الذى لاح شابا لم تطعن به السن بعد .. بيد أن جوافاتنا حبيبا كان يحوط الثلاثة وهم يتسكعون فى مشيتهم .. وفجاة . لمحت كبرى المرأتين مانوليا فابتسمت لها .. وتلفتت الصغيرة حولها حتى آذا امنت عينى أمها . لم تر باسا من أن ترد الابتسامة فصاحت المرأة :

ـ الا انظر الى الطفلة .. ما أجمل ابتسامتها ..

ولكن ابتسامة مانوليا لم تلبث أن خبت اذ رات نظرة الاخرين تنحدر اليها فى غير اكتراث .. وقالت المرأة الصغرى شيئا تصف به الكبرى بالحماقة .. ولكن هذه ركعت على ركبتيها أمام الطفلة وقالت :

ـ هالو يا صغيرتى ..

فحدقت فيها مانوليا مبهوتة حائرة .. فصاحت المرأة تقول :

ـ الا تقولين لى « هالو » ..

فصاحت الاخرى الجميلة : مجبا لك ياجولى .. هيا بنا
ولكن جولى وجهت الحديث لمانوليا وكانها شخصا يفهمها لا تبتسمى كثيرا عندما تكبرين . ولكن .. استعملى ابتسامتك كلما كنت فى حاجة ماسة الى شىء ما . او احببت ان تاسرى قلب الناس .. ولكننى اظنك مدركة ذلك من تلقاء نفسك متى كبرت .. والان . هلا قلته . يهالو ؟..

ـ كلا .. ان .. ماما لا تسمح لى

ـ يالعجب !.. ولم يا صغيرتى ؟..

ـ لانها لا ترضى عن حديثى الى ممثلين ..

فصاحت صغرى المراتين وهى تضرب بقدمها حجرا امامها لعنة الله عليك من شقية !..

وانطلق الرجل مقهقها .. وفى تلك اللحظة . خرجت مسز هوكس من البيت وهى تصيح :

ـ ماجى هوكس .. تعالى فى الحال !..

وكان «ماجى» هو الاسم الذى تنادى به مانوليا فى سويعات الغضب .. وتضاعفت ضحكات الاشخاص الثلاثة ..

وعندما جاء الكابتن آندى فى المساء : كان يحمل قصة جديدة .. كان الاشخاص الثلاثة من ممثلى السفينة المسرحية «سيناسيون الفرنسية .. وبينما كانت صغرى السيدتين تقوم بدورها ذات مساء : اذا بالنار تشب فجاة فى السفينة فتاتى على معظمها .. ومن جديد عاد صاحب (سيناسيون) فابتنى سفينة مسرحية جديدة هى التى رست فى ذلك اليوم على شاطىء (طيبة) وحملت فيمن حملت اولئك الاشخاص الثلاثة ..

ولم تك بارنى ـ او بارتينيا ان هوكس ـ بالحمقاء التى لاتدرك أن ثمة شيئا وراء احاديث زوجها عن السفن المسرحية فى الايام الاخيرة : فصاحت فى لهجة الامر المحنق .

ـ قد لا ادرى شيئا عن اعمال هذه السفن . ولكننى ادرك

جيدا ان ليس من حصف الرأى أن تقضى نهارك فى المرغا بين أهلها وكأنهم من الافاقين .. ثم تاتى فى المساء : فتحدث الطفلة عن المسارح والممثلين .

ـ وأى عيب يشين السفن المسرحية ؟..

ـ بل كلها عيوب صارخة .. أنها تحمل قوما من الافاقين الشريرين . ألـ .. الحاسدين !..

فامسك الكابتن اندى بالشعر الكث النابت فى فوديه . كانما يتشبث به . وهتف :

ـ ليسوا اسوأ حالا من زوجك ياسيدتى مسز هوكس .. لقد كنت فى شبابى احد ممثلى هذه السفن ..

وهتفت مانوليا مغتبطة وهى تصفق بيديها الصغيرتين : أحقا كنت ممثلا ؟.. كيف لم تخبرنى بذلك من قبل ؟.. أما كنت تعرفين هذا يا أماه !.

فنهضت الام فى حنق وصاحت فى وجهه : أى حديث هذا يا اندى هوكس اذا كنت تسخر منى أمام الطفلة . فعجبا ان تسخر بمثل هذا الحديث !..

ـ بل هى الحقيقة .. ولقد كنت اعمل على ظهر السفينة (الجنوب الشمسى)

ـ كفى .. لقد كان من الخير انك كتمت عنى هذا طيلة الاعوام الماضية . ولو أننى عرفته لما قبلت الزواج منك .. وعلى كل حال . دعنى أرجو ان تكون هذه أخر مرة تذكر فيها السفن المسرحية فى هذا البيت ..

فعاد يتشبث بشعر فوديه ويقول : انها لن تكون المرة الاخيرة يا بارتى .. فقد ابتعت (زهرة القطن) .

ولو أن صاعقة انقضت على بارتينيا . لما كان لها مثل ماكان لهذا النبا من وقع .

وقال أندى : طبعا لا يابارتى .. تعالى أريك ما أعددت لك وللطفلة ..

وعبرا خشبة المسرح ومانوليا فى اثرهما . الى درجات تقود الى الشرفة الكبيرة ومنها الى بابين يؤديان الى حجرتى نوم فسيحتين . اذهل بارتى ان تراهما تضارعان حجرة النوم فى البيت القائم فى المدينة .. بل وتبزانها بما تحتويان من متاع ورياش .. فمدت أصابع خبيرة الى صيوان فى احدى الحجرتين . فازاحت بعض الاتربة .. وقالت

ـ يا للتراب !.. سيكلفنى هذا عناء كثيرا .. ولابد لى من ان اعد بعض الستائر أيضا

وهم أندى ان يصيح طربا اذ أحس أنها رضيت اخيرا .. ولكن شيئا غريزيا أوحى اليه بالصمت ..

ودلف هو ومانوليا الى الشرفة .. نفسان تشعران بشعور واحد . وتفهم كل منهما الاخرى .. وتبعتهما بارتينيا بعد برهة .. وفجاة . سمعت اصواتا مرحة تحت السلم . وضحكات نساء .. واندفعت بارتى . فاذا هى وجها لوجه أمام امراتين فى زينة صارخة . أقبلتا هارعتين . فتجنبتاها وارتميتا على عنق الكابتن اندى تقبلان الشعر الكث النابت فى فوديه وصاحت احداهما

ـ أوه ياعزيزى الكابتن هوكس !.. الم يدهشك ان ترانى؟ الم يسعدك حضورى ؟.. لقد اقبلنا من كايرو خصيصا لنراك (وزهرة القطن) اليانعة .. وقد صحبنا دوك ..

فاحاطهما أندى بذراعيه وراح يعتذر ليتمالك الموقف اذ ابصر بارتى ترقبهم وشرر الغضب يتطاير من عينيها .. بينما كانت مانوليا تتطلع الى المراتين فى دهشة وقد عرفت فيهما تلكما الممثلتين اللتين صادفتاها ذات يوم عند باب البيت فى طيبة . ولمحتها كبراهما فصاحت

ـ عجبا يا ايلى !.. هاهى ذى الفتاة الصغيرة !..

شبح الخريف .. والعودة الى البيت القائم فى طيبة . . والحياة العادية المملة لطفلة مثلها . يتعين عليها أن تذهب الى المدرسة وأن تحبس نفسها بين جدرانها من الصباح الى مابعد الظهر ومع ذلك فقد عاشت مانوليا أشهر الصيف كاميرة من اميرات الخيال .. الى أن حان الربيع التالى ..

ومضت السنين على هذه الوتيرة . والنهر يفرض سلطانه على مسز هوكس ومانوليا شيئا فشيئا . فتزيد مدة مكثهما بين أحضانه على ظهر السفينة . ويتناقص أمد اقامتهما على البرسنة بعد أخرى .. وكم كان يغيظ بارتى أن تزمع السفينة الشروع فى رحلتها السنوية قبل انتهاء موسم دراسة مانوليا بشهرين .. فتصر على الا تبدأ الرحلة . وتؤكد أنها ستبقى بالصغيرة حتى ينتهى العام الدراسى ثم تلحق بالسفينة أينما كانت . وتصيح فى سخطها الدائم المعهود

ـ آندى هوكس .. لن تكون لى ابنة تنشأ جاهلة لاشىء الا لان اباها يقضى العمر متجولا على صفحات الانهار . معوثلة من الكسالى المهرجين ..

ولكن .. ما أن تتحرك السفينة . حتى تكون مسز هوكس على سطحها . منهمكة فى تثبيت الستائر الجديدة . والاشراف على كل من فى المطهى . والتنغيص على افراد فريق التمثيل . وفرض سلطتها على السفينة باسرها .. مستعينة بما بقى لها من ذكريات ماقبل الزواج ـ حين كانت تعمل كمدرسة ـ فى تعليم مانوليا .. وكم كانت مانوليا تتحايل على انتهرب من دروسها .. وكم عضت على شفتيها وقطبت مابين حاجبيها . ورمقت أمها بنظرة من تحت أهدابها وصاحت

ـ ماذا يهمنى أن أعرف حاصل ضرب التسعة فى السبعة؟ ان ايلى نفسها لاتعرف . فقد سألتها فاجابتنى انها لم تحصل فى حياتها على تسعة من أى شىء من الاشياء .. لاتعرف رغم انها أجمل المخلوقات بعد جولى . وبعدى اذا ما ابتسمت . .

ثم ان اسمى لم يكن ماجى هوكس فى يوم من الايام .. انه مانوليا ما .. نو .. ليا ..

ـ وماذا فى ذلك ؟.. اذا حدثتنى بهذه اللهجة مرة أخرى أيتها السيدة الصغيرة فلن أتوانى عن أن أصفعك

ومع ذلك فقد ظلت مانوليا لاترى معنى لدروس الحساب التى ترهقها بها أمها لا ولا لدروس الجغرافيا . فقد كانت تعيش فى «الجغرافيا» نفسها وتلمسها بيدها . لقد طافت بالانهار على ظهر السفينة . ودرست الناس لكثرة ما رأتهم وعرفت اغانى الزنوج . وشقشقة العصافير . و .. فن (الماكياج) وأدوار ممثلى فرقة (زهرة القطن) فى المسرحيات المعدودة التى لم تتغير قط .. كانت كل هذه دنيا الفتاة الصغيرة التى لم تتعد اذ ذاك العاشرة من عمرها .. وهى دنيا مليئة بالابام العذبة لاتكدر من صفوها غير وجود بارتى بارادتها الحديدية وتحكمها العنيد ورقابتها القاسية .. الاشياء التى لم تكن تقنع بفرضها على زوجها ومانوليا .. كانت تتمادى فتثقل بها عواتق كل رجل على سطح السفينة . وعلى ظهر القارب البخارى الملحق بها .. حتى بات الكل يرهبونها ويخشون ان يحيدوا عن أوامرها خوفا من لسانها .. وحتى ذاع فى أحواض الانهار التى كانت ترتادها السفينة . أن (زهرة القطن) هى أحكم السفن نظاما . وأحسنها ادارة . وأغناها عدة وعتادا ورجالا .

وهكذا صارت حياة مانوليا خليطا من الفوضى والنظام .. وغدت تربيتها مزيجا من التهاون والشدة .. فانسابت الى تيار الحياة وكانما خلقت للحياة .. ولولا بارتى لافسدتها مخالطة ممثلى السفينة ..

والواقع ان مسز هوكس وفقت فى توطيد دعائم دكتاتوريتها على سطح السفينة حتى أصبح وقع قدميها مالوفا لكل اذن فكانت حركة دائمة . بين غدو ورواح . تشرف على كل شىء

ولقد حدث فى أول عهدها بفرض سيطرتها . ان سالتجولى يوما عن الوقت .. وكانت هذه تجلس متراخية فى مقعد مريح على ظهر السفينة . تتسلى بالتطريز . وهى لاهية غارقة فى أفكارها . فاجابتها

ـ وما يعنينى أنا ؟

وكان هذا الرد كفيلا بعد ذلك بتقييد حرية الممثلين أثناء النهار .. فلم يعودوا يستمتعون بفوضى تناول طعامهم متى شاءوا . أو الايواء الى مضاجعهم فى ساعات متاخرة .. بل أصبحوا يخضعون لمواعيد منظمة .. وكانوا دائما فى شجار مع البحارة لا ينقضى يوم لايتبادلون خلاله الشتائم . او يشتركون فى معركة أو اثنتين .. ولكن (الديكتاتورة) الرهيبة عرفت كيف تجعل الذعر وسيلة لايقاف كل هذه الفوضى .. فلم يعد الممثلين أن يختلطوا بالبحارة . لا ولا لهؤلاء أن يختلطوا باولئك . الا نفر منهم كانوا يعملون فى موسيقى الفرقة . الى جانب عملهم الملاحى ..

ومع ذلك . فقد كان فى اتساع نطاق مملكة بارتى . خلاصا لمانوليا من بعض رقابة أمها .. ولولا انها ورثت عنها بعض تقواها لطغت الدماء الفرنسية التى ورثتها عن ابيها ولساعدت مع ذلك الوسط على افسادها .. فقد كانت الصغيرة تعيش فى كل حركة من النشاط الذى يشيع على سطح المركب . اذا استثنينا التمثيل وما تقوم به الفرقة من تجارب (بروفات) قبل حفلاتها .. وان كانت عيناها الزرقاوان واذناها قد حرصت على استيعاب كل حركة تصدر وكل كلمة تقال خلال هذه التجاريب وخلال تمثيل المسرحيات التى تقدمها الفرقة للفلاحين والمزارعين واهل شواطىء الانهر التى تنساب فوقها السفينة ..

واخذت الحياة تسير على ظهر السفينة على وتيرة معينة على (روتين) ثابت منظم ..

غدا مع دوك على الشاطىء ..

وكانت أقاصيص دوك عن القراصنة وقطاع الطرق الذين عاشوا على شاطىء النهر منذ انقدم تبعث فى مانوليا خوفا مستعذبا ، وشوقا يجعلها تتحرق لهفة الى اللحظة التى يصحبها فيها دوك .. لذلك كانت لا تلبث ان تنصاع لاوامر أمها ، فتاوى الى فراشها .. ولكنها كانت تظل يقظةمرهفة الاذنين تنصت الى الحوار الذى يدور على المسرح .والذى كان ينساب اليها واهناخافتا خلال أبواب الشرفة المغلقة.. وتحس بمتعة وهى تميز لهجات الممثلين والممثلات ، بما تنطوى عليه من كراهية أو حب ومن ياس أو أمل . ومن فرح أو جزع ..

وحدث مرة أن تسللت مسز هوكس الى مخدع الفتاة الصغيرة فراعها أنها لم تجدها فى فراشها .. وراحت تبحث عنها فى لهفة وذعر حتى وجدتها وقد تسللت من الشرفة وتعلقت بنافذة تطل على المسرح . غير عابئة بما تتعرض له من خطر السقوط فى النهر ــ وانما اقنعها الحادث بانه من العبث أن تحاول أن تنشىء الطفلة التى تعيش على سطح مسرح عائم . على ماكانت تنشىء عليه بنات المدرسة الالزامية التى كانت تعمل بها قبل زواجها .. ومن ثم سمحت لمانوليا ان تمكث اثناء التمثيل .. وكانت الصغيرة تنسحب من تلقاء نفسها فتاوى الى فراشها .اذا ماوصلت المسرحية الى عقدتها الخطرة .. اذا رات أمامها الحب يضيع . أو الشر يتغلب . أو الجمال يذبل يخبو . أو الدماء تسفك وتراق .. وكان من العجيب أن تمقت المأساة التى تنطوى عليها هذه المناظر ..

وكان ان حفظت الادوار المتباينة فى كل مسرحيات الفرقة ، عن ظهر قلب .. حتى غدا فى وسعها عندما بلغت الثالثة عشرة من عمرها . أن تقفز الى خشبة المسرح لدى

الذى يجذب الرجال اليها ، فيثير ذلك غيرة ستيف ..وما كان احد من اهل المركب ليجهل الصراع الخفى الذى قام بينه وبين بيت ـ مهندس انزورق البخارى مولى آبل ـ الذى كان يقوم فى نفس الوقت بالعزف على الطبل الكبير فى فرقة الموسيقى ..

فقد كان بيت يسعى جهده للتقرب الى جولى ، ويتعقبها اذا هبطت الى البر ويحوم حولها فى كل مكان تاوى اليه.. ويرسل اليها من الهدايا ماترهقه تكاليفه بل لقد تجاوز الصراع بين ستيف وبيت حدود الخفاء . فانقلب ذات يوم الى شجار من المشاجرات الحامية .. الوحشية .. الدموية .. ولم يلبث بيت فى نهايته أن وجد نفسه يهوى الى احضان المسيسبى . ومع ماعرف عنه من مهارة فى السباحة . فانه كاد يغرق . لولا ان ادركه المنقذون .. فاوى الى مولى آبل يضمدجراحه ويجفف ثيابه وهويقسم ان ينزل قصاصه وانتقامه بغريمه وبالمراة معا ..

ولم يحاول بعد ذلك مغازلة جولى .. ولكن تهديداته وتوعداته كانت تلاحقها وتلاحق ستيف .. فامر هذاجولى الا تغادر السفينة وحدها ! لذلك كانت اذا اقبل الربيع . وهفت نفسها الى مراى الحقول المزدهرة . تصحب مانوليا معها الى البر ..فترتعان وتلعبان متناسيتين تعليمات مسز هوكس التى كانت تقف أمامهما قبيل هبوطهما عن ظهر السفينة . كضابط يقف امام جنديين من فرقته منطلقين فى نزهة اجازها لهم فتقول :

ـ مانوليا .. احكمى وضع قبعتك على راسك .واجذبى طرفها حتى لايؤذى وهج الشمس عينيك .. ولا تجرى ولا تتعرضى للحر والقيظ طويلا .. وعودى قبل الساعة الرابعة .. اياك .. احذرى ..

ولكنهما ما تكادان تطمئنان الى انهما قد ابتعدتا عن

السفينة . حتى تتوغلا فى أول حقل يصادفهما . ثم تنزع كل منهما قبعتها عن رأسها فى صمت .. وتبعث جولى من أساريرها ابتسامتها المحبوبة .. ويشرق وجه مانوليا بجمال مباغت .. وتثنى جولى أطراف ثوبها وترفعها عن ساقيها .. وهكذا تعلنان العصيان على أوامر مسز هوكس بعد اذ أمنتا وجودها ..ثم تنطلقان فى الحقول والمزارع غير عابئتين بحرارة الشمس أو وطأة القيظ والارهاق . أو ما يعلق بسيقانهما من أتربة وأوحال .. لتعودا فى نهاية النهار محملتين بالازهار .. فتتقبلان ثورة بارتى وتانيب ستيف فى مرح وانشراح ..

على أن أحب الاوقات لدى مانوليا . كانت تلك التى تقضيها فى مطهى السفينة تتنسم بخار الاطعمة اللذيذ الاريج .. وتصغى الى أغانى كوينى وجو فى شغف ونشوة .. وهناء .. فى المطهى .. تعلمت مبادىء الدين على يدى جو .وأصول الطهى على يدى كوينى .. وهما أمران كانا خير عون لها بعد سنوات طويلة بعد أن أصبحت زوجا وأما ..

فكانت ابنتها كيم رافنل الممثلة تعتز بطبق من انطعام تقدمه الى ضيوفها تحت أسم (لحوم على طريقة كوينى).

وكم سألتها صديقاتها كيف تعدين هذا الصنف ..؟ اننى لا اخاله حقيقيا .. وكانى به مصنوع من جبس منقوش مضمخ بالروائح الموقظة للشهية ..

فتجيبهن على العكس .. انه لحم حقيقى مشرب (بالمرق) و (التوابل) و (البهارات) .. لقد تلقيته عن امى انتى تعلمته من احدى زنوج الجنوب .. واسمها كوينى !..

وكم نفذت مسز هوكس الى مطهى المركب فجاة .. فاذا بها ترى مانوليا جالسة الى احدى المناضد معتمدة راسها بين راحتيها وقد استندت بمرفقيها الى المنضدة وراحت ترمق كوينى فى اعجاب وتنصت الى جو وهو يترنم باحدى

يخلق المال حتى ادفع لجورج خمسين سنتا كل اسبوع دون أن تنتفضى بدروسه ؟.. اذهبى ..

فتغادر مانوليا المطهى . وكلمات بارتى تلاحقها

ـ لست أدرى من أين اكتسبت هذا السلوك الشائن وهذه التصرفات الوضيعة !.. ألم تجدى بين البيض من نسرك مجالسته فجئت تندسين بين هذين الزنجيين .. هيا اجلسى الى المعزف !..

فتجلس مانوليا متذمرة الى المعزف الصغير العتيق الذى أعد لفرقة الموسيقى على ظهر المركب .. والذى كانت تتلقى عليه مبادىء العزف من جورج العازف على البيانو فى الفرقة .. فى الفترات التى يرتاح فيها المعزف من التجاريب التى تجرى استعدادا لحفلة المساء .. والواقع أن مانوليا كانت خلال حياتها فى هذا الوسط قد تعلمت شيئا من الموسيقى .. وقد أعانتها على أن تحذق ماتعلمت .. روح موسيقية حبتها بها الطبيعة بالفطرة .. وأنمتها فى نفسها أنغام جو على آلته الزنجية البسيطة .. فقد كان عازفا ماهرا . ولو أنه عاش بعد ذلك ألحين بخمسين سنة .. لاكتسب شهرة عريضة .. عندما فطن البيض الى ما لدى السود من روح وفن خيلقين بالا يهملا ..

وتنبعث دقات المعزف تحت أصابع مانوليا الصغيرة وتنساب مع الهواء الى الخارج .. وعبر الصلصلة والزبد خلال نافذة المطهى .. فتتلقفها آذان القرويين وأنوفهم . وهم يتسكعون على البر يتاملون السفينة عن كثب ..

ولم يكن ثمة محيص من أن تترك هذه الحياة طابعها فى نفس بارتى ..

فلم تلبث أن نزلت شيئا فشيئا عن تلك السمة التى تسم المدرسات .. وتاثرت لهجتها فى الحديث بما كانت تسمعه من المحيطين بها .. ولكنها رغم ذلك . ظلت تقبض على

اعنة النظام على سطح المركب بيد فولاذية ..

وبدأت بارتى تجد من نفسها ميلا الى مساعدة ايلى وجولى كلما جاستا لحياكة الثياب التى تظهران بها فى أدوارهما على المسرح حتى اصبحت تضطلع بقسط وافر من هذا العمل ..

وكلما هتفت متافقة من كان يتوقع ان اعيش حتى ارى نفسى احيك الثياب لممثلات ..؟

أجابها آندى فى ملق دعك من التافف يا بارتى . فما اراك الا مشغوفة بهذا العمل ..

ـ شغفت ام لم أشغف .. لاسبيل الى الخلاص . لقد تزوجتك على الخير والشر . فماذا فى وسعى ان اعمل ؟..

ولكن لهجتها كانت لاتدع شكا فى انها استعذبت هذه الحياة المتلونة المتباينة التى لاتبعث على الملل والسام

الفصل السابع

ولم تلبث جولى ان غادرت السفينة .. وبذهابها افلت شمس ستيف .. وعرف الاسى سبيله الى قلب مانوليا .. فلقد بر بيت بقسمه . وانفذ وعيده .. وأوقع انتقامه .. وان يكن هذا الانتقام قد صار فيما بعد قذى فى عينه ورمادا فى حلقه ..

حدث ذلك فى اليوم الذى رست فيه « زهرة القطن » على شاطىء ليموين فى حوش المسيسيبى لتعرض مسرحياتها

فقد اصيبت جولى دوزيير فجاة بتوعك .. وفى « زهرة القطن » كما فى أى مسرح اخر على صفحة الماء او على اليابسة . لايقر المرض مرض الممثل .. نعم انه قد يمرض وقد يأوى الى فراشه . وقد تفارقه قواه حتى لايستطيع الوقوف على قدميه .. ولكن التقاليد تقضى عليه ان يطرح عنه المرض عندما يحس موعد رفع الستار .

وان يظهر على خشبة المسرح .. وله بعد ذلك أن يموت وكن عى الخشبة . أو بعد اسدال الستار

وكانت جولى تعرف هذا وتعلم ان ليموين بلدة كبيرة غنية . تجنى الفرقة منها ربحا ضخما .. وكنها مع ذلك لزمت فراشها فى غرفتها المظلمة . ورفضت كل مساعدة او معونه .. فلم تقبل طعاما .. كل ماتمنته . ان تترك وحيدة .. مع ستيف .. فظلا معا فى الغرفة المظلمة .. يجزعن اذا عذر عليما خاوتهما احد .

وظهر دوك أخيرا بباب الغرفة وسالها عما اذا كانت ترى فى نفسها القوة على أن تقوم بدورها فى المساء فتمعت عينا جولى فجاة . وتبدى فيهما الذعر .. واستوت فى فراشها جالسة . وجمعت خصلات شعرها المضطربة المتناثرة حول راسها وصاحت فى شىء من الخوف

ـ لا !. لا !. لن استطيع التمثيل الليلة .. لاترهقنى..

وارتسمت عى وجه دوك علامات الدهشة .. وكانما لم يفقه ماسمع فقد كان غريبا أن تعلن ممثلة انها لن تستطيع التمثيل . قبل موعد رفع الستار بعشر ساعات ..

وصاح أخيرا ليرحمك الله ياجولى !.. اذا كنت مريضة الى هذا الحد . فمن الخير ان تعرضى نفسك على طبيب .

ونظر الى ستيف . كانما يستنجد به .. ولكن العملاق الاشقر اشاح عنه بوجهه . وظل فى مجلسه الى جوار المريضة يرمقها فى عطف وألم .. ثم قال

ـ أن لجولى آراء غريبة فى الاطباء . فهى لاتؤمن بعلمهم فلا تحاول اغراءها . فان هذا يزيد حالها سوءا

واقبل شوبنزى . فاطل برأسه فى الحجرة المعتمة وصاح

ـ لقد حدث حادث عجيب جعلنى اعتقد ان فى هذه البلدة معجبا شديد الولع بك ياجولى .. فقد سرقت صورتك من الردهة .. وظننت فى بادىء الامر أن السارق

هو ذلك الشاب المتهوس . بيت .. ولكن . مهلا ياستيف .. لقد سالته بنفسى فاذا به يدهش للحادث . وماعرفته يوما يجيد التمثيل واصطناع المواقف .. لا . لم يكن هو السارق .. لابد انه احد المعجبين بك من اهل البلدة يا جولى .. وعلى كل حال . لقد علقت صورة أخرى مكانها

وأقبلت ايلى تقول

ـ اننى هابطة الى البلده يا جولى . فهل تودين أن أحضر لك شيئا . أو أن ابتاع لك دواء ؟..

فهزت جولى راسها .. وقال ستيف

ـ انها لاتريد شيئا .. شكرا لك ..

كانما كان الاثنان يرزحان تحت عبء من التوتر يرهق أعصابهما .. واحس به الاخرون وهزت ايلى كتفيها وانصرفت .. وهم شولنزى بالانصراف قائلا

ـ ستكونين بخير عندما يحل المساء ..

فقال دوك بصوت خافت . وهو مازال فى حيرة وعجب

ـ انها تقول انها لن تمثل الليلة ..

فصاح شولنزى ماذا ؟.. لعلها مريضة حقا

ثم صاح باعلى صوته ليسمع آندى وبارتى وكانا يجلسان خلف نافذة بيع التذاكر

ـ كابتن !.. كابتن !.. تعال .. ان جولى مريضة .. ومرضها يمنعها من التمثيل ..

فنهض آندى واقبل مسرعا .. وهو يقول لنفسه

ـ لقد بلغ ما بيع من التذاكر لحفلة هذا المساء رقما قياسيا .. هذه أول مرة تعرض فيها مسرحياتنا فى هذا البلد .. ومع ذلك فان اكثر من نصف المقاعد قد حجز مما يبشر بايراد حسن ..

وبلغ غرفة جولى فاذا بنفر من افراد الفرقة قد سبقوه فاحتشدوا ببابها .. فنفذ الى الداخل دون استئذان .

وانحنى يتفرس فى وجه المريضة ..والتقت عيناه بعينيها. فقرأ فيها شيئا جعله يربت على يدها ويقول
ـ لم يا جولى ؟..ولكن . هلاانصرفتم ياقوم وتركتمونى على انفراد مع جولى وستيف ؟
كان خبيرا فى وسعه أن يفرق بين الالم النفسانى والسقم الجثمانى ..
وكاد الجميع أن ينصرفوا ..ولكن بارتى تذكرت ان ثمة شيئا قد تكون له صلة بمرض جولى فقالت تحدث زوجها
ـ أتذكر أن جولى مرضت عندما رسونا فى هذه البلدة فى العام الماضى .. فما أن أعلن دوك أننا أن نمثل فيها شيئا . لان الضريبة التى طلبها العمدة باهظة .. حتى برئت جولى فجاة ؟؟..
فساد صمت ثقيل عميق
وقال الكابتن أندى أخيرا فى صوت أجش . لست أرى ما يلفت النظر فى هذا التوافق بين الحادثين . فجو هذه البلدة قاتل مرهق . وطبيعى أن تعتل صحة جولى اذ انتقلت اليه من جو الشمال البارد ..
ثم أرسل أصابعه خلال شعر فوديه .. وزمجرت بارتى مستاءة .. ولكن مانوليا أقبلت فى تلك اللحظة صائحة
ماما !.. اسمعى !.. لقد سرقت صورة جولى مرة أخرى جولى . لقد سرقوا صورتك للمرة الثانية .
كانت فرحة مزهوة اذ كشفت هذا الحادث الجديد ولكنها ما لمحت وجه جولى على الوسادة . حتى أسرعت الى الفراش هاتفة .
ـ اوه ياجولى .. ياعزيزتى . اننى اسفة لمرضك ..
فاشاحت جولى بوجهها .. ورأى الكابتن أندى أن القوم لم ينصرفوا . فتقدم نحوهم فى غضب وصاح
ـ وبعد ألا تريدون الانصراف !.. عجبا لكم ! كانه ليس

من حق اى فتاة او امراة ان تمرض !.. هيا انصرفوا .. واذهبى يابارتى انى نافذة انتـذكر واوقفى البيع وانت يارانف اكتب اعلانا عن ارجاء حفلة الليلة وضعه على جدار مكتب البريد أواثقة انت ياجولى من انك لن تتعافى مع مقدم المســـاء ؟..

فالقت جولى بنفسها بين ذراعى ستيف وانفجرت باكية وهى تصيح فى صوت مرتفع

ــ لا !.. لا !.. دعونى وحدى .. دعونى وحدى ..

وسمع القوم وقع قدمين مقبلتين . فتجلى الذعر فى عينى جولى . وتحول الجميع ليروا ويندى . ماسك دفة مولى آبل . مقبلا متجهم الوجه .. حتى اذا اقترب من الباب رفع قبعته ومسح على فمه بيـده . ووقف برهة يطل داخل الحجرة . ويلوك مضغة من الطباق فى فمه دون ان ينبس بكلمة .. واخيرا قال . يبدو أن ذلك العين بيت . يعد أمرا وتوقف .. وارهفوا اذ انهم منتظرين ..

لقد هبط الى البلدة منذ نصف ساعة وكانما يضـمر امرا خطيرا .. بعد أن نزع صورة جولى من الردهة .. فقد رايته بعينى . وماكنت لاكذب بصرى بعد خبرة السنين التى قضيتها فى البحر .

فوثب ستيف واقفا وهو يقول . ساقتله هذه المرة ولكن ويندى عاجله مقاطعا . كما رايتك تنتزع الصورة فامتقع وجهه .. واتسعت حدقتاه .. وهتف

ــ كلا .. لم افعل ..

واستوت جولى جالسة . ثم اطلقت ضحكة جوفاء وقالت

ــ وماذا يفيد من سرقة صورتى .. انها صورة زوجته فقال ويندى . لعله اراد بذلك الا يراها احد من اهل البلدة .. ان حياة الانهار تكسب المرء حدة فى البصر . وقد عشت على سطح النهر خمسين عاما . فاسمعوا .. لقـد

هبطت ألان من حجرة القيادة لانذركم . فقد رأيت بيت قادما مع (ايك كينر) .. عمدة البلدة
فصاح أندى . فيات العمدة .. لقد دفعنا الضريبة . واسنا نخشى قدومه
ولكن أحدا لم يسمع كلماته . اذ حدث فى تلك اللحظة امر غريب . فقد وثبت جولى من فراشها وشعرها متناثر حول وجهها . وأحاطت بساعديها عنق ستيف
وفى انحال . أخرج ستيف من جيبه نصلا .. وأمسك يدها فى رفق . ثم اجرى النصل على قمة أبهامها فانبثق الدم وانحنى ستيف وامتص قطرة من دمها السائل .
ولم يكد يفعل ذلك حتى دخل العمدة . فاجال الطرف بين القوم ثم سأل . أيكم صاحب هذه السفينة ؟
فاجاب آندى
ــ أنا هو . فماذا تريد ؟
ورأح يتامل العمدة ويصعده بعينيه .
ــ أننى قادم فى مهمة قد لاتسرك ياكابتن .. لقد علمت ان على ظهر سفينتك اثنين يطلبها القانون ..
فتساءل آندى . كيف ؟..
ــ لقد خرقا القانون . بزواج غير مشروع .. زواج امراة من أصل زنجى . من رجل ابيض .
فهتف آندى
ــ لم يحدث شىء من هذا فى سفينتى . وليس بيننا مثل هذين المتهمين ..
فقدم اليه العمدة ورقة وهو يقول :
ــ ان اسم الرجل الابيض هو .. ستيف بيكر . واسم المراة التى من أصل زنجى رغم بياض بشرتهـــا هى .. جولى روزبير
فصاحت ايلى .

ـ يا أنهى !.. احقا هذا ؟؟
وهنا تحول ستيف الى النافذة ففتحها فتسرب ضوء النهار يغمر المكان.. بينما ظلت جولى مستقية على الفراش ثم تقدم الى العمدة قائلا .
ـ انا ستيف بيكر .. وهذه زوجتى
فقال العمدة . اذن . أرجو ان تصحبانى
ـ لعلك تعرف أن الرجل الابيض لايعتبر كذلك اذا سرى فى جسده دم زنجية ؟..
ـ طبعا .. أعلم ذلك .
ـ حسنا .. ان جسدى مىء بالدم الزنجى .. فزواجنا اذن شرعى وقانونى
ـ أتقسم على صدقك أمام المحكمة ؟..
ـ بل اقسم فى أى مكان شئت .. بل وليس بين هؤلاء الموجودين جميعا من لايقسم على صدق قولى ..
فاجال العمدة بصره بين الموجودين . ثم قال .
ـ الحق اننى رايت زنوجا ابيض منك بشرة .. ومع ذلك فيحسن أن تدلى باقوالك أمام ..
فقاطعه ويندى قائلا
ـ لعلك تعرفنى يا أبك رغم أن خمسة وعشرين سنة قد انقضت منذ افترقنا .. انا ويندى ماكلين
.. آه . ها انتذا قد ذكرتنى . اذن فاسمع .. اننى اقر أمامك ان فى جسد هذا الرجل دما زنجيا . واقسم على هذا
ثم تحول دون أن ينتظر جوابا . وغادر الحجرة . وقطع سطح السفينة الى السلم المؤدى الى حجرة القيادة
وتجلت الحيرة على وجه العمدة .. وتمتم فى صوت مرتفع
ـ اننى أعرف ويندى حق المعرفة .. ولكننى حصلت على المعلومات من شخص تنم الظواهر على صدقه
فهتف آندى فى حدة

ـ لعله المهندس المافون المدعو بيت ؟.. انه لم يفعل ذلك الا لانه لاحق جولى بمغازلاته . دون أن تعبا به .
ـ اصحيح هذا ؟..
فاجاب ستيف
ـ أجل .. كان يطارد زوجتى رغم انها تمقته مرآه . ولقد انبه الكابتن بنفسه مرة .. وقذفت به فى الماء مرة اخرى .. فاقسم أن ينتقم ..
فنظر العمدة الى جولى .. وقال
ـ يزعم بيت انك ولدت هنا فى ليموين وأن أباك كان من البيض وأمك من الزنجيات .. فبلنت شفتيها بطرف لسانها وقالت . ذلك صحيح
فتحرك القوم بقلق .. وصرخت ايلى
ـ يا للنذالة .. لقد خدعتنى هذه الزنجية القذرة الكاذبة وفجاة . احتبس صوتها كان يدا وضعت على فمها .. وحملها شولتزى الى الخارج . ثم أوصد الباب ..
فقال العمدة
ـ حسنا .. اننى منصرف يامستر هوكس . ولكن دعنى انبئك ان من الخير أن لاتقيم حفلة فى هذه البلدة . فستجد خواطر الاهلين مهتاجة لانك تقدم ممثلات يختلط فى عروقهن الدم الابيض واندم الاسود .. وقد يحدث مالا يسرك !..
وانصرف العمدة وهو شامخ بانفه معتد بسلطته .. وصمت القوم وكانما اصابتهم صدمة . وهمت مانوليا ان ترتمى فى أحضان جولى . لولا ان جذبتها يد بارتى .. وهمس اندى هوكس فى رفق :
ـ والان يا جولى ..
فاجابته فى هدوء : اننا سنرحل .
ونهضت جولى الى الصناديق والادراج تفتحها وتخرج ما استطاعته من ثيابها .

واقترب ستيف من اندى وقال فى صوت منخفض :
ـ اسمح لنا بالبقاء يا كابتن حتى بلدة اكسينا .. اسمح لنا بالله عليك . ولا تدعنا نهبط فى هذه البلدة
فصاح اندى باعلى صوته :
ـ سترافقاننا حتى اكسينا . ومن لا يروقه هـذا من من افراد الفرقة . فليرحل منذ اللحظة .. سنبحر الان . فنصل الى اكسينا حوالى الساعة الرابعة بعد الظهر . فاذا شئتما ان تبقيا الليلة على ظهر السفينة ريثما يحين الصباح . فانى ارحب ببقائكما .. اننى سيد هذهالسفينة وكلمتى هى النافذة فيمن عليها . فمن لا يرضى فعليه ان يغادرها ..
قال ذلك وهو يرمق ايلى بنظرة استنكار .
وبلغا اكسينا فى عصر ذلك اليوم . فابى ستيف وجوليا الا الرحيل .. ووقف اندى يودعهما فى تاثر وانفعال :
واذ همت جولى بمغادرة المركب تلفتتخلفها كما لو كانت تبحث عن شخص فقدته .. وادرك اندى انها تبحث عن مانوليا وعن زوجته فقال فى لهجة المعتذر :
ـ انك تعرفين يا جولى انها لا تبغى الاساءة اليك .. ولكنها كتمت عن مانوليا موعد رحيلك .. ان للنساء اطوار عجيبة . ولكنها لا تريد الاساءة اليك .
وانطلقت جولى وهى تحمل حقيبتين . بينما حمل ستيف القسط الاوفر من متاعهما ..
وفجاة . انبعثت من حجرة مانوليا صرخات باكية .. ثم سمع وقع قدمين حافيتين على ارض الشرفة . وبدا شبح فتاة صغيرة فى رداء ابيض ممزق وقد بللت اندمـوع وجهها وبارتى تلاحقها حتى السلم . ثم تقف حائرة وقـد يئست من اللحاق بها .
وابتسم اندى . وراح يتبع مانوليابنظراته . وهى تعدو

الى الشاطىء باقصى ما فى وسعها من سرعة .. بينمامضت المرأة والرجل فى طريقهما .. وكانت صيحات مانوليا عالية واضحة :

— جولى .. جولى .. صبرا .. اريد ان اودعك .. يا جولي

وتلفتت المراة خلفها . ثم .. وبدأفع من خوف غريب تولاها . اندفعت تعدو . كما لو كانت تفر من شىء لا تقوى على مواجهته .. وضاعفت مانوليا من سرعتها برهة . ثم وقفت ودفنت وجهها بين راحتيها . وانخرطت فى البكاء .. والتفتت المراة خلفها فراتها .. واسقطت الحقيبتين من يديها . وعادت ادراجها باسطة ذراعيها لها .. حتى اذا وصلت الى حيث كانت الطفلة جثت امامها على الطريق الموحلة واحتوتها فى احضانها .

الفصل الثامن

عندما بلغت مانوليا الخامسة عشرة كانت تبدو كطفلة سبق جسمها سنها فى النمو .. عينان واسعتان فى وجه صغير بديع .. وساقان طويلتان ترفعانها فوق مستوى لداتها .

كان ثمة سباق مستمر بين ساقيها وبين اطراف ثيابها فكانت بارتى تطيل لها من اطراف الثياب دائما ..

ولما بلغت السادسة عشرة . هبت بقية اعضائها تلاحق الساقين فى النمو . واكتمل جسمها وبين يوم وليلة — كما فى القصص الخرافية — تجاوزت مرحلة الحداثة . لتبدو كمخلوق رشيق كامرأة صغيرة عريضة الجبهة . واسعة الفم . كبيرة العينين متناقتهما ذات صوت عذب

وكانت السنين التى قضتها على ظهر المركب قد بسطت امام عينيها ستارا حمل من رسوم الحياة والوانها ما لم تره

فتاة فى مثل سنها ـ حياة متغيرة . فيها فوضى . وفيها لهو . ولكنها هادئة . يشوبها الامن والصفاء . حياة رات فيها الانهار على تباين طبيعتها .. والمدن القائمة على ضفافها .. واهلها على اختلاف طبقاتهم .. والزنوج يكدحون فى الحقول فلا يرفه عنهم سوى تلك الاغنيات الساذجة . ذات الالحان الفطرية التى انطبعت فى ذهن الفتاة كلماتها . وظلت تتردد فى أذنيها اصداء انغامها فى رنين متواصل ..

ولكن بارتى لم تكن قد رضيت كل الرضى عن هذه الحياة .. كانت ما تزال تفكر فى تثقيف ابنتها . بل . ولقد فكرت فى بعض الاحايين ـ فى ان تغادر السفينة لتسهر على تربيتها او تزج بها فى احدى المدارس ذات الاقسام الداخلية .. وكثيرا ما قالت لاندى بحق :

ـ اى حياة هذه لابنتنا .. ما اعجب ان تحيا سيدة صغيرة مثلها على ظهر سفينة تنتقل بها من نهر الى نهر ولا تقع عيناها فوق سطحها الا على مهرجين او مقامرين او زنوج .. الم يئن لنا بعد ان نفكر فى مستقبلها .

فيجيبها اندى مطمئنا : ان المستقبل كفيل بان يرعى نفسه دون مساعدتنا .

ولم يكن ثمة مناص من ان تجد مانوليا نفسها منساقة دون وعى الى خشبة مسرح « زهرة القطن » ..

فقد رات نفسها فجاة تمثل الادوار النسائية الاولى فى مسرحيات الفرقة . اثر انفصال ايلى عنها بغتة . ريثما تحصل الفرقة على ممثلة غيرها .. ثم لم تلبث ان اصبحت هى ممثلة الفرقة الاولى وكان عجيبا ان تندمج فى هذا المركز الجديد . وان تبرز مواهب فذة كانت خافية وان افتقرت الى تلك الروح المستهترة العابثة التى عرفت عن الممثلات.

حدث كل ذلك . دون توقع وعلى غير انتظار . فقد هجرت ايلى شولتزى المسرح . لتفر مع مقامر رشيق من

شباب بلدة موبيل . زين لها استغلال مواهبها فى احد المسارح البرية . وراح يغريها ويستهويها حتى اقنعها

وكان لها عشاق كثيرون من طلاب الهوى وابناء اللهو والعبث . ولكن أحدا لم يشك فى انها انما تبعت ذلك المقامر الرشيق ذى الشارب الانيق بعد ان تركت ورقة لشولتزى ـ كما تفعل البطلات اللاتى مثلت ادوارهن ـ كتبتها بخط مرتعش عليل . تعلنه فيها بفرارها وتنصحه بالا يتبعها او يحاول استردادها . فقد وعدت بان توضع على راس فرقة تعمل على حسابها الخاص . حيث تقوم بادوار جولييت وغادة الكاميليا والغانيات اللائى خلدتهن القصص .. كما وعدها عشيقها ..

ومع ذلك . فهى ترجو ان يعتبرها دائما .. زوجته الوفية المخلصة ..

كانت صدمة ساحقة لشولتزى .. ولكنه مع ذلك لم يفكر فى غير سعادتها .. وكان يئن ويتمتم :

ـ انها لا تستطيع المضى دون أن أكون الى جوارها .. جوليت .. كيف تمنى النفس بهذا الدور .. وهى التى بذلت اعظم الجهد لتقوم بدور فى مسرحية هزيلة .. ولكنها رغم هذا كله . سوف تعود

فتساله بارتى : وهل تقبلها اذا عادت .

فيجيبها فى بساطة . بكل تاكيد .. أنها لا تعرف كيف تؤدى اتفه الاعمال دون معونتى .. انها ما تزال طفلة .. أنها تحتاج الى فى كل وقت .. وسوف تعود .

وارسل الكابتن اندى الى شيكاغو فى البحث عن ممثلة جديدة .. والى أن تصل هذه خطت مانوليا الى المسرح فوق جثمان بارتى التى اغمى عليها من فرط الحنق وانغضب والعار الذى كانت تتخيله .. فانها ما كادت تعلن فى بساطة انها ستقوم بادوار ايلى حيث لا تعطل عمل الفرقة حتى

اثارت بارتي زوبعة هوجاء . حملت فى نهايتها الى فراشها حتى ظنت انى قبيل رفع الستار بدقائق .. وكانت الفرقة فى ذلك المساء . تعتزم عرض مسرحية « عروس القس » .. وظل افرادها حتى اخر حياتهم يذكرون ما حدث فى تلك الليلة .. فقد قاموا فى النهار بتجربتين كانت مانولياخلالهما اكثر سيطرة على اعصابها . بينما راح اندى يذرع الارض بين المسرح ومخدع زوجته .

ولم تشعر مانوليا بالارتباك الا عندما وقفت على خشبة المسرح .. وخيل انيها أن كل ما حفظته قدتلاشى من ذاكرتها حتى اضطر شولتزى ان يلقنها الحديث عبارة بعد اخرى فى صوت خافت لاهث .. بيد انها لم تلبث أن اندمجت فى دورها . وتلاقى مجهودها مع مجهود افراد الفرقة فاذا هم يسيطرون على النظارة كما لم يسيطروا من قبل واذا هم يبعثون فيهم مختلف الاحاسيس فرحة وارتياح حين اختفى الزوج الذى اضطرت الفتاة الى اتخاذه مجبرة . وشاع نبا موته دهشة دوجوم حين ظهر فجاة فى الليلة التى كانت تتاهب فيها للتزوج من القس الذى احبته اثناء عملها كمدرسة بعد عامين من اختفاء الزوج .. ازدراء ومقت حين عرض الزوج على زوجته السابقة ان تنزل له عن الف دولار ليختفى مرة ثانية عن مسرح حياتها .

ـ لا تزعمين ان ليس لديك هذا المبلغ .. اين مااقتصدت من نقود خلال الاعوام الماضية .

ـ اقسم اننى لم املك يوما الف دولار .

ويمسك الزوج بيدها فى قسوة .. ويجرها على ارض الحجرة .. وترتفع صرخاتها فيضطر الى كتم انفاسها .. وفى غمرة الرغبة الطاغية على افراد الفرقة فى مساعدة مانوليا على البروز فى دورها . تناسوا انهم ممثلين . وتجلت الوحشية والعنف على حقيقتها فى حركات فرانك الذى كان

يقوم بدور الزوج . فلم ينته الا على شتمة انطلقت من احد المتفرجين . فى احدى المقصورات اليسارية .. فالتفت نحوه فاذا به يراه منحنيا على حافة المقصورة . وفى يده مسدس مصوب اليه ..

كان الرجل ساذجا لم ير قبلا مسرحية تمثل امامه . فخيل اليه انه برى حقيقة ملموسة واطلق فرانك يد مانوليا وانحسرت اسارير الغيظ والعنف عن وجهه . لتشرق ملامحه بالرقة والدعة والحب .. وغمز بعينه لمانوليا اذ راها تفغر فمها فى دهشة . ثم قال وقد اسعفته قريحته بما ينقذ الموقف :

ـ حسنا .. اذا كنت حقا تحبين القس وترين ان فى زواجك منه سعادة لك . فليس من حقى ان اقف فى سبيلك

وفى حركة رشيقة . وثب خلف المسرح .. اجتنابا للماساة التى اوشكت على الوقوع .

وهبط الستار .. ثم ظهر تسولتزى ليقول للجمهور ان ممثل دور الزوج قد اصيب بمرض فجائى يمنعه من المضى فى القيام بدوره . وان الفرقة قد رات ان تعوضهم عن بقية المسرحية ببعض الاستعراضات والمقطوعات الغنائية . والالحان الموسيقية ..

ومنذ تلك الليلة . توطدت قدما مانوليا على خشبة المسرح .. واحتلت مركز الممثلة الاولى فى الفرقة .

واحبت هذه الحياة .. ولم تدخر جهدا فى اتقان ادوارها .. وراحت تبذل قصارى وسعها لتنتزع صيحات الاعجاب . وانتصفيق . من رواد المسرح الدائم ..

ولكن عينى مسز هوكس كانتا ترعيانها عن كثب . فلم تغفل عما بدا فى حركات فرانك بعد اليوم الاول . من عاطفة بدات شعلتها تذكو فى اعماقه .. ولم يغب عنها ان ذلك الشاب قد وقع فى حب مانوليا .. ولم تفتها انه راح يتبعها

اينما ذهبت . كحمل وديع يتبع راعيه .. وما كانت مانوليا او واندها ليعيران عاطفة الشاب اى اهتمام .

وقالت بارتى لزوجهـــا ذات يوم : ترى هل انت عـلى استعداد لان توقف هذا الشاب عند حده ام اتولى اناهذه المهمة .

ـ بل دعيه لى . وانتظرى حتى نبلغ نيو اورليانس .. فاذا لم يكن بد من فصله . وجدنا هناك من يحل محله ..

ولكن « زهرة القطن » لم تكد تبلغ نيو اورليانز . حتى تلقى الكابتن اندى صدمة اطارت صوابه .. فقد تسـلم شولتزى رسالة عندما رست السفينة فى الميناء ما ان تلاها حتى هرع الى اندى قائلا :

ـ ساضطر ان اغادركم يا كابتن .. انها فى حاجة الى .

فهتف فى دهشـة :

ـ تغادرنا .. ومن تكون تلك الـ .. هى

ـ انها فى مصحة « ليتل روك » وقد اجريت لها جراحة .. وهجرها ذلك الوغد وهى لا تملك سنتا واحدا ..

فقال الكابتن : ولكنك لا تستطيع ان تتخلى عنى هكذا يا شولتزى ..

ـ اننى مضطر .. فى وسع فرانك ان يقوم بالادوارالاولى ريثما توفق الى بديل عنى او ريثما اعود . وفى وسع دوك ان يقوم بادوار فرنك . بينما يتولى مينز ادوار دوك ..

وصاحت بارتى فى جزع :

ـ محال ان يظل فرانك على ظهر السفينة .. اتسـمع يا هركس

ـ ومن قال انه باق .. انه لا يصلح للادوار الاولى .. انك لست جديدا على الوسط المسرحى يا شـولتزى . وانت تعلم ان ليس من العدل فى شىء ان تتخلى عنى فجاة قبل ان اتخذ للامر اهبتى ..

ـ لا اجهل ذلك . وما كنت لاقدم على هـذا التصرف لو أن الامر يختص بى .. ولكنه يختص بها .. لقد كتبت لها عندما هجرتنى ان تتصل بى كلما وجدت نفسها فى حاجة الى . وها هى ذى قـد فعلت .. وها انذا منطلق اليها .

ـ وما ذنبنا نحن حتى تتركنا هكذا فجاة . كما تركتنا ايام من قبل .

فعاد شولتزى يقول :

ـ ولكننى اخبرتكما ان الامر لا يتعلق بى .. انهامريضة وفى وسعكما ان تجدا فى نيو اورليانز من يخلفنى .. بل من هو خير منى .. لقد رايت على رصيف الميناء حين هبطت هذا الصباح . شابا يتسكع . فما علم اننى ممثل قال لى انه قد ظهر على المسرح من قبل . وان حياة المسرح هى احب الوان الحياة اليه ..

فصاحت بارتى متهكمة :

ـ حقا .. لعله يظن ان مسرحنا ملجا ياوى اليه كل عاطل

فاوما شولنزى باصبعه نحو شاب كان يقف مستندا الى بعض البضائع الملقاة على رصيف الميناء

وتامل اندى الشاب ولم يلبث ان قال .

ـ يخيل الى انه مخلوق محترم .

فتناولته بارتى منظارا وسددته نحو الشاب ثم قالت :

ـ لا اعتقد ان اى سيد محترم ينتعل حذاء باليا .. ثم اننى لا احب مظهره او نظراته .. لكننا مضطرون ان نعرض عليه العمل مادام شولتزى يصر على الرحيل .

الفصل التاسع

وهكذا وقعت عينا ماتوليا لاول مرة على جايلورد وافتتن الشاب الرشيق الذى اخفت اناقة ثيابه ما كانت عليه هذه

اثثياب من بلى وقدم .

ولم يكن جايلورد رافنل حين وقف على رصيف ميناء نيو اورليانس فى ذلك اليوم يفكر فقط فيما اصاب ثيابه من بلى . وجيبه من اجداب .. وانما كان كذلك مشغول البال بما حدث عندما زار مدير بوليس المدينة قبيل ذلك بقليل .. فقد اراد مدير البوليس ان يطهر المدينة من المقامرين المحترفين .. فاصدر اوامره بان لا يسمح لاحدهم بالمكوث فى المدينة اكثر من اربع وعشرين ساعة بعد هبوطهم اليها .

وغادر اندى السفينة وقصد لفوره الى انشاب وبادره قائلا :

— قيل لى انك كنت ممثلا ..

فرفع رافنل حاجبه الايمن والقى على محدثه نظرة ارستقراطية . ثم اجابه فى كبرياء :

— اننى جاياورد رافنل . من اسرة رافنل التى كانت تسود تينيسى .. معذرة فاننى لم أعرف اسمك ..

— انا اندى هوكس ربان ومدير وصاحب مسرح زهرة القطن ..

فسمح رافنل فى غطرسة لعينيه ان تتجهاصوب السفينة الراسية .. وشعر انكابتن اندى فجاة بالاسف لانه غفل هما اصاب طلاءها بفعل الريح والامواج .. وامتدت يداه الى شعر فوديه فى حيرة وقلق وقال :

— الواقع اننا فقدنا ممثلنا الاول الذى كان يتقاضى خمسة عشر دولارا فى الاسبوع فضلا عن الاكل والماوى .. فهل لك رغبة فى ان تطوف بمختلف البلاد .

— هل تعنى انك تعرض على مركزه .

— انك لن تتحمل مسئولية ما .. وستجد فرصة لترى الحياة على حقيقتها ..

فاجاب فى صوت من لايبالى : اوه . لقد رايتها ..
وفجاة . لاح نه على سطح « زهرة القطن » شبح .. طويل .. رشيق ..
وكانت مانوليا فى تلك اللحظة قد غادرت مخدعها. وقصدت الى الشرفة الى حيث كانت امها تتاهب لهبوط الى الشاطىء وكان فى النية ان ترافق ابويها الى جونة فى المدينة التى طالما احبتها .. ثم الى عشاء انيق فى « مطعم انطوان » كما وعدها ابوها .. ثم الى سهرة فى المسرح الفرنسى ..
ووقفت مانوليا على ظهر المركب بقامتها الفارعة فبحثت عن أبيها على رصيف الميناء حتى اذا وقعت عليه عيناها . رفعت يدها تلوح له .. ولمحها اندى فاجابها ملوحا بيده
وساله جاياورد رافنل : اهذه احدى ممثلات فرقتكم .
فاشرق وجه اندى وقال : انها ابنتى .. مانوليا .. انها الممثلة الاولى فى الفرقة .. والان ايها الشاب .. دعنى اذكر اسمك .. اه والان يا مستر رافنل . هل انت سريع البديهة قوى الذاكرة .. ان هذا كل ما اطلبه فى الممثل . لاننا سنبحر الليلة الى « بابوتشى » حيث نعرض غدا مسرحية « العاصفة وضوء الشمس » فترى هل تستطيع حفظ دورك .
ـ بسرعة البرق .. وعن ظهر قلب ..
وبعد خمس دقائق . كان ينحنى على يد مانوليا تقبلها وهو لا يدرى الملعن حظه لان حذاءه المزق اخجله امامها .. ام يحمد هذا الحظ لانه جمع بينه وبينها ..
وما كان فى الوسع تفادى العاطفة التى جمعت بين الاثنين بعد ذلك .. كانت امرا طبيعيا لا مناص منه رغم معارضة بارتى .. ورقابتها :
كان كل شىء يتامر على ضم كل منهما الى الاخر .. فقد كان جاياورد رافنل انيقا رشيقا محوطا بالغموض :

التاقبتى النظرات . والى صوته العميق المرتجف بالعاطفة والى بشرته الناصعةالناعمةكبشرة المراة .. ولكنى اراهن على انكما اذا سالتما عنه فى نيواورليانس . لسمعتما ما لا يخطر لكما ببال . انه يزعم انه منحدر من سلالة رافنل التى كانت تسود تينيسى فى وقت ما ولكنى اؤكد لكما انه دعى ..

فقال اندى : انا لم أر قط من يمثل دور الفتى الاولمثله . وقال دوك : وانا لم اسمع من قبل ان لبشرة الممثل علاقة بفنه .

ـ ولكننى لا احتمل مرأه .. انه يتطلف ويبالغ فىالرقه والتظرف كانما يظن أن فى وسعه استمالة امراة فى مثل سنى .. ثم .. اسمع يا هوكس وافهم ما اقول .. انه ينظر الى ابنتك .

ـ لو لم يفعل لكان مغفلا

ـ أتعنى انك راض زواج ابنتك من مثل هذا الفارالحقير

ـ عجبا لك يا امراة .. الا يستطيع الرجل ان ينظر الى فتاة دون ان يقال انه سيتزوج منها ..

ـ حسنا . افعلا ما شئتما واستبقياه كما تريدان . ولكن اذكرا اننى كنت أول من حذركما من تلك الرقطاء جولى . فاظهرت الايام صدق حدسى . انتظرا حتىنصل الى نيو اورليانس وساتحرى بنفسى .. وكذلك سيفعل فرانك .

ـ وما شان فرانك بهذا .

ولكنها لم تجب . وتركتهما يشيعانها بنظرات الدهشة والعجب .

ولما عادت السفينة الى نيو اورليانس . غادرها رافنل ولكن لكى يعود اليها فى اخر انتهار وقد اكتسى جديدا من قمة راسه الى اخمص قدميه بفضل ما كسب من اجرخلال

رحلته ..
ودهش رجل البوليس السرى الذى راقب الميناء . حين ابصر به وصاح :
ـ يا لله . هل سطوت على مصرف يا رافنل .
ولكن رافنل تحول اليه . وقال بلهجة الجد :
ـ أصغ الى .. ان « زهـرة القطن » لن تبحر قبـل التاسعة من صباح غد . فلا أود ان تضايقنى وليس لك ما تواخذنى عليه قبل الموعد .
ودهشت مسز هوكس حين رأته يصعد السفينة فى اتجهته الجديدة .. ورأت اندهشة على فرانك .. وكان يتذهب للانصراف معها .. فسألها رافنل :
ـ هل ستمكث طويلا على البر
فسألته فى خشونة : ولم لا
ـ فقط وددت ان ادعوك وانكابتن هوكس والانسةمانوليا لتناول العشاء معى ومرافقتى الى المسرح .
فاجابته فى اقتضاب : ربما لا اتمكن
ثم راحت تهبط الى الشاطى وفرانك فى أثرها .. بينما سار رافنل الى نافذة التذاكر حيث كان الكابتن اندى غارقا بين الحسابات والنقود المكدسة امامـه على المنضـدة . ومانوليا الى جواره . تدق الارض بقدمها فى غضب الطفل المدلل وتصيح :
ـ اوه يا ابى .. لقد اشرفت الساعة على الرابعة ولمـا تنته .. اننا لن نعود الى نيو اورليانس قبل انقضاء عام وقد وعدتنى بنزهة .. وعشاء .. ومسرح .. فمتى تبر بوعدك .؟
ـ صبرا لحظة واحدة .. عجبـا لك يا نولى . لقـد اصبحت امراة عنيدة سريعة الغضب كامك
ولاحت منه التفاتة فراى رافنل واقفا فى ثوبه الانيق

فارسل صفيرا خافتا ينم عن دهشته .. وتقدم رافنل فتناول يد مانوليا وقبلها .. وكممثلةعظيمة . وابنةصاحب المسرح الناجح ولم يكن ثمة عجب فى ان تجيب هذهانتحية بانحناءة بسيطة من راسها الصغرة الرشيقة .. وهتف اندى وقد عاودته شكوكه فى انه اخطا حين ظن رافنل ممثلا عاطلا وهو من ابناء الطبقة الراقية :

ـ ويحك يا رافنل .. ما اظنك جئت تنذرنى بانك مفارقنا ..

ـ انما اقف امامك يا كابتن هوكس فى ملابسى العادية فليس ثمة ما يدعو الى العجب .. هكذا اعتدت أن ابدو امام الناس . وان كنت حين صادفتنى لاول مرة فى شىء من الضيق ..

ـ ومع ذلك فقد حان الوقت لاعرض عليك ان تظل معنا الى النهاية .. سارفع مرتبك الى عشرين ..

وهز رافنل راسه . فظنه يرفض . فتابع حديثه :

ـ اذن الى خمسة وعشرين .. الى ثلاثين .. هو ذا مرتب لم يحلم به اى ممثل على المسارح الشهرية

ـ دع الحديث عن العمل الان يا كابتن . فانما جئت لادعوك ومسز هوكس والانسة مانوليا لتناول العشاء معى ثم مرافقتى الى المسرح ..

فانقضت مانوليا على اندى واحاطت عنقه بذراعيها .. وتطلعت الى رافنل بعينيها الكبيرتين وهتفت اليه :

ولكن آندى تعود أن يفكر فى طباع يارتى قبل كل شىء فقال : ولكن .. امك

فتحولت مانوليا مغضبة وقد تندت عيناها بالدموع وصاحت : الم تعدنى ؟ .. انك لا تفكر فى مسرتى . وانما تولى السفينة والمال كل عنايتك .. الم اعمل لمعونتك ليلة

بعد ليلة . وعاما بعد عام .. لم لا تبر بوعدك
ـ انني عند وعدى لك يا نولى . ولكن امك لم تعد بعد ودوك ما زال غائبا . فكيف نترك السفينة وحدها ؟ .مازال ثمة متسع من الوقت لنذهب الى المسرح . ولكنى اعتذر اليك لاننا سنضطر الى انتلغىنزهتنا الى بحيرةبونتكارتريان
فهتف فى ياس .. وتولت عيناها نحو رافنل فى رجاء . كانما تستنجد به .. وقاوم رافنل رغبة جامحة فى ان يحتويها بين ذراعيه وقال فى تادب :
ـ اذا كانت لديك الثقة فى شخصى يا كابتن . فاسمح لى ان اقترح عليك أمرا .. اننى اعرف نيوارولياس حق المعرفة واني لارى ان الانسة مانوليا تنحرق رغبةفى اننزهة فيها .. ففى وسعى احضار مركبة تذهب بنا الى البحيرة ثم نعود اليك .. واذا شئت فلا باس من ان تصحبنا مسز مينز ..
فصاحتالجميلة الباكية : وافق يا ابى ..بالله.ارجوك
فعاد اندى يقول فى وهن : ولكن امك .. انا لا ادرى اين هى الان ؟ .
واطل من النافذة فى حيرة ثماستطرد : انا شخصيا لا ارى باسا .. حسنا . اذهبا معا . وسنلحق بكما فى مطعم انطوان فى الساعة السادسة والنصف .
وانطلقا من الحجرة وكلاهما يود لو ان له اجنحة يطيربها
ولم يشعر اندى بمرور الوقت وهو منهمك فى الحساب والاحصاء ولكنه انتبه اخيرا على يد تمسك بكتفه فى عنف وعلى صرخة مغضبة محنقة عرف فيها صوت بارتىفارتجف خوفا
كانت تصيح :
ـ فى شارع القناة .. الاثنان .. رايتهما بعينى
وتهالكت بارتى كانما توشك ان تفقد الوعى .. واقبل

فرانك وهو يلهث وقال يوضح الامر :
ـ لقد راتهما فى عربة منطلقة بهما . فتركتنى واسرعت تعدو وسط الشارع حتى ظن الناس انها اصيبت بلوثة .. فما لم تستطع اللحاق بالعربة انقلبت عائدة الى السفينة
وراحت بارتى تئن وتهتف . انه قاتل .. قاتل .
نفد صبر آندى فصاح بها : ماذا اصابك يا امرأة .. من القاتل ؟ .. فرانك . ومن القتيل
فانتصبت بارتى وهى ترتجف وصاحت : اسمع ايها الاحمق .. لقد استعلمت عن رافنل من مدير البوليس.. وعلمت منه انه .. قتل رجلا
ـ من ؟ .. مدير البوليس .. قتل رجلا ومن يكون الرجل
ـ اعنى .. رافنل .. رافنل قتل رجلا ..
وقفز آندى عن مقعده وصاح وهو يفكر فى مانولیا ..
يا الهى .. متى .
ـ منذ عام . وفى هذه المدينة ذاتها ..
فتنهد اندى فى ارتياح وسالها : ولماذا لم يشنق ؟
ـ بل اطلقوا سراحه .. الامر واضح اذن .. لابد انهم تبينوا صدقه .. فماذا فى الامر ؟
ـ ماذا .. ان ابنتك تصحبه الان فى عربة تقطع بهما شوارع المدينة .. لقد رايتهما بعينى راسى . فوددت ان الحق بها لاجنبها الصدمة اذا كشفت امره .. يالله .. انها معه فى عربة .. كل هذا من جراء اهمالك .. ابنتك فى عربة مع قاتل .
فصاح فى غضب : وماذا فى ذلك يا امراة ؟ لقد قتلت بنفسى رجلا عندما كنت فى التاسعة عشرة .. وها قد انقضت خمس وعشرون سنة . وهانذا رجل محترم لا يضارعنى فى مكانتى رجل ممن يعملون على صفحات الانهار

ولاول مرة فى حياة بارتى .. اغمى عليها حقا .. من فرط الحنق والغيظ .

الفصل العاشر

لم يكن جايلورد رافنل ليبغى حب مانوليا . اويحلم يوما بالزواج . ذلك انه لم يصادف فى حياته فتاة كمانوليا واذ اصرت بارتى فى ذلك اليوم على فصل هذا المقامر القاتل از .. ا! ..

كان حبه فى خطر ولكن القدر ساق الطمانينة على لسان اندى الذى شاء ان تكون له ارادة نافذة ولو لمرة واحدة . فصاح بها فى خزم :

— سيبقى رافنل .

وبقى رافنل .. وبقيت بارتى .. وبقى كل منهما يتربص بالاخر الفرص .

وراحت شهرة « زهرة القطن » تزداد ذيوعا وانتشارا . وتداولت الالسن الحديث عن الممثلين الشابين اللذين يقومان بالادوار الاولى فى مسرحياتها .. وهنا .. هنا على المسرح لم يكن فى وسع بارتى ان تفرض رقابتها وسلطانها . فكان قلبا الشابين وعيونهما . ولساناهما ينطقان بما هناك من وجد مكتوم .. وعاطفة ملتهبة مضطرمة .

وحدث مرة ان رست السفينة على « تنيسى » : فانتهز الفرصة واغرى مانوليا وآندى على ان يتسللا معه الى كنيسة القرية العتيقة . وهناك . الى جانب نسخة قديمة من الانجيل فى خزانة زجاجية . اراهما وثيقة تاريخية عتيقة . حرم فيها الجد الاكبر لاسرة رافنل ، ابنه جايلورد رافنل من ثروته .. وفى ابتسامة ساخرة ، راح يشرح لهما كيف ان جايلورد رافنل كان شابا عابثا متلافا . وكيف ان ابنه وحفيده وما تبعهما من سلالته نشاوا على غراره . حتى وصل النسب اليه ، فاذا هو لايضارع ابناء عمومته ثروة وغنى . وبينما انصق آندى وجهه بالخزانة الزجاجية

هى شطر كنيسة البلدة . حيث كان رافنل فى انتظارها.. وكلاهما فى ملابس بسيطة لاتلفت اليهما الانظار .

وفى الكنيسة الصغيرة . وأمام القس العجوز . ركعا يرددان ما يمليه عليهما ..وبيد مرتعشة خلع رافنل خاتمه ذا الماسة البراقة . فوضعه حول اصبعها . ولما تبينت فيما بعد أنه أكثر اتساعا من الاصبع لجات الى خيط تلفه حول هذه الاصبع لتملأ الفراغ بينها وبين اطار الخاتم .

ثم تكرم القس الطيب وامرأته فدعواهما الى مائدتهما احتفالا بهذا القران ..

وهكذا ارتبطا بالرباط المقدس .. وعاشا .. كل للاخر مدى الحياة ..!

الفصل الحادى عشر

لم تكره كيم رافنل فى حياتها شيئا ، كما كرهت المسيسبى .. رغم أنها ولدت على سطحه . فى احدى ثوراته الهوجاء .. ورغم ماسمعته من أقاصيص فى حداثتها عن فيضانه. والزوابع التى تهب فى حوضه ، والجرائم التى ترتكب على ضفافه .. بل ورغم ما كانت تعلمه عن جدتها مسز هوكس ، من أنها ليست الا صورة مصغرة له . بقسوتها وحزمها واستبدادها .. لاسيما بعد أن مات زوجها وتولت هى أدارة السفينة وانفرقة فى شدة ونظام ديكتاتورى جعلا نها شهرة فى طول الانهار وعرضها .

رغم كل ذلك كانت تكره النهر الطاغى ؛ ولكنها تحب قصصه وما اقترن بتاريخه من مغامرات وأحداث .

وكثيرا ما قالت لامها : الا حدثتينى عن ذلك العمر الذى قضيته على المسيسبى .. على مسرح زهرة القطن

— ولكنك سمعت هذا الحديث الف مرة .

— ومع ذلك فانا أستعذب الانصات اليك وانت تتكلمين.

ـ ان اباك يكره سيرة النهر والسفينة العائمة .
ـ ولم ..؟
ـ لانه لم يكن سعيدا هناك .. ولم أكن انا ايضا سعيدة . بعد موت جدك .
وكانت كيم تعرف كل ذلك .. كما تعرف أن أمها تكن عاطفة مشبوبة . ووعيا بالانهاروبحياتهاومياهها وفيضاناتها و .. وكل ما يتصل بها .
كل ماتعيه كيم عن الانهار ، لا يزيد عن ذكريات باهتة اختلط بعضها ببعض .. كانت تذكر أمها وهى تجلس على سطح السفينة أثناء النهار تحيك الثياب التى تظهر بها فى أدوارها . وجدتها التى كانت دائمة الصخب والسخط حتى تخيلت فى طفولتها ، ان كل الجدات صاخبات ساخطات بينما كانت توقن ان كل الاجداد لطاف رحيمون .
كم كان جدها يضحك حين تناديه بلقبه « كابتن » فى لثغة الطفولة التى تفقد التاء فى طياتها فينطلق اللقب وكانه « كابن » فتضحك لضحكه ، وترمقه من تحت أهدابها الطويلة .. كانت لها عينان كعينى أمها .. واسعتان عميقتان . واهداب مرهفة كانها النصال او السهام . وفم واسع كفم امها .. اما بقية قسماتها فقداستعارتهامن ابيها
ولعل أبرز الذكريات التى علقت بذهنها من السنوات التى عاشتها مع والديها على سطح السفينة ، كانت ذكرى صياح ساده الهرج والمرج والاضطراب .. كانت اذ ذاك فى الثالثة من عمرها .. وكانت فى فراشها الصغير فى مخدع والديها منتفة من راسها الى أخمص قدميها فى غطاء ثقيل من الصوف .. وفجاة سمعت صوت زوبعة قوية .. ثم صرخات ، ثم صيحات . ثم رنين اجراس قوية .. وفجاة ايضا انتزعتها امها من مرقدها . وهربت بها الى سطح السفينة وهى حائرة مغيظة اذ حرمت من انعام الهنيء

وراحة الفراش .. وما كانت لتفهم شيئا مما يجرى .. ولكنها سمعت جدها يصيح فى لهجة الامر ، ثم .. سمعته يصرخ .. وصمت بعد ذلك .. وأحست بشىء يقع .. بجسم يسقط فى الماء ، ثم يخفيه انضباب عن أعين أهل المركب . ويطويه التيار .. وأقيت كيم على فراشها ثانية وكانها حزمة من أثياب . ثم ظلت وحيدة .. وبكت من فرط خوفها وحيرتها . ولكنها سرعان ما استسلمت للنوم ثانية ..

وعندما أستيقظت . كانت امها تحنو عليها . وقد تراءت لها مخيفة اذ كانت عيناها مفتوحتين الى اقصى اتساعهما ، وكان وجهها مبللا بالدموع .. وصرخت كيم ذعرا . وبكت .. فانتزعتها من الفراش . واحتضنتها وهى تهمس :

ـ انه النهر .. النهر !.. النهر !..

فان الموت: لم يلبث أن وافى آندى .عاجلا . وعلى غير انتظار

فقد هاج النهر العاتى ذات صباح .. وثارت الانواء فراحت تعبث بالسفينة فى قسوة وعنف ، وكما هى عادة كل ربان . راح آندى يجرى على سطح السفينة صارخا يلقى باوامره فى رجاله .. وقد تولاه ما يشبه الغيبوبة فكان لايشعر بشىء سوى انخطر المحدق بسفينته . كانما لادنيا له غيرها وانه كذلك . اذا بقدمه تزل . واذا به يهوى الى النهر . فارتفعت صرخته فوق كل صوت آخر . وحملته الامواج المغضبة الى أعلى . ثم الى اسفل . ثم اخفاه الضباب عن عيون رجاله . وجرفه التيار الكاسر . حتى اذا أمن ايدى المنقذين رأح يهبط به . شيئا فشيئا . ويشدد عليه الخناق حتى لايفلته . الى ان أودعه طبقات الطمى الراقدة فى أعماقه ..

الفصل الثانى عشر

صاحت بارلينيا آن هوكس . وقد خلعت عليها ملابس الحداد كآبة . فبدت كشبح رهيب :

ـ طيبة !. لا ياسيدتى لن اقبل هذه المشورة .. واذا كنت تظنين ورجك أن فى وسعكما التخلص منى بهذه الوسيلة ...

ـ ولكننا لانسعى الى التخلص منك ياأماه . كيف تفكرين فى ذلك ؟.. كل ماهناك انك كنت دائما تعتنين كراهيتك السفينة والحياة عليها . فرأيت انك الان . وقدمات ابى. لم تعد بك حاجة الى البقاء فى جو لاترتاحين اليه ، بينما فى وسعك أن تعودى الى الحياة فى طيبة .

ـ صحيح !. وماذا يكون مصير « زهرة القطن »ياماجى هوكس ..؟

ـ لست ادرى . هذا مايجب أن نبحثه فى روية .

كانت السفينة قد أصيبت بصدع لايستهان به بعد تلك الانواء العنيفة . ولقد شقيت مانونيا بذلك . اذ احست كان قلبها اصيب هو الاخر بجرح بليغ .. وشعرت فجاة بذعر يتولاها من النهر الغادر . وخيل اليها كلما حدقت فى مياهه الصفراء انه يحاول ان يسلبهاوعيها وان يخضعها لسلطانه وان يجتذبها بدوره الى اعماقه .

فراحت تفكر فى الفرار منه مع زوجها وطفلتها . رغم انها كانت تدرك انها لن تسعد بالحياةبعيدا عنه . كانت تود لو تهرب . وتود لو تبقى . كانفى البعد عنهنجاتها وطمانينتها . ولكنه كان يضم فى أعماقه الكائن آندى ، فكيف تهجر اباها ؟. لقد كشف لها النهر عن المعميات الثلاث التى كانت تبدو لها غامضة . عن انحب . وعن الخلق . وعن الموت ، كان كل ماعرفته من هناء او شقاء ، من هدوء او اضطراب

ـ ماسك الدفة ـ لم يكد يرى الارملة العجوز تمسك زمام الامور ، حتى غادر السفينة غير آسف
وتبعه فرانك . ورائف . من ممثلى الفرقة
ولـكن بارتى قابلت كل هذه الصدمات بجلد وتحدرائعين .. بل لقد بدت أعظم من كل عقبة !.
ثم جاء اليوم الذى طفت فيه ثورة جايلورد رافنل .. فقال لزوجته :
ـ أحد اثنين . انا . أو امك ، فمع من تكونين .؟
واختارت مانوليا ان تكون مع زوجها . فثـارت ثائـرة بارتى .. وسالتها والغضب يكاد يسلبها وعيها : الى اين تذهبين وزوجك ؟ لا .. اننى أحذرك .. ولماذا ترحلان ؟
ـ كيم .. المدرسة
ـ هراء ..!
وجمعت مانوليا أطراف شجاعتها وقالت : اننا . اننى. ان جاى غير سعيد بالحياة متنقلا بين الانهار ..
ـ ولكنكما ستكونان أكثر شقاء قبل أن يطول بكما أمد الحياة على البر .. اننى لا اخطىء ، لاولستة اغالى .والى أين تذهبان ؟.. الى شيكاغو ؟! ماذا تفعـلان هناك .. ستعانيان قسوة الجوع . وما هو اشد وطاة من الجوع . اننى أتدرك . ستندمين ، وستودين لو تعودين ثانية ..
وفرغ صبر مانوليا . وانفجرت الثورة التى كانت تكتمها طيلة السنين الماضية ، الثورة ضـد هذه الارادة الحديدية التى تتحكم فى حياتها . فصاحت :
ـ وانى لك ان تعرفى ؟. وعلى فرض انك مصيبة ، فماذا فى ذلك ؟. انك تودين دائما أن تصورى حياة الناس ، لقد عارضت ابى حين أراد أن يشترى (زهرة القطن) الاولى وجعلت حياته جحيما لايطـاق ، وها أنت اليوم تابين أن تنفضي يديك منها . ولقد اقمت الدنياواقعدتهاحين اقدمت

على التمثيل ، وحاولت أن تمنعى زواجى من جاى . وودت لو اننى لم انجب كيم . ولكنك لاتستطيعين التحكم فى مصائر الناس . ان الله يتركهم احرارا يسلكون مايشاؤون من سبل الحياة ، ويسقطون وتدق اعناقهم لكى يروا بانفسهم اخطاءهم

ومع ذلك فقد كانت بارتى تحس بارتياح فى اعماقها لرحيل رافنل ومانوليا . ارتياح كانت تنكره على نفسها وتتجاهله ، ولقد استطاعت أن تتحكم فى السفينة بعد رحيلهما . كانت مقدرتها على الادارة ومواهبها وحزمها وعزمها تزحف من الظلام الذى تعيش فيه فى اطواء النسيان والاهمال . لتظهر فى وضح النهار . ففصلت ممتلكاتها والحقت بالفرقة غرهم . وتخلصت من بحارة . واستخدمت سواهم وراحت تضع الخطط والمشروعات . وتصدر الاوامر والتعليمات . وسار العمل فى (زهرة القطن) كما لم يسر فى اى يوم من الايام الماضية .

وكان هم مسز هوكس الاول عندما سألمت بحق ابنتها فى أن ترحل مع زوجها ، أن تحملها على ترك نصيبها فيما خلفه ابوها من ثورة . لتدفعه اليها فيما بعد على فترات منتظمة ، فلقد كانت حريصة . وقد درست نفسية رافنل وعرفت طباعه . وكانت تحب ابنتها . وتود ان تصون مصالحها . ولكن مانوليا كانت منساقة لراى رافنل . ففضلت ان تبيع نصيبها فى السفينة .

صاحت مسز هوكس : اذن . فاهلك لاتاتين الى ذليلة عندما يضيع آخر درهم وتصبحين وطفلتك بلا مال . ان هذه هى النهاية المنتظرة ، فاذكرى كلامى هذا . سيسعدنى طبعا ان عودى وكيم . أما هو . فلا .. وخسر له اذا ضاع اخر درهم من النقود ان لا يفكر فى الالتجاء الى .

ووقفت المرأتان وجها لوجه لا كام وابنتها ، وانما كغريمتين تتصارعان ..

وصاحت مانوليا : لن ألجائيك قط .ولومت وكيم جوعا
ـ هناك ما هو أسوا من الموت جوعا ، وسوف تلجاين الى .. أقسم انك ستفعلين .
ـ محال .. أبدا !.
ولكن مانوليا كانت تحس فى أعماقها بخوف لفراقهما حياة الابهار .. الحياة التى اعتادتها وألفتها .. والبلاد التى طالما هبطت فيها وجالت فى أنحائها .
كانت مشفقة من الحياة الاخرى التى ستحياها مع زوجها . ولكن الحب الطاغى كان لايلبث أن يمحو شكوكها ومخاوفها . والحنين الملح الى الحرية .. والى الخلاص من رقابة امها وتعنتها واستبدادها كل ذلك كان لا يلبث ان يبعث فى نفسها الرجاء والامل .
واستعد انـلائنة للرحيل .. رافنل وهو هادىء النفس. جامد العاطفة . ومانوليا وهى شاحبة الوجه . واسعة العينين .. وكيم .وهى تلوح بيديها الصغيرتين مودعة جدتها
وهبطوا الى البر .. عبروا الجسر القائم .. وتحولت مانوليا لتلقى على السفينة نظرة أخيرة .. بينما وقفت بارتينيا هوكس منتصبة بين السماء والماء . فى ثوبها الاسود . وقامتها النحيلة . كشبح هائل .. وقد رفعت احد ذراعيها مودعة . غير متالمة وغير مهزومة .. وغمغمت مانوليا والدموع تترقرق فى عينيها : انها كانهر !.. انها الوحيدة التى تشبه المسيسبى !.

الفصل الثالث عشر

لم يكن عسيرا على أى انسان أن يعرف تقلبات الحظ مع رافنل . او ان يخمن حالته المالية فى اى وقت من الاوقات . فقد كانت ثمة ثلاث ظواهر تنم عنها .. معطف مانوليا المصنوع من الفراء . الخاتم الماسى الذى أهداه

لها . وعصاه السوداء . فاذا ما غابت احداها . او كلها. كان ذلك دليلا على مايعانى من ضنك .

بيد أن ثمة ظواهر اخرى كانت تدل على افلاس رافنل. او تكشف عن بسطته . ابرزها اختيار المكان الذى يتناول فيه طعام افطاره .

وسرعان ما ألفت مانوليا هذه الحياة . كان العمر الذى قضته على ظهر السفينة قد اظهرها على شتى ألوان الحياة. وعودها ان تتقبل ما يصادفها من جديد دون تذمر .. فكانت ترضى فى حياتها بكل شىء .. وهى تشرئب بعنقها تحاول أن ترى مايخبئه الغد .

وقضى رافنل ما يزيد قليلا عن العام . فى انفاق ماورثته مانوليا من ثروة أبيها . أخذه ليضاعفه طبعا باستثماره فى اية ناحية من نواحى الاستثمار . فاذا به يفقده شيئا فشيئا . فى شيكاغو جنة المقامرين .

استقبلتهما شيكاغو بحياة كانت جديدة على مانوليا . حياة مترفة . حجرات مفروشة بأثمن الرياش . مطاعم . مسارح . حلبات السباق . وتراءى لها رافنل اكثر رشاقة وفتنة . وانسياقا مع تيار المجتمع الراقى .. مما كان فى أى يوم مضى منذ عرفته ..

وعرفت مانوليا اسهرات . والملابس الانيقة . والمساحيق والعطور الغالية . والمنافسة الحامية الوطيس بين نساء المجتمع تتبز كل منهن لذاتها فى زينتهن وتجميلهن ومظاهرهن

وفى نهاية العام . كانت النقود قد نفدت ! . بدات نوبات من الوجوم والتفكير العميق تعترى رافنل . واخذ الضيق يؤثر على أعصابه ويخرجه أحيانا عن أطواره . ولكنه كان دائما حريصا على مانوليا . يعاملها فى رفق .. لانه يحبها من اعماق قلبه .

ولكن مانوليا أفادت من عامها اشياء كثيرة . رغم ضياع

التلود . وتعلمت كيف تغمض عينيها اذا ابصرت زوجها يبتسم لامرأة غيرها . وكيف تتغافل اذا خلف زوجها مقصورتهما فى المسرح بين الفصول . ليذهب الى المقصورة التى تحتلها هيتى شيلزون وفتياتها .

وهيتى شيلزون .. امراةجميلةمعتدةبفتنتها وثروتها . بل هى قوة لايستهان بها فى مجتمع المدينة .. لانهاصديقة لكبار رجالها .

ولقد قال لها جاى مرة : ان قصر هيتى شيلزون .ذلك القصر القائم فى ميشيجان . والذى يقبع عند مدخله تمثالا أسدين من الصخر الاصم . هذا القصر اشبه بمنتدى لاشهر زجال السياسة فى شيكاغو . ان اكثر من نصف الخطط السياسية التى تقراين عنها فى الصحف توضع وترسم هناك . انها ساحرة يتدله الكل فىغرامها . وقد جمعت ثروة طائلة وابتاعت ارضا فى الريف لوالديها . كما ابتنت فى الريف بيتا ريفيا انيقا . ثم انها تملك مكتبة من أعظم مكتبات الدولة ..

— ولكن يا جاى !..

— أتذكرين فرنسا !. أعنى أتذكرين النساءاللاتى قرات عنهن فى كتب التاريخ ؟. بمبادور . ومانتون . ودوبارى . الم يكن مشهورات . وكن يدرن دفة الشئون السياسية فى بلادهن ؟. انهن غانيات . هكذا تظنين أن ...

فكانت الدماء تتصاعد الىوجنتى مانوليا . دماءقانية . لم تكن بعد قد نسيت تعاليم أمها .

— ولكن المدينة باسرها تعرف امرها يا جايلورد .. انها لا تشبه دوبارى الا كما يشبه رجل الشارع ريشيليو . ان ثيابها لا تخفى ..

وكانما كان يلذ له ان يرقب الحيرة والحياء المذين يستوليان عليها كلما اثار هذا الحديث . كان شىء من

الا تحصلين على كل ما تشتهين يانولا ؟. اذن ففيم تطلبين النقود ؟

أما اذا كان تعسا منكودا ، فكان يبسط لها راحتيه ويقول

ـ لست املك من المال شيئا يانولا .. وقد قدمت اليك فى أوقات ارخاء كل ماكان فى مكنتى ان أقدمه ..

ـ هذا حق يا جاى .. ولكن : أية حياة هذه !.. نحن يوما سعداء . ويوما اخر لا نملك شيئا .. أليس فى وسعنا أن نعيش كما يعيش غيرنا من الناس .. حياة مستقرة امنة

ـ كان يجدر بك أن تتزوجى حدادا .

ووجدت نفسها تفكر فى السبل التى تتيح لها الاكتساب وتهيىء لها ما تحتاج من نقود .. وفكرت فيما اوتيت من مواهب .. وما أحرزت من نجاح فى التمثيل على ظهر «زهرة القطن» ومن معرفة بسيطة بالعزف على البيانو . وبالاغانى الزنجية التى تعلمتها من جو وكوينى .

وأفضت بذلك الى جايلورد يوما وحمرة الخجل تصبغ وجنتيها . ولكنه صمت وطال صمته فاحست بحرج وقلق عادت تقول :

ـ ما فكرت فى ذلك طمعا فى الملبس او سعيا وراء الظهور ولكن هناك كيم .. انها لاتتلقى شيئا من العلم ، ولم تهيء لها التربية الصالحة .. وما هذا من العدل فى شيء !.

ـ يا الهى ! هو ذا حديث يعكر على الانسان صفوه وهناءه

ـ ولكن ياجاى .. ان واجبك ـ كما هو واجبى ـ ان نفكر فى هذا الصدد ياعزيزى .. وهذا ما دفعنى الى التفكير فى كسب شيء من المال .

فاجابها رافنل :

ـ ما اراك معتقدة ان تلك الادوار التى كنت تقومين بها هى من التمثيل فى شيء .. وما اظنك تعتقدين ان ذلك كان ميسرا

ـ انى أعتقد ذلك فعلا : واظن .. وانى لاحب تلك الأدوار لقد كان كل فرد فى الفرقة يمثل لانه يحب التمثيل ويحب تلك الادوار . وربما لم يكن التمثيل على درجة كبيره من الفن ولكن الجمهور كان يعتقد أنها كذلك ، وكان يبكى فى مواقف البكاء ويضحك فى مواقف الضحك

ـ ان شيكاغو ليست قرية من قرى الساحل .. وجمهورها ليس بالجمهور الساذج الغر .. لقد رأيت مادجيسكا ومانسفيلد وبرنهارت جيفرسن على المسرح هنا : ولابد انك لمست الفارق ..

ـ بل على العكس .. لست أنكر انهم جميعا على درجة كبيرة من النبوغ ، وتسندهم ادارة واخراج فنيان عظيمان ولكنهم يفعلون ماكنا نفعل ، وانما فى صورة أحسن واداء أدق

ـ لا تفخرى ياعزيزتى .

وقصدا أخيرا الى مقهى ريفى بديع يقوم خارج أطراف المدينة . فى عزلة . وهدوء . ولكنهما ما كادا يستويان فى مجلسيهما حول احدى الموائد ، حتى برزت من منعطف فى نهاية الطريق المفضية الى المقهى . عربتان تحملان جماعة من شباب شيكاغو العابث اللاهى ، تصاعدت ضحكاتهم واغنياتهم تملأ الجو وتعكر الهدوء .

. وهتف رافنل فى عجب وقد عبس حين تبينهم وهم يقتربون : يا لله .

ـ أو تعرفهم يا جاى ؟

ـ انهم جماعة (بيبس شايين) ؛ ولابد انه دعاهم الى حفلة يقيمها احتفاء بعرسه الذى سيقيمه بعد غد .

ـ أحقا !. ما أبدع مثل هذه الحفلات !. وأيهم العروس ؟

ولكن رافنل لم يجب . ونفذت الجماعة الى المكان فى ضجيج وصخب ، فاكتسحوا الموائد وكانهم سيل فاض فاغرق المقهى . ولمحوا رافنل فجأة . فصاح احدهم :

وهتف احد الشبان :
ـ صه !.. صه .. كلمة من مسز رافنل
فارتفعت صيحاتهم وهتافاتهم .. ونهض رافنل يريد أن يفر بمانوليا من الموقف ، ولكنهم صاحوا :
ـ اجلس يا رافنل . القوا به الى عرض الطريق ! أو فليصمت !
وتحول رافنل الى مانوليا ، والقى براحته على ذراعها فاذا به يرتجف . وحولت رأسها نحوه فى بطء ومازالت الابتسامة تضيء وجهها ، ثم قالت :
ـ لا .. لا .. لست مستاءة يا عزيزى . اننى احب مثل هذه الجلسات الضاحكة !
ومدت يدها الى عنقها فى حركة غير ارادية . وقالت :
ـ اننى لا استطيع ان اخطب فيكم ..
فتعالت صيحات الاحتجاج .. ونظرت مانوليا الى زوجها فاحسست بشيء من الرثاء والاسى لحاله ..
وعادت تواصل حديثها : ولكننى استطيع أن أغنيكم اذا اعرتمونى اذنا (البانجو) .
وارتفعت الايدى بسنة من هذا النوع من الالات الموسيقية فتناولت اقربها اليها .. وهتف رافنل هامسا :
ـ مانوليا !..
ـ اجل .. يا عزيزى جاى وكف عن هذا التافف.. انه ليسعدنى ان ادخل السرور على قلوب اصدقائك ، ولسوف أغنيهم اغنية تعلمتها عن الزنوج فى صغرى عندما كنت أعيش على ظهر سفينة مسرحية فى المسيسبى
وانحنت رأسها على البانجو : وراحت تمس أوتارها بطرف اصابعها فى رفق ، ثم طرحت رأسها الى الخلف : واسدلت اهدابها على عينيها . وترنحت قليلا كما كان يفعل جو حين يهزه الطرب ..

ثم انطلقت تغني في صوت عذب ناعم . فلما انتهت ارتفعت صيحات الاعجاب من الرجال . بينما اطربتها الفتيات في فتور . وعاد الجميع يطالبونها باغنية اخرى . واخذتهم النشوة فمضوا يدقون الارض باقدامهم مع الانغام . حتى اذا فرغت ، تعالى انهتاف اكثر من ذي قبل . وابت بلانش من دون القوم الا ان تقف صائحة :

ـ لست ادري لم لا اميل الى هذه الاغنيات . انها حزينة حتى لكاننا في كنيسة ، الا تعرفين بعض الاغنيات انزنجية الاخرى . المرحة ؟..

فاجابت مانوليا : لا اعرف سوى هذا النوع في الواقع.. والان .. اظن ان الوقت قد حان لانصرافنا

ثم ثبتت عينيها الكبيرتين على العريس وقالت : اتمنى لك كل السعادة والهناء .

وانحنى رافنل يحييهم .. والمرة الثانية في ذلك اليوم اخرج منديله وراح يجفف العرق عن جبينه .

وتجمع العابثون في شرفة المقهى يودعون رافنل ومانوليا .. كان ذلك في الغسق . وقد سرت في نسيم المساء بعض الرطوبة كما يحدث عادة قبيل انخريف في منطقة بحيرة ميشيجن . وارتعدت مانوليا وجمعت اطراف معطفها حولها والتفتت الى الجماعة ملوحة بيدها للمرة الاخيرة

وسادت السكينة بينهما بعض الوقت ، ثم قال رافنل بصوت خافت . وفي شيء من الدعة :

ـ حسنا .. اظن ان هذا قد رفه عنك يانولا ! .

ـ يجب ان اواجه الحياة .. لقد كنت احيا كفتاة صغيرة حمقاء ، وانا امراة متزوجة .. ولعل ذلك يرجع الى ماتعودته من خضوع لامي .. يجب ان اتولى العناية بامر كيم فلاتبتئس لهذا يا عزيزي ..

بوسم راحة السفينة او فترات عطلتها . عن تناثر بين الحفيدة والجدة .. فلقد كانت لكل منهما ارادة حديدية وعناد جامد . وحيوية لاحد لها . ومقاومة طاغية .. بل كانتا فى نظر مانوليا متشابهتين أكبر اشبه .. وعلى العكس كانت كيم اذا وجدت أمها تقف امام صورة الكابتن اندى. كما كانت تفعل أحيانا ولساعات باكملها تحدق فى عينيه . تفصح عن حبها العظيم لجدها المتوفى ..

وكانت مانوليا تصحبها احيانا الى النهر : فتقول كيم :

ـ أهذا هو النهر الذى طالما حدثنى عنه . انه قذر كئيب

على العكس مما صورته لى . وكانت بارتى تتساءل :

ـ شيرمان هاوس !. كيف تعيشون فى نزل طيلة هذه الاعوام وتتحملون ما يتقاضاه من نفقات غالية للطعام والشراب انك وزوجك تبددان النقود فى اسراف . والا . فلم لاتعيشان فى مسكن خاص ككل الناس ؟. بودى لو اعرف من اين تاتين وزوجك بهذه النقود التى تبعثرانها ؟..

ـ ان جاى يحب حياة النزل .. وهو موفق كل التوفيق فى اعماله .

بيد ان بارتى لم تكن تقنع بمظاهر ابنتها .. وكانت تنتهز فرصة غيابها تستدرج الصغيرة الى احاديث تفهم من خلالها الحقيقة .. فعرفت نزل شارع اونتارو .. ونزل شارع اوهيو . وفترات الضيق والاعسار التى كانت تنتاب الاسرة من وقت لاخر .

ولكن . هاهى ذى بارتى معتزمة المجىء الى شيكاغو بعد اسبوعين : وهى التى لم تر المدينة قط فى حياتها من قبل ولسوف تنزل فى النزل الذى تقيم فيه ابنتها وحفيدتها وزوج ابنتها . وانها لترجوهما فى خطابها ان لايخشيا ان يدفعا شيئا من اجر اقامتها . فانها لن ترضى بهذا .

وهتف جايلورد وافتل فى ضيق وكرب وغيظ :

ـ يا الهى !.. يا الهى !..
وارسل حوف شماتتها الى نفسيهما جزعا وشعورا بالهوان
وقالت مانوليا : اقترض . ـ وأين الضمان ؟.
ـ ماعنيت هذا النوع من القروض .. وانما اقترض من اصدقائك . من الرجال الذين عرفتهم طيلة هذه السنين
فابتسم فى اسى وقال : انهم ليسوا باحسن منى حالا . فلقد حاولوا الاقتراض منى ..
ـ واصحاب المتديات التى خسرت فيها الالاف ؟
وفجاة قفز على قدميه . واختطف قبعته وعصاه وتحول يهم بالانطلاق من الحجرة .. وكانت الساعة التاسعة مساء ولم تكن من عادتها أن تسأله أين يذهب .. ولكن قسمات وجهها كانت تصرخ بالسؤال ..
ـ رفهى عنك يا فتاتى . فلقد تذكرت شخصا
ـ من ؟ .. من يا جاى .
ـ امرأة خدمتها مرة . فهى مدينة لى .
ـ امرأة ؟ امرأة يا جاى ؟
ـ لا تشغلى بالك . واتركى الامر لى .
ولم يعد رافنل الا مع الخيوط الاولى من الفجر . فاستيقظت على وقع قدميه .
ولاول نظرة القتها عى وجهه . تراءى لها انه على غير عهدها به .. كان جايلورد رافنل ثملا لاول مرة مذ عرفته.
وترنح رافنل قليلا . ثم اسلم عصاه الى ركن الحجرة فى عناية وخلع ملابسه ووقف برهة يتارجح ويتمايل . ثم دفع اليها بحزمة من الاوراق المالية قائلا :
ـ أحصى هذه ؟ ... عشر ورقات من ذات المائة دولار وعشر مثلها اى انها دولار يا مسز رافنل
ثم عاد يتم خلع ثيابه فى شىء من العناء .. وتشاءب كشخص يعود الى بيته مرهقا بعد عمله اليومى .

وتطأمت اليه ثم قالت : لقد أتيت بها من هيتى شيلزن ووقف جامدا . لا غاضبا . وانما . كشخص اهين
ـ ماذا تقولين يا مانوليا ؟ .. انما اخذت من هيتى الطيبة الفا فقط . ثم نعبت فى منتدى « شيدى » فكسبت الفا اخرى من الروليت . ها . لقد كانت صدمة للجميع .. انفا فقط من هيتى . ولعبت الروليت . وكسبت . ألفا اخرى .
ـ تم القى بنفسه فى الفراش .. وسرعان ما كان يغط فى نوم عميق .
ونفذت طلائع الفجر فاحتلت الحجرة . ونهضت من مكانها لتطفىء المصباح . ولكنها قبل ان تفعل أنتقطت حزمة الاوراق المالية وعدت عشرة منها .. الف دولار . ووضعت الالف على المنضدة . ثم دفعت بالالف الاخرى تحت الوسادة وأطفات المصباح . ثم مضت ترتدى ملابسها .
وهبطت السلم المعتم . فالتقت بصاحبة البيت التى ما كادت تراها حتى هتفت فى تلطف : لماذا تبكرين بالخروج يا مسز رافنل ؟
ـ انها الاعمال

الفصل السابع عشر

دوى رنين الجرس بين جدران القصر الفخم الذى يحرس بابه تمثالا الاسدين . ثم سادت فترة صمت شاملة وقفت مانوليا خلالها فى الخارج تستجمع اطراف شجاعتها التى بدات تفارقها من جديد .. وهى ترى الناس يمرون بها . ويرمقونها وهى تدق باب هيتى شيلزن ..
وانفرج الباب أخيرا عن زنجى فى لباس ابيض ناصع . لم تدر مانوليا سر الحزن الذى يشيع فى نظراته .
قالت : ان اسمى مسز رافنل . واود مقابلة هيتى شيلزن
قال وكانما يردد درسا حفظ : ان مسز شيلزن مشغولة

يا سيدتي .
ثم هم ان يغلق الباب دونها . ولكنها هتفت به :
ـ صبرا . لا تغلق الباب .. اريد ان ارى هيتي شيازن
وتبين الرجل فى لهجتها رنة الامر . فسالها :وماذا تريدين؟
ـ قل لها ان مسز جايورد رافنل تريد أن تقابلها لتسلمها
الف دولار ..

وفتحت حقيبتها فى شىء من السذاجة .. ووقع بصره على الاوراق المالية فاحس باهمية الزائرة ..
ـ حسنا يا سيدتى تفضلى بالدخول وساخبرها
ودخلت مانويا .. وتولاها خوف غريب واحست بركبتيها ترتعدان . ولكنها تشبثت بحقيبة يدها . وراحت تتلفت حولها فى فضول . وقد اخذت بالرياش الفخمة الانيقة التى تزين الردهة ..
وهبطت هيتى شيازن السلم فى خطوات متباطئة . تحوطها هالة من العظمة والجلال .
قالت وهى تفحص زائرتها بعين الخبيرة الدقيقة : كيف انت هل انت مسز رافنل ؟
ـ اجل .. ـ واية خدمة ترومين ؟ ..
فاخرجت الاوراق المالية وقدمتها للسيدة ..
فقالت فى تلعثم : انقود .. التى اعطيتها .. لزوجى .. ها هى ذى .
ـ ولكنى لم اعطه اياها . وانما قدمتها له قرضا . وقد وعدنى ان يردها الى .. ولرافنل شهرة حسنة فى سداد الديون .
ـ وكنا لسنا فى حاجة اليها .
ـ لستم فى حاجة اليها .. اذن لماذا جاء يطلبها ؟ ..
انى لست مصرفا لسحب النقود وايداعها .
ـ انى ابسفة . لكنه لم يكن يدرى .. لا استطيع ..

فجاة بالدموع تنحدر من مآقيها .

كانت « جولى » فتاة هيتى شيلزن المقربة . هى نفس جولى الممثلة التى صادفتها مانوليا لاول مرة لدى باب منزل طيبة .. ثم التقت بها على سطح « زهرة القطن »

وهامت مانوليا على وجهها بعض الوقت .. ثم تذكرت انها جائعة . فعرجت على مطعم رخيص تناولت فيه غداء تافها .. ثم وقفت امام مراة فى مدخل المطعم حيث نظمت شعرها . واحكمت وضع قبعتها على راسها . وهى تسائل نفسها .. ترى ما العمل ؟

كانت تعلم ان فى شيكاغو بضعة مكاتب لتقديم الممثلات الى المسارح .. ولكنها كانت ذات سمعة سيئة . وفجاة تذكرت مسرح كول وميدلتون الذى زارته مع زوجها فى رحلتهما الاولى الى شيكاغو . حين كانا يعملان على سطح السفينة.

وكان هذا المسرح يعرض برامج منوعة . تجمع بين التمثيل والرقص والغناء .. وتذكرت ما قاله لها رافنل اذ ذاك :

ـ سوف يوفق كول وميدلتون الى تشييد مسارح فخمة لكل نوع من هذه الانواع .

ونقد صدق ظنه . اذ افتتح الشريكان بعد عامين مسرحا خاصا لمسرحيات « الفود فيل » فصاح رافنل :

ـ اما قلت لك ! .. أن بعض ممثليهم يحصلون على اربعمائة دولار فى الاسبوع .. بل اكثر ! ..

ثم عقبا بصالتين للرقص والغناء .. يعمل فيهما كثير من الفنانين والفنانات ذوو المواهب .

ويممت مانوليا شطر شارع واباش . حيث قامت أبنية مسارح وصالات كول وميدلتون . وهناك فى احدى هذه الابنية كان المكتب الخاص لاختيار الفنانين الجدد . فتوقفت مانوليا بالباب لحظة .. وتلفتت حولها فلم تجد احدا .

وترددت . ثم جمعت اطراف شجاعتها واجتازت الردهة بخطوات مضطربة . ثم أحست فجاة بطمانينة غامرة .. كما لو كانت قد عادت الى بيت نشأت فيه ثم هجرته مرغمة .. والقت نفسها فى صالة قد جلس بها رجل يغنى بينما احاط به نفر من الرجال .

وكان صوته خشنا . والاغنية من الاغنيات الزنجية المالوفة

وانتظرت ماتوليا فى سكون حتى فرغ من الغناء . وساد الصمت .

ووقف المغنى واجما متلهفا .. فقال احد الرجال :

ـ حسنا .. اهذا فنك . من الخير لك ان تعود الى حيث كنت تعمل . فانك لا تفيدنا ! ثم نظر الى من حوله وقال : بحسبنا هذا اليوم ..

ونهض واقفا وهو يتثاءب .. وحينئذ تقدمت اليه مانوليا فى خفة .. فصعدها بعينيه .. وقالت له : اتسمح لى بان اسمعك بعض الاغنيات ؟

ـ من انت ؟ ـ مانوليا رافنل .

ـ لم اسمع باسمك من قبل ؟ .. وماذا تجيدين .

ـ اغنيات الزنوج على نغمات البانجو

ـ حسنا . اعدى التك واسمعينا .

ـ ولكننى لم احضر الالة معى .. الا اجد هنا واحدة ؟

ونظر اليها الرجل فى دهشة .. ولكن المغنى قدم اليها الته قائلا فى لطف :

ـ اليك يا أختاه واحدة ..

وتناولت البانجو وعيناها تفيضان شكرا وعرفانا بالجميل ثم تقدمت من المنصة فى هدوء وكانها تتحرك فى بيتها . ثم جلست وابتسمت . ولكن لم يبد على الرجل انه افتتن بابتسامتها .. وانطلقت تغنى . وما ان فرغت من الاغنية حتى قال

ـ غننا قطعة اخرى .

وانطلق صوتها رقيقا . حزينا مشجيا ..

ـ امل الا تكون هناك انباء سيئة ..
فدفعت اليه بالبرقية . فاذا فيها .. « مسز بارلينيا ان هوكس ماتت فجاة فى الساعة الثامنة قبل رفع ستارمسرح « زهرة القطن » فى كولدسبرينج بتنيسى . تعازى الفرقة .. برناتو »
وهتف الرجل : هوكس ؟
ـ انها جدتى .. ولم ارها . ولكنها تجاوزت الثمانين وكانت ذات شهرة واسعة فى احواض الانهار . فقد كانت تملك وتدير سفينة مسرح زهرة القطن .. ولقد كان ثمة فتور بينها وبين امى وابى .
وقطع عليها الحديث صوت الخادم تعلن رفع الستار .. فقال الصحفى فى حزن :
ـ اننى جد اسف .. هل من خدمة استطيع اداءها ؟ هل استدعى والدتك ؟
ـ كلا .. انها مع كين .. وستعود بعد نصف ساعة .. لا فائدة ..
وهبطت الستار .. وانحنت تحيى الجمهور .. مرة وثانية وثالثة
وعادت الى حجرتها فراحت تزيل المساحيق عن وجهها. وتستبدل ثيابها .. واذا اوشكت أن تنتهى اقبل كين وامها .. وهما يضحكان .. ونظرت اليهما كيم وحز فى نفسها ان امها كانت فى تلك الليلة اسعد مما كانت فى اية ليلة اخرى
سالت كيم وهى تفكر فى مخرج من مازقها : كيف كانت المسرحية ؟ ..
فاجابها زوجها : الاخراج بديع .. والاضاءة غاية فى الروعة ..
فقاطعته مانوليا : ليكن .. هل تسمح باستدعاء سيارة تقلنى الى البيت ؟ .. إننى متعبة .. ولا اظن اننى استطيع قضاء السهرة معكما .

فقالت كيم : اننا لن نسهر الليلة .. مهلا يا كين
واقتربت من مانوليا وقالت : أماه .. لقد تلقيت برقية
فشهقت مانوليا . وصرخت كما لوكانت طفلة صغيرة :
امى ؟ .
ـ اجل ـ واين هى .. هل ماتت ؟
واسرعت تتلو البرقية .. ثم رفعت وجهها . فاذا البهجة قد انحسرت عن ملامحها . وبدت كما لو كانت الشيخوخة قد أدركتها فجاة .. قالت :
ـ متى يرحل اول قطار الى ممفيس ؟ ..
ـ ما اظنك ذاهبة الليلة يا أماه
ـ بل ساذهب .. هناك قطار الى سانت لويس .. وفى الصباح . ارحل الى تينيسى ..
وسافرت فى ذلك المساء رغم احتجاج ابنتها وزوج ابنتها كانت رحلة شاقة متعبة . ولكن مانوليا لم تشعر بها .
وكانت تعتزم اذا ما انتهى بها القطار الى ممفيس . ان تبحث عن اية وسيلة من وسائل النقل تحملها الى كولدسبرينج .. ولكنها ما كادت تغادر القطار . حتى تقدم منها رجل ادركت انه ذلك الـ « برناتو » الذى بعث اليها البرقية .. وكان هو المدبر انعام . والقائم بامر الدعاية للفرقة
قال برناتو :
ـ لا شك انك متعبة يا سيدتى . فهلا تفضلت بركوب السيارة .
واشار الى سيارة انيقة فخمة تنتظر خارج المحطة فتحولت مانوليا نحوه شاكرة وسالت :
ـ جميل منك ان تاتى بسيارتك . فقد كنت فى حيرة
ـ انها ليست سيارتى يا سيدتى .. بل سيارة املك .. وقد اصبحت لك طبعا .. والان . اعتقد انك تفضلين ان تاوى الى حجرتك التى حجزتها لك فى الفندق . انقضى ليلتك
فصاحت مانوليا :

نكتة . لم يشاركه احد فى استساغتها
واخيرا .. حانت ساعة الرحيل .. وعادت كيم تردد :
ـ اماه .. لا استطيع ان ارحل واتركك فى هذه السفينة التى لا تكاد تستقر فى مكان . ووسط هذا الذباب .. والبعوض .. والزنوج .. والنهر المروع المخيف الذى يدهشنى انك تحبينه اكثر مما تحبيننى ..
وتعانقت الام وابنتها .. وتبادلتا القبلات .. وتصافحت مانوليا وكين .. وقالت كيم اخيرا :
ـ اماه . قفى فى المقدمة . حتى اراك من اقصى منعطف فى الطريق ..
وتجمع اهل المركب ـ وكانت قد اضيئت استعدادا لحفلة المساء ـ يودعون الشابين وقالت كيم من اسفل سلم السفينة
ـ اماه .. يجب ان تعودى فى اكتوبر او نوفمبر على الاكثر .. عديني .. ان موسم مسرح السفينة ينتهى فى ذلك الوقت ..
واجهشت كيم بالبكاء عندما تحركت بها السيارة . ولم تحول بصرها عن السفينة
ووقفت مانوليا على سطح السفينة . كشبح بين السماء والماء .. شبح طويل ممشوق القامة وقد افتر ثغرها عن ابتسامة . وان انبعثت من عينيها نظرة حزينة ..
وقامت كيم وهى تجهش بالبكاء :
ـ الا تراها رائعة يا كين .. انى لاحس بان حولها شيئا خالدا لا يقهر .. كذلك السر الذى يلف النهر ..
وانثنت السيارة مع الطريق .. وتدلت اغصان اشجار الشاطىء تحجب السفينة عمن فى السيارة .. فاختفت المركب .. والنهر .. والشبح القائم بين الماء والسماء .

((تمت))

طبعت بمطابع الدار القومية للطباعة والنشر

هيئة قناة السويس

تعلن هيئة قناة السويس عن حاجتها الى طبيب اسنان وطبيب عيون وطبيب أمراض جلدية . ويشترط فيمن يتقدم لشغل احدى هذه الوظائف :

١ ـ أن يكون متمتعا بجنسية الجمهورية العربية المتحدة

٢ ـ أن يكون حاصلا على التخصص العلمى المناسب لشغل احدى هذه الوظائف على أن يكون قد اتم مدة النيابة باحد الاقسام بالمستشفيات الجامعية والا تقل مدة خدمته عن خمس سنوات من تاريخ تخرجه .

٣ ـ أن يكون حائزا على الشهادة الدالة على ادائه الخدمة الالزامية او اعفائه منها أو معاملته وفقا للمادة ٣٠ من القانون رقم ٥٠٥ لسنة ١٩٥٥

٤ ـ تقدم الطلبات باسم السيد رئيس هيئة قناة السويس (قلم شئون الموظفين) فى موعد اقصاه ١٩٦٠/١٢/٣ على النموذج طلب الاستخدام الخاص بالهيئة ويمكن الحصول عليه من مكاتب العلاقات العامة بالقاهرة والاسماعيلية وبور سعيد وبورتوفيق ولن يلتفت الى الطلبات التى سبق تقديمها قبل هذا الاعلان أو التى تقدم على غير النموذج المخصص للطلبات .

« ١٨٢٤٦ ف »

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET